أبطال المسيحية : في الماضي والحاضر

الأخ أندرو

عميل الله السري

بقلم

چانيت وچيوف بنج

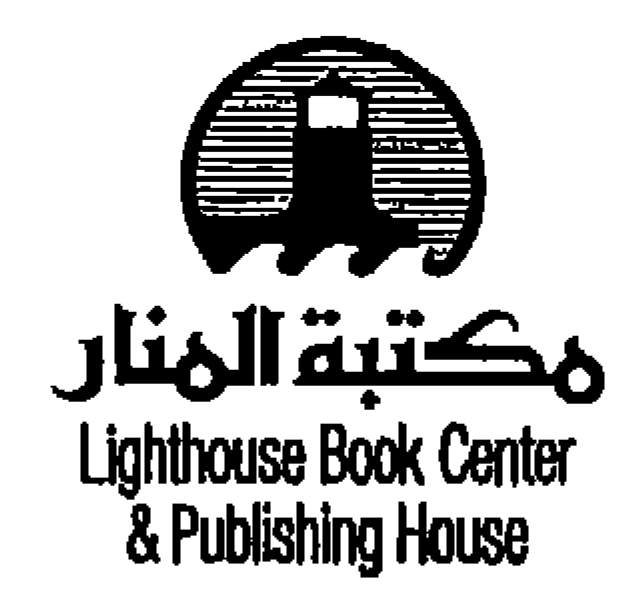
أبطال المسيحية : في الماضي والحاضر

الأخ أندرو

عميل الله السري

بقلم

چانيت وچيوف بنج



BROTHER ANDREW

God`s Secret Agent

Author: Janet & Geoff Benge

Published in Arabic:-

Lighthouse Book Center

17, Murad El-Sherei st.,

Saint Fatima, Heliopolis,

Cairo, Egypt .

Tel: (02)26395030

Fax: (02)22403848 .

الأخ أندرو

عميل الله السري

المؤلف:چانيت وچيوف بنج

ترجمة: إدوارد وديع

مراجعة: مريم فؤاد

الناشر باللغة العربية:-

مكتبة المنـــار

١٧ ش مراد الشريعي

سانت فاتيما ــ مصر الجديدة

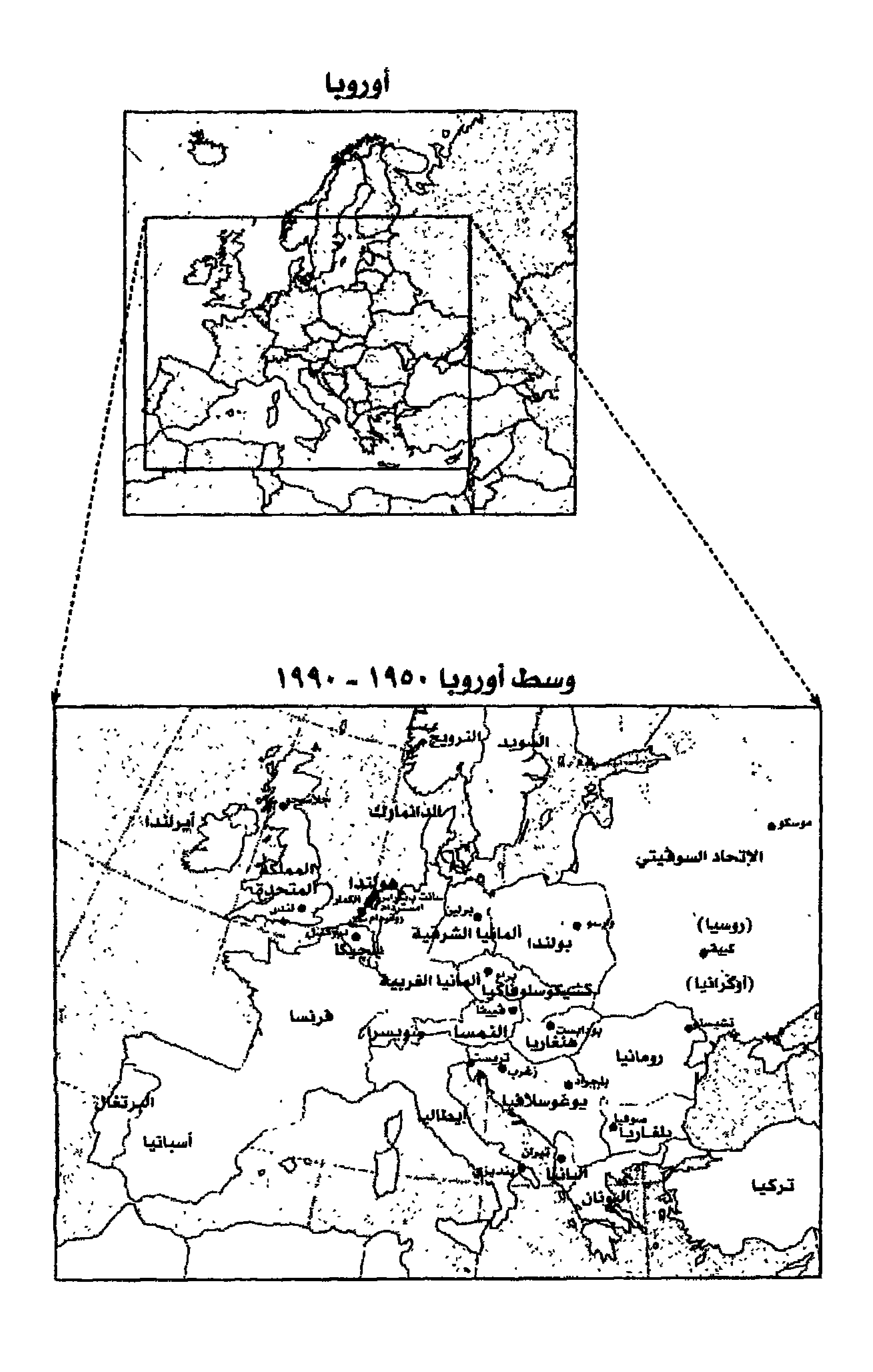
تليفون: ٢٦٣٩٥٠٣٠ (٠٢)

فاكس: ٢٢٤٠٣٨٤٨ (٠٢)

رقـم الإيـداع : ١٦٥٩٧ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى : 2 - 032 - 394 -977

www.lighthouseegypt.com


أوروبا
وسط أوروبا ١٩٥٠ - ١٩٩٠
النرويج
السويد
الدانمارك
أيرلندا
المملكة المتحدة
هولندا
لندن
بلجيكا
برلين
ألمانيا الشرقية
بولندا
موسكو
الإتحاد السوفيتي
(روسيا)
كييف
(أوكرانيا)
براغ
ألمانيا الغربية
تشيكوسلوفاكيا
فيينا
النمسا
بودابست
هنغاريا
رومانيا
فرنسا
سويسرا
تريست
زغرب
بلجراد
يوغوسلافيا
البرتغال
أسبانيا
ايطاليا
صوفيا
بلغاريا
تيران
ألبانيا
برنديزي
اليونان
تركيا

المحتويات

الفصل الأول

على الحدود

أوقف أندرو السيارة على الحدود. كان قد عبر لتوه نهر الدانوب من بلغاريا وكان ينتظر الدخول إلى رومانيا. تم إيقاف أربع سيارات أمامه، وشعر أندرو بالارتياح. قال لنفسه: "لا شك أن الأمر سوف يستغرق دقائق معدودة وحسب قبل عبور الحدود الرومانية". ولكنه سرعان ما اكتشف كم كان تقديره خاطئًا. بعد مضي أربعين دقيقة كان حرس الحدود مازالوا يفحصون السيارة الأولى. وأخيرًا عندما لوحوا لها باستئناف السير، تقدمت السيارة التالية في الصف إلى الحدود بين البلدين. وعندئذ بدأ الحراس في تفتيشها. وبعد مضي ساعة تم إخراج كل شيء بداخل السيارة ووضعه على الأرض وفحصه بدقة بالغة، بالإضافة إلى مقاعد السيارة والأغطية المعدنية المستديرة للأجزاء الوسطى من العجلات. كان الحراس منهمكين الآن في تفكيك أجزاء المحرك.

وضع أندرو يديه في جيبيه وحاول أن يبدو هادئًا، على

الرغم من أن قلبه كان يدق يعنف في داخل صدره. كان قد عبر الحدود إلى الدول الشيوعية مرارًا من قبل، ولكن هذه المرة كانت أول مرة يرى فيها شيئًا كهذا.

قال لنفسه: ماذا عن حمولتي.. تلك الكتب المقدسة الثمينة! لو أن الحراس فتشوا سيارته، فلا شك أنهم سيجدون السلع المهربة. سوف تؤخذ منه الكتب المقدسة، وسوف ينتهي به المطاف في سجن روماني، دون أن يعرف أحد في الخارج أين هو. كان عليه أن يدفع ثمنًا باهظًا، ولكن بنعمة الله، كان أندرو يأمل في تهريب الكتب المقدسة بالرغم من عيون الحرس اليقظة.

فعل أندرو ما كان يفعله دائمًا عند مواجهة تلك المواقف: صلى في صمت لأجل ذلك. ثم فعل نقيض ما قد يبدو أنه أفضل فرصة لإخراج الكتب المقدسة عبر الحدود. فبدلاً من إخفاء الكتب في المقعد الخلفي لسيارته، أخرج بعض الكتب المقدسة ووضعها بجواره على المقعد الأمامي، حيث كان من المؤكد أن يراها حرس الحدود.

وأخيرًا، بعد مضي أربع ساعات من توقف أندرو عند الحدود، لوح له أحد الحراس بالتقدم إلى الأمام. قال أندرو

لنفسه وهو يقود سيارته نحو الخط الفاصل: "الآن حان الوقت لأبقى هادئًا، وساكنًا، ورابط الجأش". ابتسم وهو يحيي الحراس. قال لهم بعذوبة وهو يبحث عن جواز سفره الهولندي: "يوم طيب".

كان أندرو يعرف كيف يكون هادئًا ورابط الجأش عندما يتعرض للضغوط. فعندما كان صبيًا غضًا في هولندا، كان قد تعلم كيف يواجه الخطر بهدوء وسكينة. أولاً، بينما كان يمارس لعبة اعتاد أن يلعبها ليحفز نفسه.. ثم، في معترك الحياة، عندما كان يقاوم المحتلين الألمان بهمة بعد غزوهم لبلده.

الفصل الثاني

جاسوس مزعوم

مغامرة .. ذلك ما كان "أندرو فان دير بيجل" البالغ من العمر ٨ سنوات بحاجة إليه، ويفتقده. بينما كان يمشي في الشارع الرئيسي للقرية الهولندية "سانت بانكراس"، تغلب على أندرو إحساس غامر بأن الحياة مُملة. كان يعرف كل منزل في القرية وكل عائلة تعيش في تلك المنازل. كان يعلم ما يفعله كل شخص، أو ما يفترض أن يفعله. كان ذلك في عام ١٩٣٦، وكان يتخيل أنه بعد عشرين سنة سيظل بإمكانه السير في نفس الشارع ليجد أن كل شيء تمامًا كما كان من قبل. تصور نفسه يعمل حدادًا كأبيه، يصاب بالصمم من جراء الطرق المستديم للمعدن على المعدن، وتخيل بشرته وقد كستها بثور كبثور الجدري بسبب الحروق الناتجة عن الجمرات المتطايرة من الفرن. أخذ أندرو يتنهد، وتساءل أين المغامرات التي قرأ عنها في كتب المكتبة. ثم أجاب نفسه: إنها في مخيلتي وليست في أي مكان آخر.

كان أندرو في منتصف الطريق المحفوف بشجر الدردار

من الجانبين عندما قرر أن يتظاهر بأنه جاسوس يزحف نحو منزل "ويسترا". أخذ يتأكد من عدم وجود شخص يراقبه، ثم اختفى خلف شجيرة. زحف ببطء نحو نافذة المنزل. كان عليه أن يخطو فوق لوح زائد من الزجاج كان مستندًا على المنزل. أخذ يحدق في النافذة ويراقب السيدة ويسترا وهي تدندن أثناء وضعها صينية من الكعك في الموقد الخشبي.

وفجأة طرأت فكرة على مخيلة أندرو. كيف يكون الحال إذا تسلق على السطح وسد المدخنة بلوح الزجاج الذي عند قدميه؟ كم يكون مضحكًا أن يرى الدخان وهو يرجع ثانية إلى المطبخ بكثافة بينما تحاول السيدة ويسترا أن تستنتج ما يحدث. وسوف يكون مضحكًا أيضًا أن يرى السيد والسيدة ويسترا غاضبان حقًا عندما يكتشفان أن مدخنتهما قد سدت عمدًا. لم ير أندرو من قبل عضوًا في عائلة ويسترا محبطًا أو غاضبًا. كان أفراد عائلة ويسترا دائمًا ما يذّكرون الآخرين في القرية أن يحمدوا الله عندما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. لذا ظن أنه من الشيق أن يرى ما قد يفعلون عندما يكون الجو مُلبدًا بالغيوم. لعلهم يلعنون!

وبهذه الفكرة المبهجة في عقله أمسك أندرو بلوح الزجاج، وزحف إلى جانب المنزل حيث كان سلم نقال مستندًا إلى الحائط. خلع أندرو قبقابه الخشبي وبدأ في تسلق السلم، مستخدمًا يدًا واحدة ليثبت نفسه ويمسك اللوح الزجاجي باليد الأخرى. ثم نقل نفسه إلى سطح منزل ويسترا، متجنبًا جذب الانتباه مع التلفت الدائم للتأكد من عدم وجود مَن يشاهده. ثم وضع لوح الزجاج بصمت فوق المدخنة. وفي الحال بدأ الدخان يتجمع تحته.

نزل أندرو على السلم بسرعة واتخذ وضعه السابق خلف الشجيرة وانتظر. لم تكن السيدة ويسترا في المطبخ عندئذ، ولكن لم تمض سوى دقيقة أو دقيقتين قبل أن اندفعت إليه. ألقت نظرة سريعة على الحجرة المليئة بالدخان، وأطلقت العنان لصرخة بسيطة، وفتحت باب الفرن، وبدأت تطرد دخان الفرن بمريلتها. كانت تبدو هزلية لدرجة أن كل ما استطاع أندرو أن يفعله هو أن يمنع نفسه من الضحك بصوت عال.

سرعان ما وثب السيد ويسترا إلى المطبخ وحدق في الفرن. ثم استدار بسرعة، وخرج من الباب، وصعد السلم.

كان أندرو يشاهده وهو يسحب لوح الزجاج من على قمة المدخنة وينظر حوله. اختفى أندرو خلف الشجيرة، وأسرعت دقات قلبه. هل رآه السيد ويسترا؟ لم يكن يعتقد ذلك. أمسك السيد ويسترا بلوح الزجاج بيد واحدة، ونزل على السلم، ووضع الزجاج حيث وجده أندرو، ودخل المنزل. سمعه أندرو وهو يشرح لزوجته ما حدث بينما كانت السيدة ويسترا تطرد سحب الدخان القليلة الباقية من النافذة.

كانت لحظة مربكة لأندرو، الذي توقع بعض مظاهر الغضب، وبعض ومضات الإحباط. لابد أن السيد والسيدة ويسترا قد عرفا أن شخصًا ما قد وضع الزجاج فوق مدخنتهما. ومع ذلك لم يكن أي منهما مهتمًا بما حدث. لماذا كان ذلك؟ قرر أندرو ألا يفكر مرة أخرى في الموضوع.

وحيث أن المساء قد حل وحان الوقت لاصطحاب "باسيتان" إلى البيت، فقد تسلل أندرو من مخبأه وواصل السير على طول الطريق المؤدي إلى بيته. كان أخاه الأكبر باسيتان، أو باس كما كان الجميع ينادونه، واقفًا بجوار شجرة الدردار الثالثة على اليسار. كان يقف هناك كل يوم

لعدة ساعات يراقب أهل القرية وهم يذهبون إلى أعمالهم. لم يقل أي كلمة لأي شخص أبدًا. في الواقع، فهو لم يكن يستطيع أن يتكلم على الإطلاق. ومع أنه كان أكبر من أندرو بست سنوات، إلا أنه كان يجب أن يتم التعامل معه كطفل العائلة. كان من السهل حتى على الغريب أن يرى أنه يعاني من خلل ما. كان "باس" يعيش في عالمه الصغير الخاص به.. عالم يتكون من أمه التي تلبسه ملابسه في الصباح، ووقوفه تحت شجرة الدردار خلال ساعات النهار، وتناول وجبات الطعام. ولكن من الغريب حقًا، أن هناك شيئًا واحدًا كان باس يؤديه أفضل من أي شخص آخر في العائلة، أو في القرية كلها.. لقد كان بمقدوره أن يعزف الموسيقى.

في تلك الأمسية، مثل أي أمسية أخرى بعد العشاء، نهض والد أندرو من المائدة، وأعلن أن الطعام كان رائعًا، وجلس أمام الأرغن الضخم، وبدأ يعزف. يبدو أن السيد "فان دير بيجل" لم يلاحظ أن أصابعه المتيبسة القوية لم تكن دائمًا تضرب على المفاتيح الصحيحة، ولأنه كان يعاني من الصمم الجزئي، لم يلاحظ أبدًا إن كان يعزف بسرعة أو ببطء أكثر مما يجب. وفي حقيقة الأمر، ففي بعض الأحيان

كان عزفه رديئًا جدًا لدرجة أن أندرو كان يريد أن يضع يديه على أذنيه.

بينما كان السيد "فان دير بيجل" يعزف، كان باس يجلس على الأرض بجانب الأرغن ويريح رأسه على لوح قاعدة الآلة الموسيقية. كان يستمع بينما كان والده يشوه ترنيمة بعد الأخرى باستخدام لوحة المفاتيح. بعد ذلك كان شيء غريب يحدث، شيء كان يدهش أندرو في كل مرة. كان باس يزحف من تحت الأرغن ويربت على كتف والده. كان السيد فان دير بيجل يترك مقعده أمام الأرغن، ويحل باس مكانه. وبينما كانت يداه تمس لوحة المفاتيح وتشغل قدماه الدواسات، كانت الموسيقى العذبة تنساب من الأرغن. كان باس يعزف نفس الترانيم التي عزفها والده، ولكن في هذه المرة كانت تُعزف بلا أخطاء وفي الوقت الصحيح تمامًا. وفي ليالي الصيف الحارة، كان من المعتاد أن يجتمع الناس من القرية خارج منزل فان دير بيجل ويصغون بينما يعزف باس على الأرغن.

في الأحد التالي لحادثة منزل ويسترا، ذهب أندرو إلى الكنيسة مع عائلته. كان يعلم أن حضور الكنيسة كان ذروة

الأسبوع بالنسبة لوالدته. لم تتمتع السيدة "فان دير بيجل" بصحة جيدة: كانت تعاني من ضغط الدم المرتفع وكانت تقضي ساعات عديدة في كل يوم وهي تجلس أمام النافذة. كانت دائمًا ما تضبط راديو العائلة على محطة الإنجيل في هلفرسوم، وكان أندرو واثقًا أنها كانت ترفع صوت الراديو أكثر من المعتاد عندما يكون بالمنزل؛ لتتأكد أنه يستطيع أن يسمعه من أي مكان في المنزل. كانت محطة الإنجيل تدفعه للجنون، كما كان الحال بالنسبة للذهاب إلى الكنيسة في كل يوم أحد. كانت تعزيته الوحيدة أنه لم يكن مضطرًا للجلوس مع عائلته أثناء الخدمة. فبسبب صمم والده، كان الراعي قد أعد أداة خاصة تشبه التليفون في الصف الأمامي لكي يستخدمها السيد فان دير بيجل. ولكن الصف لم يكن يتسع لأكثر من سبعة أفراد.. وبما أن أندرو كان لديه ثلاثة إخوة وأختان، فلم يكن الصف يكفي الأسرة بأكملها للجلوس فيه.

كان أندرو يتطلع دائمًا بشغف للجلوس في المقعد الخلفي للكنيسة. كانت أمه تشكره دائمًا على التضحية التي كان يقوم بها. ولكن أندرو كان لديه سبب خاص للجلوس في المقعد الخلفي للكنيسة.. فقد كان يتسلل بسهولة للخروج من باب

الكنيسة في بداية الخدمة، ويعود متسللاً إلى الداخل قبل نهاية الخدمة!

لم يكن هذا الأحد مختلفًا. فعندما بدأ الجمع يقف لترتيل الترنيمة الأولى، تسلل أندرو إلى خارج الكنيسة. كان في الشتاء يجري إلى البيت، ويرتدي أداة التزلج، ويمضي الوقت في التزلج على الترع المتجمدة. ولكن ذلك اليوم كان آخر فصل الربيع، وكان الثلج في الترع قد ذاب منذ مدة طويلة. لذا اتجه أندرو إلى مرعى مجاور حيث كانت العديد من أبقار المزارع تمضغ العشب الأخضر المورق. ارتمى على العشب على بعد خطوات قليلة من البقر واستنشق رائحة الزنابق المزهرة ونبات الياقوتية بينما تتلامس أشعة الشمس الذهبية مع وجهه. بعد عدة دقائق من التنفس العميق والاستمتاع برائحة الزهور، كان أندرو يجلس هادئًا تمامًا. وبعد الجلوس هكذا لبضع دقائق قليلة، كانت الأبقار تمد أعناقها لتلامس كتفيه. وفي بعض الأحيان كانت تحاول أن تقضم أذنيه برفق، وكان يضطر لدفعها بعيدًا. ولكن بعد فترة قصيرة كانت الأبقار تأتي ثانية لتعاود الكرة من جديد.

كان يبدو أن أندرو لديه حاسة سادسة حيال وقت نهاية

الخدمة. عندما يدرك أنه قد حان الوقت للعودة إلى الكنيسة، كان يهب على قدميه، وكانت البقرات الخائفة المستندة إلى كتفيه تتفرق. وكان يجري بأسرع ما يمكنه نحو الكنيسة.

كان اليوم توقيته رائعًا، كالمعتاد، إذ وصل أندرو إلى الكنيسة بينما كانت الترنيمة الأخيرة تُعزف. انتظر بصبر خارجًا، وعندما خرج أول أعضاء الكنيسة اندمج معهم. ثم تراجع إلى الخلف خطوة خطوة حتى دخل الكنيسة من جديد، واتجه نحو والديه. كان طوال الوقت يستمع إلى التعليقات التي يثيرها أبناء الأبرشية عن العظة. فربما تكون تعليقاتهم مفيدة لاحقًا.

لقد كانت العادة في هولندا أن تدعو العائلات بعضها بعضًا لمنازلها بعد الكنيسة. كان الرجال يدخنون السيجار السميك ويشربون القهوة الأكثر سمكًا وهم يتأملون في عظة الصباح. وفي ذلك الصباح بالذات كان السيد "فان دير بيجل" قد دعا عائلة ويسترا إلى منزله.

وفي البيت، شعر أندرو بالإثارة عندما بدأ الحوار. كان يحب أن يرى إلى أي مدى يستطيع أن يخدع الجميع. ولكي يفعل ذلك كان يستخدم كل ما استرق السمع له من الحوار

في نهاية الخدمة الكنسية.

صرخ فيه والده: "إذًا ماذا كان رأيك في العظة يا أندرو؟" كان والده دائمًا يصرخ بسبب صممه.

قال أندرو: "كانت شيقة". ثم توقف لإحداث تأثير دراماتيكي. ثم استأنف حديثه قائلاً: "ولكني أعتقد أن الراعي وعظ عما جاء في لوقا ٣: ١٦ الشهر الماضي. ربما كان عليه أن يعلِّم شيئًا من العهد القديم على سبيل التغيير".

انتظر أندرو ليرى إن كان والده أو السيد ويسترا سيصدقانه.

أجاب السيد ويسترا: "نعم، نعم.. أنت على حق يا أندرو. لقد مضت عدة أسابيع منذ أن استمعنا إلى عظة من سفر المزامير. إني أحبها كثيرًا".

اتخذ الحوار اتجاهًا آخر، وانتظر أندرو فرصة أخرى لإدخال كلمة أو كلمتين، ليؤكد أنه كان مصغيًا بكل جوارحه خلال الخدمة بكاملها.

بعد تناول فنجانين من القهوة، كانت عائلة ويسترا على استعداد للرحيل. صافح السيد والسيدة ويسترا أيدي والدي أندرو. وبعدئذ ربت السيد ويسترا على رأس أندرو قائلاً له:

"جيد أن أراك ملتفتًا بتركيز للعظة. في المرة التاليـــة التـــي تمر فيها ببيتنا، تعال وزرنا. إن زوجتـــي تـــصنع أفـــضل الكعك، وموقدنا يعمل بشكل جيد منذ أن قمت بتركيب لـــوح الزجاج الجديد".

شعر أندرو بأن الدم ينضب مـــن وجهـــه. هـــل كانـــت مصادفة أن يذكر السيد ويسترا الكعك وكيف يعمل موقده، أم عرف أن أندرو هو الذي وضع لوح الزجاج فوق المدخنة؟ أخيرًا اقتنع أندرو أن السيد ويسترا عرف أنه هو الذي فعل ذلك.

مضت لحظة طويلة وغير مريحة عندما أمسك كل مـــن السيد والسيدة ويسترا بمعطفيهما واتجها نحو البـــاب. كـــان أندرو يعلم أنه لو كان السيد ويسترا قد قال شيئًا لوالده عـــن تلك الحادثة، فإنه سوف يُجلد. لم يكن والده من النوع الـــذي يتهاون مع المقالب، خاصة مع الجيران الغير متوقعين لمثل هذه الأمور. كان أندرو ممتنًا لأن السيد ويسترا لم يقل شيئًا آخر عن الحادثة، حتى أنه ساعد أخته الأكبر سنًا "مـــارتيج" بلطف في إعداد المائدة للغذاء بعد رحيل عائلة ويسترا.

همست مارتيج في أذن أندرو وهما يعملان معًا قائلة له:

"يا أندرو، إن بعض الناس لديهم الكتاب المقدس كله في رؤوسهم، ولكن لا توجد كلمة واحدة في قلوبهم".

استمر أندرو في إخراج السكاكين والملاعق. كان أندرو يكره أن تتحدث أخته هكذا. لقد كانت متدينة تمامًا كأمه، وكانت سببًا آخر من الأسباب التي جعلته يدرك أنه لن يحيا في سانت بانكراس عندما يكبر. بل سوف يمضي قدمًا في البحث عن مغامرة حقيقية في مكان ما.

الفصل الثالث

نذير الشؤم يزحف على أوروبا

كان اليوم هو الأخير من مايو سنة ١٩٣٩، وفي الأيام الأخيرة استقر إحساس بالكآبة على منزل فان دير بيجل. أصيب باس بعدوى السل الرئوي وقال الطبيب أنه لن يصمد طويلاً أمام وطأة المرض.

شعر أندرو بانسحاق القلب. كان قد احتفل بعيد ميلاده الحادي عشر منذ ثلاثة أسابيع فقط، ولكن نظرًا لأن أخاه الأكبر كان يرقد في حجرة نوم والديه وهو يعاني من مرض مميت، فقد كان الاحتفال خاليًا من أية متعة. ومما زاد الطين بلة، أن والدي أندرو فقط كان مسموحًا لهما بدخول حجرة النوم لزيارة باس والعناية به. وحيث أن مرض السل الرئوي كان مرضًا معديًا، فقد كان الجميع يخاطرون بالتواجد هناك، وكان السيد والسيدة "فان دير بيجل" يريدان بقدر الإمكان التقليل من مخاطر انتقال العدوى للأطفال الآخرين. ولكن أندرو لم يأبه لذلك. ففي الواقع، كان يريد أن يصاب بالسل الرئوي. فقد اعتقد انه من الأسهل بالنسبة له

أن يعاني مع باس ويشاركه مصيره من أن يبقى على قيد الحياة بعد وفاة أخيه. ولذا ففي يوم ما بينما كان والده في العمل وكانت أمه تجلس بجوار مذياعها المحبوب، فتح أندرو الباب المؤدي إلى حجرة نوم والديه بهدوء وتسلل إلى الداخل، وأغلق الباب وراءه.

كان باس يرقد على السرير الكبير في حجرة النوم، على الرغم أن أندرو قد تعرف عليه بصعوبة. كان هيكله العظمي بارزًا من خلال البطانية، وكانت عيناه غائرتين. زحف أندرو إلى السرير ورقد بجوار أخيه، ووضع ذراعه حوله واحتضن رأسه. شعر بالدموع الساخنة تنساب على وجهه وقبَّل باس مرارًا وتكرارًا.

انتظر أندرو طوال الأسبوعين التاليين وهو يتوقع أن يشعر بضيق في صدره أو يختبر نوبات الكحة، ولكن لم يحدث شيء. ظل صحيحًا كما كان، بينما ظل باس يزداد ضعفًا خلف باب حجرة النوم. وأخيرًا، في صباح أحد الأيام الأولى من شهر يوليو، خرجت السيدة فان دير بيجل من حجرة النوم وهي تنتحب.. لقد مات باس البالغ من العمر ١٧ عامًا.

كانت الصلاة الجنائزية لباس مكتومة، جزئيًا لأن الجميع كانوا يشعرون بالأسى بسبب حياته القصيرة والغريبة، وجزئيًا لأن شيئًا ما يُنذِر بالشؤم كان يزحف على أوروبا. لم يكن أحد يحب أن يتحدث عنه كثيرًا، ولكن ألمانيا، تحت قيادة أدولف هتلر وحزبه النازي، قد أصبحت أكثر عدوانية تجاه جيرانها على مر السنين. وأخيرًا، في مارس ١٩٣٩، زحفت القوات الألمانية إلى براغ في تشيكوسلوفاكيا، وسيطرت عليها. وكان الألمان يطالبون بأراضي في بولندا.

كان من الطبيعي أن يهتم أندرو بتلك الأحداث، ولكنه كان منهمكًا في مرض أخيه لدرجة أنه لم يستطع ملاحظة التغييرات الحادثة في أوروبا. وبعد أقل من شهرين بعد جنازة باس، غزا الألمان بولندا. وبعد يومين طالبت بريطانيا وفرنسا أن يسحب الألمان قواتهم من تلك البلد. وعندما لم ينسحب الألمان، أعلن البريطانيون والفرنسيون الحرب على ألمانيا ولكن إعلان الحرب لم يفعل شيئًا لإبطاء التقدم الألماني. وفي خلال أيام استطاعت القوة العسكرية المتفوقة للألمان سحق الجيش البولندي.

ومع حدوث ذلك لجيران ألمانيا من الشرق، بدأ الناس في

هولندا يتساءلون عما يخبئه القدر لجيران ألمانيا مــن جهــة الغرب. كانت هولندا أثناء الحرب العالمية الأولــى تفتخــر بأنها ظلت على الحياد، ولكن الناس بدأوا يتساءلون إذا كان من الممكن أن يتكرر الأمر بهذه المرة. فلم يمكنهم تجاهــل حقيقة أن الألمان بدأوا يظهــرون القليــل مــن الاعتبــار للمعاهدات أو حيادية بعض الدول، وكان يبدو أنه من غيــر المحتمل أن يستثني الألمان هولندا من ذلك.

وفي إحدى الليالي، بعد الغزو النازي لبولندا بقليل، جلس أندرو بجوار الراديو مع بقية أفراد عائلتــه، لــسماع آخــر الأخبار. سمع أندرو الأخبار المزعجة بــأن جميــع قــوات الاحتياط في الجيش الهولندي كان يتم تنــشيطها، وأن كــل السيارات الخاصة كانت تُسلَّم للحكومة لاستعمالها. كانت هذه معلومة صاعقة، وقد عرف الجميع، بمن فيهم أندرو، أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يــضطر الهولنــديون لمقاتلــة الألمان.

كان أندرو يقف يوميًا تحت شجرة دردار الخاصة ببــاس ويراقب حركة المرور. كان يبدو أن الجميع في هولندا فــي حركة دائبة. كانت السيارات تئز شمالاً وجنوبًــا، وكانــت

الشاحنات الضخمة التي كانت تنقل القوات في هدير دائـم. كان أندرو يتمنى أن يكون أكبر سنًا ليصير جنديًا في إحدى تلك الشاحنات.. فذلك سوف يكون مغامرة حقيقية بالنسبة له. ولكنه لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من العمر عندئذ، وكان عليه أن يكتفي بمتابعة أخبار الحرب بالاستماع إلى الإذاعة.

سرعان ما اقتربت الحرب بأسرع ممـا كـان يتـصور أندرو. في أبريل سـنة ١٩٤٠ غـزا الألمـان الـدانمرك والنرويج تحت إدعاء حماية هاتين الدولتين مـن بريطانيـا وفرنسا. وعرف الناس في هولندا أنها مسألة وقت فقط قبل أن تزحف القوات الألمانية على دولتهم. قـررت الحكومـة الهولندية أنها بحاجة لعمل شيء ما لإعاقة أي تقدم ألمـاني نحو هولندا. وقد قررت أنه من إحدى الطرق لذلك أن تدمر الأراضي المستصلحة من البحر. كانت تلك هي الأراضـي المنخفضة التي تم ردمها من البحر وظلت جافة عن طريق بناء السدود. كان جزء كبير من أراضي الشمال الشرقي من سانت بانكراس قد تم ردمه من البحر، وكانت تعرف باسـم أراضي "ورينجرمير" المستصلحة. صعد أندرو فوق سـطح منزل فان دير بيجل ليحاول إلقاء نظرة على تدمير السدود.

لم يتمكن من رؤيـــة الكثيـــر، لكنـــه اســـتطاع أن يـــسمع الانفجارات الضخمة بينما كانت القوات الهولندية تقصف تلك السدود.

إن رؤية مثل تلك الانفجارات كانت لتُسعد أنـــدرو قـــبلاً، ولكن نتائج تفجير تلك السدود لم يكن ممتعًا بالنـــسبة لـــه. فجميع الناس الذين كانوا يعيشون على أراضي "ورينجرمير" المستصلحة كانوا يتدفقون على ســـانت بـــانكراس بعـــدما أغرقت المياه أراضيهم. كان كل منزل في القرية باســـتثناء منزل فان دير بيجل يستضيف عائلة من اللاجئين. وحيـــث أن منزل فان دير بيجل كان أصغـــر منزل فـــي القريـــة وكانت العائلة واحـــدة من أكبر العائلات، لم يكن المنـــزل يتسع لعائلة أخرى.

استعاضت أم أندرو عن عدم القدرة على استضافة عائلة من اللاجئين بالطهي ليلاً ونهارًا. كان وعاء الحساء دائمًـــا فوق الموقد، لإعداد الطعام لتغذية عائلات اللاجئين. كانـــت مهمة أندرو تقشير كميات لا نهاية لها من البطاطس والجزر والبصل لوضعها في الوعاء. لم يكن هنـــاك طعـــام يكفـــي لجميع الذين طلبوا اللجوء إلى القرية. ولأول مرة في حياته،

بدأ أندرو يترك المائدة بعد تناول الطعام دون أن يشعر بالشبع. ولكنه لم يجرؤ على الشكوى، فقد كان الجميع مشدودين إلى الحد الأقصى.

إلا أن غمر الأراضي المستصلحة بالمياه لم يوقف تقدم الجيش الألماني إلى هولندا. فالألمان لم يأتوا سيرًا على الأقدام من جهة البر كما توقع الهولنديون، ولكنهم أتوا جوًا. في ليلة ٩ مايو سنة ١٩٤٠، خاطب رئيس الوزراء الأمة بالراديو، محاولاً أن يؤكد للمواطنين الهولنديين أن هولندا كانت لا تزال على الحياد. حاول أندرو، مثل كل واحد في هولندا، أن يصدق كلمات رئيس الوزراء، ولكن الكلمات بدت جوفاء إلى جوار ما كان يحدث عبر أوروبا. كان أندرو لا يزال يفكر في مصير هولندا عندما خلد للنوم في تلك الليلة.

في الساعات الأولى من صباح ١٠ مايو، استيقظ أندرو من نومه على ما بدا كعاصفة رعدية من بعيد. استمع إلى قصف المدافع لبضع دقائق، ثم سمع ضجة أخرى.. صوت شخص يصرخ في الخارج.

صاح الصوت: "إنه ليس الرعد .. إنها قنابل. الألمان

يقومون بعملية غزو!"

كان قلب أندرو يخفق بشدة وهو ينزل من السرير. كـــان باقي أفراد العائلة قد استيقظوا أيضًا، وتجمعوا كلهم حـــول الراديو، محاولين أن يستمعوا إلى أخبار ما يحدث في البلد. اتجهوا إلى محطة إذاعية في لندن تؤكد أن الألمان قد بدأوا بالفعل عدوانهم، ليس على هولندا فقط، بل أيضًا على بلجيكا المجاورة ولوكسمبورج. كانت الطائرات الألمانية تقـصف المطارات في كل أنحاء هولندا، وقد بدأ الجنود الألمان فـــي النزول بالمظلات إلى داخل البلد. كان الصوت الواقعي في الراديو من لندن يعلن أن أعداد الجنود الألمان تفوق أعـــداد الهولنديين، وأن المسألة مسألة وقت قبل أن تتدفق الـــدبابات الألمانية نحو الحدود الشرقية داخلة إلى هولندا.

عندما أشرقت الشمس، كان ســـكان ســـانت بـــانكراس المذهولين يتعثرون في الشوارع لمناقشة الموقف في البلاد. فجأة ظهرت الطائرات الألمانية من فوق. هرب السكان إلى داخل المنازل وبعد لحظات بدأت الانفجـــارات. احتـــشدت عائلة "فان دير بيجل" معًا بينما كان منزلهم يهتز تحت وطأة الانفجارات العنيفة.

قال والد أندرو بصوته المدوي: "الألمان يهاجمون المطار".

في منتصف الطريق بين سانت بانكراس ومدينة الكمار، الواقعة إلى الجنوب بخمسة أميال، كان هناك مطار حربي صغير. وعندما انتهى القصف، كانت الطائرات الحربية الألمانية قد أحالت المكان إلى كومة من الحطام.

لم يكن المطار هو الوحيد الذي تحول إلى حطام في هولندا. فبعد أربعة أيام، بعد أن تضايق الألمان من جراء المقاومة الهولندية العنيدة، قاموا بهجوم كاسح بالقنابل على مدينة روتردام. قصفوا المدينة بلا رحمة، مدمرين معظمها. هدد أدولف هتلر بعمل نفس الشيء ضد مدينة أولتريكت إذا لم يستسلم الهولنديون. وفي ١٤ مايو، استسلم رئيس وزراء هولندا للألمان. كان يومًا حزينًا للهولنديين ولعائلة فان دير بيجل. كان الخبر الوحيد الجيد هو أن "ولهلمينا" ملكة هولندا قد تمكنت من الهروب إلى لندن في اليوم السابق للاستسلام.

ومع الاستسلام، تقدم الجنود الألمان بخطوة الإوزة◆

◆ كان جنود هتلر يستخدمون تلك الخطوة في سيرهم برفع السيقان إلى أعلى وجعلها مستقيمة. (المترجم)

نحو أمستردام بينما بدأت الدبابات الألمانية تعبر الحدود إلى داخل البلاد. كان احتلال هولندا كاملاً، ولم يمض وقت طويل قبل أن يعلن مذيع في الراديو يتحدث الهولندية بلهجة ألمانية واضحة: "إن الجيش الألماني هنا لمساعدة هولندا. أنتم الآن جزء من الرايخ الثالث المجيد. سوف نجعلكم في مأمن من هجوم القوات الفرنسية والبريطانية".

"ها!" هكذا صاح والد أندرو عندما سمع الإعلان.

سرت قشعريرة في العمود الفقري لأندرو. فعلى الرغم من وجود كل تلك القوات والدبابات والطائرات الألمانية في هولندا، إلا أنه لم يشعر بأي قدر من الأمان. كان واضحًا بالنسبة له، وللجميع أيضًا، أن الألمان هم المعتدون، وليس البريطانيين أو الفرنسيين.

في تلك الليلة، بينما خلد إلى الفراش محاولاً أن ينام، أدرك أندرو فجأة أن عيد ميلاده قد جاء وذهب قبل ثلاثة أيام في ١١ مايو. وفي ذروة هرج ومرج الغزو الألماني كان أندرو، بالإضافة إلى أفراد أسرته الآخرين، قد نسيه تمامًا. كان أندرو الآن في الثانية عشرة من العمر، كبيرًا بما فيه الكفاية ليقوم بدوره في المساهمة في طرد النازيين من

بلاده كان طوال حياته يريد أن يذهب بحثًا عن مغامرة حقيقية، والآن قد واتته الفرصة.

بعد أسبوع، كانت سيارة سوداء لامعة عليها صليبين معقوفين على البابين الأماميين تسير ببطء أمام منزل "فان دير بيجل". تبع أندرو السيارة حتى توقفت أمام باب العمدة. خرج من السيارة رجل ضخم في زي رمادي وسار نحو المنزل مباشرة. بعد دقيقة خرج العمدة، وهو يبدو مرتبكًا حاملاً حقيبة ملابس. توقفت سيارة أخرى، وبدأ أربعة حراس يحملون منها بعض الصناديق إلى منزل العمدة.

دهش أندرو عندما أدرك أن النازيين كانوا بصدد إقامة مقر رئيسي في القرية. وفي غضون أيام من وصولهم، حدثت تغييرات خبيثة في سانت بانكراس.

عمل النازيون قائمة تضم كل أفراد القرية ثم أصدروا بطاقات للهوية. سرعان ما كان هناك جراب يحمل بطاقة هوية معلقًا حول رقبة أندرو، وكان ممنوعًا أن يغادر أندرو المنزل بدونه. تم تسليم بطاقات للإعاشة، كانت تستخدم لشراء الطعام والمواد الأساسية. ولكي يشتري الشخص شيئًا كان عليه أن يبرز بطاقة هويته وكوبون الإعاشة.

في البداية لم يعترض عدد كبير من السكان علـــى هــذا النظام، فهو على أي حال، قد ساعد على تنظيم الأشــياء.. والهولنديون يحبون أن يكون كل شيء منظمًا. ولكن قلـــيلاً قليلاً، بدأ النازيون يشددون قبضتهم. تم البدء بإصدار قرار لحظر التجوال. كان يتحتم على كل واحد أن يكون بـــداخل منزله بداية من الساعة العاشرة مساء كل ليلـــة. وتوجـــب تسليم جميع التليفونات في القرية إلى النازيين. كانت عائلـــة أندرو أفقر من أن تمتلك تليفونًا، فلم تتأثر بهذا القرار. ولكن نقص الأخبار أقلق والدي أندرو. كان على الجرائد الهولندية أن تخضع جميع مقالاتها للرقابة الألمانية. فصارت الأخبار التي يُعتمد عليها تأتي من المذيعين الهولنديين الذين هربـــوا إلى لندن وكانوا يذيعون إلى هولندا من هناك.

وسرعان ما تم منع الاستماع إلى الأخبار أو أي شـــيء آخر في الراديو. أعلن النازيون أن جميع أجهـــزة الراديـــو يجب أن تُسلَّم إلى منزل العمدة. نتج عن هذا الأمر الكثيـــر من المناقشات في عائلة أندرو. كانت تسلية أم أندرو الوحيدة هي الاستماع إلى الحفلات الموسيقية في الراديو، ولم تشعر أن هذا قد يهم النازيين في شيء. بالإضافة إلى ذلك، كـــان

والده يحب الاستماع إلى الأخبار في الراديـو، أو بمعنـى أصح، كان يجعل واحدًا من أبنائه يستمع إليها، ثـم يـسرد الأحداث الهامة بصوت عالٍ له. كانوا ليدفعون ثمنًا باهظًـا إذا ضُبط في حوزتهم راديو بعد أن كان المفروض أن يُسلَّم. لكن على الرغم من الخطـر، قـررت العائلـة الاحتفـاظ بالراديو، الذي نقلوه إلى شق صغير مغطى في آخر العليـة التي ينام فيها أندرو. كانت الأرضية في هذا المكان أشـبه بخليط من مستويات مختلفة حتى بدا أنه من غير المحتمـل لأي شخص أن يتمكن من أن يجد الراديو هناك. في كل ليلة كان أحد الأطفال يُكلف بمهمة الصعود إلـى ذلـك الـشق والاستماع إلى الأخبار في الراديو. بعد ذلك كان ينبغي على الطفل أن يسرد على بقية العائلة ما سمعه أو سمعته.

شك أندرو أن العديد من الجيران كـانوا يفعلـون نفـس الشيء، ولكن لا أحد كان يتحدث عن ذلك. كـان الجميـع خائفين مما كان يمكن أن يحدث لو اكتشف النازيون الحقيقة. كان من المستحيل معرفة مَن يمكنهم أن يثقوا فيه بعد ذلك.

في منتصف شهر يونيو أذاع الراديو الخبر المشئوم بـأن النازيين قد استولـوا على فرنسا. كانت الدبابـات والجيوش

الألمانية تزحف على قصر الاليزيه في باريس.

وبعد ذلك سرعان ما تغير الموقف في هولندا إلى الأسوأ. توقف الألمان عن إدعاء تواجدهم في البلاد لمساعدة الهولنديين. وبدلاً من ذلك بدأوا في استعمال كل الموارد الهولندية المتاحة لتصعيد وتيرة الحرب. لم يفتهم شيئًا مهما بلغ صغره، ولا حتى كرنب السيد فان دير بيجل أو الإطارات الداخلية في دراجته. وتحولت مدرسة أندرو إلى معسكر للجيش، وتم إغلاق الفصول الدراسية إلى أجل غير مسمى.

لم يكن أندرو، الذي كان في الصف السادس آنذاك، مهتمًا بتعطيل الدراسة.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجد أندرو عملاً إضافيًا يقوم به. كان الألمان يبحثون عن مراهقين، بالإضافة إلى شباب ورجال في منتصف العمر، للانخراط في الخدمة العسكرية. لم يكن هناك ذكر في القرية فوق سن الخامسة عشرة يشعر بالأمان، وكان ذلك يشمل الأخ الأكبر لأندرو، "بِن". وفي يوم ما اختفى "بين". قالت أم أندرو أن شخصًا ما من المقاومة الهولندية قد جاء واصطحب بِن إلى مزرعة ما

يمكنه الاختباء فيها طيلة مدة الحرب. وكنتيجة لذلك، اضطر أندرو أن يقوم بمهام أخيه، بما في ذلك غسل ملابس العائلة، حيث أن أمه لم تكن قوية بما فيه الكفاية للقيام بذلك. وبينما كان أندرو ينظف ويغسل الملابس، كان عقله مركزًا علــى شيء واحد، وشيء واحد فقط.. كيف يصبح واحدًا من أفراد المقاومة الهولندية.

الفصل الرابع

المقاومة

واجهت أندرو مشكلة كان عليه أن يتعامل معها. لقد كان متأكدًا أنه سوف يعتبر أصغر من أن يلتحق بالمقاومة الهولندية ما لم يلفت أنظار أفرادها وينال إعجابهم. ولكن كيف؟

كانت أول خطة توصل إليها أن يستولي على بعض الألعاب النارية ويحدث بها شغبًا. سرعان ما تشكلت الخطة في عقله. كان يوجد في الكمار دكان يبيع الألعاب النارية قبل الحرب، واعتقد أندرو أنه من المرجح أن يكون لدىّ المالك بعض الألعاب النارية المتبقية. كان السؤال هو، ما الذي يمكنه أن يقايض به الألعاب النارية؟ إن والده، الذي كان بستانيًا متميزًا، كان لديه بعض الطماطم في الحديقة لم يستول عليها الألمان بعد. قرر أندرو أن يأخذ سلة من الطماطم إلى الكمار ويرى إن كان بإمكانه أن يقايض بها بعض الألعاب النارية.

قبل الحرب، كان يمكن لأندرو أن يستعير دراجة والده

ليقوم برحلة الأميال الخمسة إلى الكمار. ولكـــن الآن، فـــإن الألمان قد صادروا كل الدراجات في القرية، لذا كان علـــى أندرو أن يقطع تلك المسافة سيرًا على الأقدام. ولكنه لم يعبأ بذلك، لأن وجوده في الهواء الطلق قد ساعده في جعل ذهنه صافيًا. عندما وصل أخيرًا إلى الكمار، صُدم أندرو لرؤيـــة مدى التغيير الذي لحق بالمكان. كانت هناك لافتات معلقـــة في فاترينات الدكاكين وعلى الأبواب تقول: "غير مـــسموح بتواجد اليهود". وكانت هناك لافتة معادية لليهود موضـــوعة في الحديقة العامة. انتاب أندرو إحساس غريب فقـــد شـــعر بالصدمة بسبب الطريقة التي أجبر بها النـــازيون الـــشعب الهولندي المسالم على قبول تلك التفرقة العنصرية. لقد جعله ذلك أشد تصميمًا على أن يفعل ما في مقدوره على إخـــراج الألمان ودوافعهم المليئة بالكراهية من هولندا.

حدد أندرو مكان المتجر الذي كان يبيع الألعاب الناريـــة سابقًا وخطا للداخل. سأل بأدب: "هل مازال لديك أي ألعاب نارية؟"

أومأ الرجل الواقف خلف النضد رأسه بالموافقة واختفـــى سريعًا خلف المتجر. ظهر الرجل بعد لحظات قليلـــة. قـــال

وهو يضع صندوقًا صغيرًا من الألعاب النارية الاعتيادية على النضد وهو يقول: "هذا كل ما تبقى لديَّ".

نظر أندرو إليها. لم تكن ما أراده بالضبط. لم تكن هناك أي قذائف حمراء اللون أو مفرقعات نارية تحدث فرقعة ضخمة، ولكن حيث أنها كانت كل ما لدى الرجل، فلابد أنها ستؤدي الغرض.

قال أندرو: "ليس لديَّ مال، ولكن لديَّ هذه الطماطم". ورفع السلة التي كان يحملها إلى ما فوق النضد.

التقط صاحب الدكان واحدة من الطماطم وعصرها. قال أخيرًا: "وهو كذلك، إنها صفقة تجارية" قال ذلك وأزال الطماطم من السلة واستبدلها بالألعاب النارية.

شكر أندرو الرجل بأدب واستدار ليترك المتجر. سمع صاحب الدكان يقول: "خذ هذه"، فاستدار لينظر له. كان صاحب المتجر يمسك في يده قذيفة حمراء اللون وهو يقول: "إنها الوحيدة التي لديَّ. خذها من فضلك".

قال أندرو وهو يمد يده ليأخذ القذيفة، وقد كانت هناك ابتسامة عريضة على وجهه وهو يفعل ذلك: "شكرًا. أشكرك كثيرًا جدًا".

قال صاحب الدكان: "الآن، عليك بالجري بسرعة نحـو المنزل. لا داع لأن تكون خارج البيت بعد حظر التجوال".

أسرع أندرو خارجًا من المحل وانطلـق نحـو "سـانت بانكراس". التقط في الطريق بعض الزهور ووضعها فـوق الألعاب النارية في السلة لإخفائها.

خبأ أندرو الألعاب النارية في المنزل في العلية حيث كان ينام وانتظر حتى حلول الظلام ونوم عائلته. سـرعان مـا عرف من صوت الشخير ورتابة الأنفـاس أن العائلـة قـد استغرقت في نوم عميق. أخذ أندرو القذيفة الحمراء اللـون وتسلل إلى أسفل السلم من العلية، وهو يمشي على أطـراف أصابع قدميه على الأرض، واختفى خارجًا من باب البيت. كان عليه أن يكون حذرًا، فقد كان وقت حظر التجـول. إذا قبض عليه الألمان، فسوف يكون في مأزق حقيقي، ولكنه لم يهتم لذلك كثيرًا. كان يستطيع أن يجـري أسـرع مـن أي شخص آخر في القرية، بمن فيهم الألمان.

عندما كان أندرو على وشك أن يصعد الجسر الـصغير المؤدي إلى الطريق الرئيسي، سـمع أصـواتًا.. أصـواتًا ألمانية! كانت هناك دورية استكشافية تتحرك تجاهه. تـسلل

أندرو بسرعة نحو ظل البيت وضغط نفسه نحو الجدار. أضاء أحد الجنود الألمان كشافه على المنزل، ولكن الضوء لم ينر الركن المظلم للجدار الذي كان أندرو يقف ملتصقًا به. أخيرًا مضت الدورية في طريقها، فعبر أندرو الجسر وجرى بأسرع ما يمكنه في اتجاه منزل العمدة.

عندما وصل إلى بيت العمدة، وقف أندرو في الظلال وأمسك بالقذيفة الحمراء. ولأجل تضخيم وقع المغامرة، قرر أندرو أن ينتظر حتى تعود الدورية من الطرف الآخر للقرية. لم يضطر أن ينتظر طويلاً، إذ سرعان ما سمع وقع أحذية الجنود على الطريق. انتظر حتى أصبح الصوت أقرب وأعلى. اشتدت خفقات قلبه في صدره بينما اقتربت الدورية. وأخيرًا قرر أندرو أن الوقت كان ملائمًا لإشعال القذيفة الحمراء. ولكن بينما كان على وشك إشعال عود الثقاب، لمحه واحد من الجنود الألمان في الظلال وصوب عليه ضوء كشاف.

صاح جندي آخر: "قف".

في ذلك الوقت كان عود الثقاب قد اشتعل، ولمس به أندرو فتيل القذيفة الحمراء بالفعل. بدأ الفتيل يتوهج باللون

البرتقالي عندما اشتعل، وقرر أندرو أن الوقــت قــد حــان ليجري. ذكَّر نفسه بمزاياه.. إنه يستطيع أن يجري أســرع من هؤلاء الجنود، وهو يعرف القرية أفضل مــنهم. ولكــن عندما ابتدأ يجري، سمع أندرو صوتًا لم يكن يعمل حــسابًا له.. صوت أحد البنادق الألمانية. لم يخطر علــى بالــه أن الألمان قد يطلقون النار. لكنه سمع فجأة دوي البندقية عندما دبت الحياة في فوهتها. أخطأت الطلقة هدفها، وظل أنــدرو يجري بأشد وأسرع ما يمكنه. ثم حــدث انفجــار قــوي.. القذيفة الحمراء اللون. تمنى أندرو لو كان في مقــدوره أن يستدير ليرى صنعة يده، ولكن كان عليه أن يهــرب. فقــد كانت حياته تتوقف على هذا الهروب.

شتت الانفجار انتباه الجنود، مما أعطى لأندرو ميزة. أخذ أندرو يعدو عبر جسر للمــشاة واختبــأ فـــي قطعــة أرض مزروعة بكرنب ينمو في فناء مجاور. جعل نفسه قريبًا من الأرض بقدر الإمكان. استطاع أن يرى من على بُعد الجنود الألمان يبحثون عنه. ولكنه كان مختبئًا جيدًا فـــي الظــلام، وبعد ساعة كف الجنود عن المحاولة. وبعد أن شعر أنه قام بما يكفـــي من المغامــرات لليلة واحــدة، زحف أندرو نحو

البيت، وصعد إلى سريره في العلّية واستغرق في النوم.

استيقظ أندرو في صباح اليوم التالي وهو يشعر بالرضا التام عن نفسه. اتجه إلى الخارج ليرى إن كان أي شخص قد سمع الانفجار في الليل وكان يتساءل عما يكون ذلك.

عند الطريق الرئيسي خارج منزل "فان دير بيجل" تقابل أندرو مع مستر ويسترا.

حياه مستر ويسترا بالقول: "صباح الخير، يا أندرو. سمعت أنك ذهبت إلى الكمار أمس. كيف كانت رحلتك؟"

أجاب أندرو: "لقد كانت جيدة. ولكن الكمار مختلفة الآن. هناك لافتات في واجهات المتاجر وفي الحدائق العامة تقول بأن اليهود لا يسمح لهم بالدخول".

قال مستر ويسترا: "إنه موقف سيء. ولكنني أسمع أن الأمر سوف يكون أسوأ مما هو عليه بالنسبة لليهود. سوف يأمرهم الألمان بأن يحيكوا نجمة داود صفراء كبيرة على ملابسهم، مع وضع الكلمة يهودي (Jood) بداخل النجمة. إنه وقت عصيب بالنسبة لهم. عدني بأن نصلي لأجلهم، ولأجلنا جميعًا. إن هولندا بحاجة لصلواتنا اليوم أكثر من أي وقت مضى. أنت تعرف ذلك يا أندرو، أليس كذلك؟"

أومأ أندرو رأسه بالموافقة. لم يكن متأكدًا أن الله سوف يفعل شيئًا لمساندة موقفهم، ولكنه لم يرد أن يبدأ في مناظرة دينية مع مستر ويسترا.

على الرغم من جسارة واقعة القذيفة الحمراء اللون، إلا إنها لم ترض أندرو. لقد كان عليه أن يفكر في شيء أكثر فائدة من مجرد مضايقة النازيين بالمفرقعات النارية. سرعان ما فكر في خطة أخرى. في هذه المرة سوف يسرق بندقية نازية ويهديها لواحد في صفوف المقاومة. أخذ يقول لنفسه: "لابد أن يساعدني ذلك على الانخراط في سلك المقاومة".

كان أندرو يعرف أين يجد مسدسًا ألمانيًا من طراز "لوجر". عندما حل الظلام، شق طريقه إلى منزل عائلة هولندية كانت متعاونة مع الألمان. كان رجل العائلة يخدم مع قوات الألمان المكروهة. زحف أندرو إلى نافذة المنزل وأحدق النظر إلى ما بداخله. كان هناك البذلة الرسمية الخضراء اللون للرجل، والحذاء العسكري الثقيل، والحزام معلقًا بجوار الباب. كان فوق الحزام جراب المسدس وعليه اسم ماركته "لوجر". وإذ لم يكن هناك أي شخص في

الحجرة، تسلل أندرو نحو الباب وفتحه. وقف ساكنًا لحظة من الزمن وأخذ يصغي. كان هناك راديو يدوي صوته في الغرفة التالية. قال أندرو لنفسه "لابد أنه راديو مصادر! فالألمان يسمحون لأنفسهم بامتيازات غير مسموحة لنا. إني أراهن أن العائلة كلها هنا، تشرب القهوة الجيدة وتستمع إلى الراديو".

عندما شعر أندرو بالأمان، خطا إلى داخل المنزل. كان يشعر بالارتياح لأن صوت الراديو سوف يغطي على أي ضوضاء يمكن أن تصدر منه. تقدم أندرو إلى ما وراء الباب بحثًا عن الجراب وسحب المسدس منه. كان يشعر ببرودة المسدس في يده، وكان يدرك جيدًا أن قلبه كان يدق بشدة.

غادر أندرو المنزل بسرعة كما دخل إليه، وبدأ يعدو على الطريق تجاه منزله. أخذ يلهث حالما عبر القنطرة الصغيرة نحو فناء بيته. ولكنه كان يشعر بالإثارة أيضًا. لقد فعلها! لقد سرق مسدسًا ألمانيًا طراز "لوجر"، ولم يستطع الانتظار حتى يسلمه إلى المقاومة.

بعد يومين أخبره صديقه "كيس" عن اجتماع خلية

المقاومة كان سيعقد في مدرسة ابتدائية مسيحية مجاورة. تحت جنح الظلام، شق أندرو طريقه نحو الموقع وطرق على باب المدرسة، مستخدمًا الشفرة السرية التي أعطاها "كيس" له. فتح باب علوي ودخل أندرو إلى عالم المقاومة الهولندية. كان رسم دخوله إلى الاجتماع هو المسدس الألماني الذي سرقه. كان الاجتماع قد بدأ بالفعل عندما وصل أندرو، وكان الثمانية شبان أو نحو ذلك يستمعون إلى محطة إذاعة المقاومة الهولندية "Radio Orange" وهي تذيع من لندن أن الملكة "ولهيلمينا" قد كانت تُقيم في المنفى.

بينما كان أندرو مجتمعًا مع الآخرين حول المذياع، كان يشعر بإحساس عميق بالرضا. أخيرًا أصبح واحدًا منهم.. هؤلاء الجسورين الذين كانوا يفعلون شيئًا للتغلب على السحابة السوداء التي نزلت على هولندا.

عندما أنهت محطة الإذاعة بث برامجها، ناقش الفريق المزيد من الطرق لسرقة البنادق والدراجات الألمانية وكيفية تقليد بطاقات التموين. عرف أندرو أيضًا أن المقاومة كانت تساعد العديد من اليهود الهولنديين الذين كانوا يجتازون سرًا عبر "سانت بانكراس" في طريقهم إلى الساحل، حيث كانت

تصطحبهم القوارب وتهربهم عبر القنال الانجليـزي إلـى بريطانيا العظمى. كان يبدو أنه كان هناك الكثير من العمل لكل واحد في صفوف المقاومة الهولندية، وسرعان ما وجد أندرو نفسه يتطوع لتعطيل وسائل انتقال النازيين. لم تكـن لديه الموارد لنسف الشاحنات أو الجسور، ولكـن "كـيس" أعطاه تعليمات حول كيفية تدمير محركات سياراتهم. كـان يتضمن ذلك وضع السكر في مستودع البنزين، الذي كـان يعمل بدوره على إعاقة المحرك وتوقفه عن العمل.

غادر العاملون في المقاومة الاجتماع الواحد تلو الآخـر، وعندما جاء الدور على أندرو لينزلق مـن البـاب ويـشق طريقه عبر الأفنية الخلفية إلى بيته، كان يشعر بالرضا. كان يقول لنفسه إن مستودع بنزين سـيارة الـضابط الألمـاني، سوف يكون أول مستودع بنزين سوف يتعرض "لمعالجتـه" بالسكر.

بعد ليلتين استطاع أندرو أن ينجز مهمته بصعوبة قليلة. ومع ذلك، فقد لاحظ أن حاجبي أمه يرتفعان عندما ذهبـت لإعادة ملء وعاء السكر بعد ذلك. فقد قالت: "لقد سمعت أن بعض الجنود النازيين يواجهون المـصاعب فـي تـشغيل

سياراتهم" علت ابتسامة حول فمها وهي تتكلم، وقد علم أندرو أنه قد نال رضاها بأخذ سكر التموين الثمين لتأدية تلك المهمة.

واصل أندرو تأدية أنشطة مقاومته، وهو ينقل الرسائل من إحدى خلايا المقاومة إلى خلية أخرى، أو يصطحب اليهود إلى بيوت آمنة للإقامة فيها للمبيت بالليل. ولكن مخاطر الاشتراك في تلك الأنشطة، قد ارتفعت بشدة بالنسبة لأندرو والعاملين معه. وبحلول عام ١٩٤٢، عندما تخلى النازيون عن أي إدعاء أنهم كانوا في هولندا لحماية وتحرير الهولنديين، اتضحت الحقيقة البشعة أمام الجميع: أن النازيين قصدوا الاستيلاء على كل أوروبا، وفي النهاية على كل العالم، وقد ازداد احتياجهم للإمدادات والقوة العاملة الهولندية.

سرعان ما تم استبدال الضابط الألماني ورجاله الذين كانوا يحتلون القرية بمجموعة من الجنود الألمان الأشد خبثًا، والذين يُطلق عليهم لقب "الرازية" Razzia. لم يكن الرازية يقيمون بالقرية، ولكنهم كانوا يشنون عليها الغارات. ففي أي وقت من النهار أو الليل، كانت الشاحنات الألمانية

تزأر متجهة نحو "سانت بانكراس"، وهي تحكم إغلاق الطريق من جميع الجهات. وبعدئذ كانت فرق الجنود المُمسكة بالمدافع الرشاشة تقفز من الشاحنات وتفتش كل بيت. فإذا وجدت أي أجهزة راديو أو أي مواد محظورة، كان صاحب البيت يتم استبعاده منه ويتم وضع الأغلال في يديه ويُلقى به في إحدى الشاحنات. وفي بعض الأحيان كان يُطلق النار فورًا على أي شخص يضايق "الرازية".

كان الألمان في حقيقة الأمر يبحثون عن الرجال ذي لياقة بدنية. كان أندرو يبلغ الرابعة عشرة من العمر الآن. كان مرنًا وذا لياقة بدنية، ومن نفس عينة الشباب الذين كانوا يبحثون عنه. كان لزامًا عليه وعلى الرجال الآخرين من "سانت بانكراس" ألا يتخلوا أبدًا عن حذرهم. وحتى عندما كانوا نيامًا، كانوا يفعلون ذلك مع فتح النافذة والإصغاء إلى هدير محركات الشاحنات من على بُعد.

ما أن كان الرجال يسمعون الصوت المخيف للشاحنات المقتربة، لم يكن أمامهم سوى بضع دقائق للانطلاق نحو الأمان.. أمان المستنقع الموجود خلف قضبان السكك الحديدية. وحيث أن أندرو كان أسرع عداء في القرية، فقد

كان دائمًا قائدًا للمجموعة وهي تجري للنجاة بحياتها عبر الأرض المنخفضة تجاه الطريق المرتفع الذي كان خط السكة الحديد مقامًا عليه. كان الرجال والأولاد ينتشرون وسط المستنقعات السبخة أسفل ذلك الطريق ويختبئون حتى يرحل الألمان.

بعد مضي عام، في عام ١٩٤٣، أصبح الموقف في "سانت بانكراس" أشد سوءًا. كان الجنود النازيون يقطعون التيار الكهربائي عن القرية، جاعلين كل شيء يبدو كئيبًا ومقبضًا. كان الطعام قليلاً بشكل يبعث على اليأس.. كانت آخر أبصال نبات الزنبق الثمينة قد تم أكلها منذ زمن طويل، وكان الناس يبحثون في القمامة عن أعشاب المستنقعات ليأكلوها. كان أندرو يشعر بالحزن بنوع خاص عندما صار أهل القرية بحاجة ماسة إلى الحطب حتى إنهم قطعوا أولاً شجرة، ثم شجرتين، ثم كل شجر الدردار الذي كان يحف بالطريق المرتفع على الجانبين. تذكر كيف أن "باس" كان يحب أن يقف تحت شجر الدردار ويراقب العالم من حوله، ولكنه كان الآن شبه مسرور لأن "باس" قد مات. لقد تخلَّص النازيون من الضعفاء، والعاجزين في هولندا.. ومن المؤكد

أن "باس" كان سيؤخذ بعيدًا ويُقتل. وكما كان الحال، ففي بحثهم عن الرجال ذي اللياقة البدنية، فإن الرازية كانوا يبحثون الآن ليس فقط عن أندرو وأخيه الأصغر كورنيليوس، ولكن أيضًا عن مستر "فان دير بيجل". فكان عليهم جميعًا أن يندفعوا نحو الأمان في المستنقع عندما كانوا يسمعون هدير الشاحنات من بعيد.

بعد تمضية الساعات في المستنقع اختباءً من الألمان، كان والد أندرو يسعل طوال الليل. وكانت والدة أندرو أيضًا تزداد ضعفًا كل شهر، فكانت تمر أوقات تقضي فيها النهار بأكمله في الفراش. أخذ أندرو يرقبها وهي ترفض الطعام على المائدة حتى يستطيع الآخرون أن يأكلوا. كان يتساءل إن كانت سوف تموت جوعًا.

بمضي الوقت كانت الإثارة بأن يكون عضوًا في صفوف المقاومة تتلاشى في ضوء الاضطهاد النازي القاسي، وأخذ أندرو يتساءل عما إذا كانت الحرب سوف تنتهي يومًا.

الفصل الخامس

لا شك أنه قد وجد مستقبله

أخيرًا بدأ الراديو المخبأ في مؤخرة العلّية يقدم بعض أشعة الرجاء. كان من الواضح أن الأمريكيين، الذين قد انضموا إلى الحلفاء في الحرب في ديسمبر سنة ١٩٤١، يخططون مع البريطانيين لمهاجمة الألمان في فرنسا المحتلة. ولخوفه من مثل هذا الغزو، أرسل هتلر قوات مُسلحة ضخمة إلى شمال غرب ساحل فرنسا للتصدي لقوات الحلفاء.

مضت الأيام، ثم الأسابيع، وبدأ كل الناس في "سانت بانكراس" يتساءلون إن كان الغزو المقترح مجرد إشاعة خبيثة. ولكن في صيف سنة ١٩٤٤، بدأ ميزان القوة يميل لصالح الحلفاء. في ٦ يونيو بدأ الغزو الذي أشيع عنه في الحدوث. قصفت قوات الحلفاء الشواطئ على سواحل نورماندي بالساحل الشمالي لفرنسا. وبحلول شهر أغسطس كانوا قد استعادوا باريس!

سرعان ما كانت المئات من قاذفات الحلفاء تطير فوق

سانت بانكراس في طريقها لقصف ألمانيا بالقنابل لإخضاعها. كان وقتًا عصيبًا لأندرو وعائلته. وفيما بدا أنه من المحتم أن يحرر الحلفاء هولندا، كان الجميع يدركون كيف أصبح الألمان خطيرين ويائسين. كان أهل القرية جميعهم يسألون نفس الشيء: هل سيطلق الألمان النار على كل مَن في القرية وهم ينسحبون منها؟ وهل يمكن لقنابل الحلفاء الموجهة للنازي أن تسقط فوق رؤوسهم؟ لم يكن لديهم وسيلة لمعرفة ما سيحدث على وجه اليقين، لذا ترقب الجميع بتوتر ما سيحدث.

بحلول فبراير سنة ١٩٤٥ كان الحلفاء قد استعادوا كل فرنسا وكانوا يتمركزون على طول حدود ألمانيا.. من هولندا، جنوب نهر ماس، حتى بلجيكا ولوكسمبورج.

وفي أول مايو سنة ١٩٤٥، أذاع الراديو خبرًا رائعًا: لقد مات أدولف هتلر. بعد أربعة أيام سلَّم خليفته هولندا وأمر كل القوات النازية بمغادرة البلد. سرعان ما انتشرت شائعة تقول أن الجنود الكنديين قد اندفعوا إلى الكمار وأن الألمان كانوا يجمعون متعلقاتهم ويشدون الرحال هاربين. فجأة، وبشكل غير رسمي، تم تحرير "سانت بانكراس"!

عندما سمع أندرو الخبر، أسرع إلى الخارج. كان الناس يبكون فرحًا في الشارع. ولكن أندرو لم ينضم إليهم، فقد اندفع نحو الكمار ليجد المحررين الكنديين. عندما وصل إلى الكمار، أخذ يشحذ الطعام لأجل أمه. أخبره جندي كندي بأن ينتظر لحظة، وعندما عاد كان يحمل حقيبة من كسر الخبز، سلمها لأندرو. بالنسبة لأندرو كانت كسرات الخبز تبدو كالذهب وهو يحملها ويعدو نحو منزله ليشارك عائلته في كسرات الخبز.

خالج أندرو انفعال قوي وهو يشاهد أمه تأكل كسرة من الخبز. أخذت الدموع تنهمر على خدي أمه وهي تأكل. تهلل أندرو بخبر أن كل من في هولندا، بمن فيهم أمه، سوف يتوفر لديه طعام كاف قريبًا.

بعد يومين دلف شخص قوي البنية من باب منزل فان دير بيجل.. كان هو بِن. لم يكن أحد قد سمع عنه شيئًا طوال سنوات الاحتلال الخمس، لأن نقل الرسائل لم يكن آمنًا. والآن ها هو بِن يقف أمامهم جميعًا، مرة أخرى ليجعل عائلة فان دير بيجل مكتملة العدد.

بعد انتهاء الفرحة بتحرير هولندا ونهاية الحرب، حان

الوقت بالنسبة للعائلة لإلقاء نظرة واقعية على ما تفعله بعد ذلك. عاد الأطفال الأصغر سنًا إلى المدرسة لمحاولة اللحاق بكل ما ضاع منهم من تعليم. ولكن أندرو لم يكن يدري ما يفعله بنفسه الآن، حيث أنه صار أكبر سنًا من أن يعود إلى الصف السادس. كان يحب أن يجري كل يوم، وكان يساعد أمه في القيام بالأعمال المنزلية، ولكنه كان يعلم أنه في النهاية عليه أن يحدد مسار حياته.

من الواضح أن والد أندرو أيضًا كان يفكر في نفس الشيء، لأنه يومًا ما خلال صيف سنة ١٩٤٥ قابلت أخت أندرو "جيلتج" أندرو عند الباب بخبر فحواه أن أبيهما كان يريد رؤيته في الحديقة. كان مستر "فان دير بيجل" يقوم بالعناية بالكرنب، وعندما رأى أندرو يقترب، انتصب واستند على فأسه.

قال أندرو وهو يكاد يصرخ: "لقد أردت رؤيتي".

رد عليه السيد فان دير بيجل بالقول: "أنت تبلغ من العمر الآن ١٧ سنة".

كانت هناك غصة في حلق أندرو. فها الحوار الذي كان يخشاه على وشك الحدوث، هناك في مشتل الكرنب، وكان

بصوت عال لدرجة أن الجيران كان بإمكانهم سماعه.

أجاب: "نعم، سيدي".

سأله أبوه: "ما الذي ستفعله بحياتك؟"

لم يستطع أندرو أن يرد بشيء. لقد فكر في السؤال بنفسه، إلا أن لا شيء مما فكر فيه قد ملأه بالإثارة. ولكنه كان يعلم شيئًا واحدًا على وجه اليقين: أنه سوف لا يقضي بقية حياته في سانت بانكراس، ذلك البلد القديم والمُمل. سوف يرى العالم بطريقة أو بأخرى. ولكن كيف يخبر والده الأصم العجوز ذلك؟

قال له والده: "سوف أمنحك مهلة حتى الخريف لتستقر على حرفة ما. وعندئذ أريد منك إجابة. هل تفهمني؟"

أومأ أندرو رأسه بالموافقة. كان يفهم والده بما فيه الكفاية. ولكن ما الذي بإمكانه أن يفعله؟ لقد قرر أن يجلو فكره بالتريض جريًا. بينما كان يعدو على طول الطريق المرتفع المؤدي إلى الأرض المستصلحة من البحر، راح يفكر في ما لم يرغب أن يفعله. لم يكن يريد أن يعمل في مكان مغلق، أو في حديقة، أو أن يعمل حدادًا مثل والده. لم يكن باستطاعته أن يواصل الدراسة، بعد أن توقف تعليمه

عند الصف السادس.. وهو لم يرغب بأن يدرس أكثر من ذلك على أي حال.

قرر أندرو أن يحل المشكلة بطريقة مختلفة. فقد سأل نفسه عما يجيده بالضبط. جاءه الجواب بينما كان يجري.. سرقة البنادق، ونقل الرسائل السرية، وتجنب النازيين، والجري مثل الريح. ولكن ما فائدة تلك الأشياء خاصة بعد أن انتهت الحرب؟ ثم خطرت على بال أندرو فكرة. لقد كان تفكيره محدودًا جدًا. ربما تكون الحرب قد توقفت في هولندا وبقية أوروبا، ولكنه قرأ مؤخرًا أن الجيش الهولندي كان يواجه صعوبة في إخماد ثورة محلية في جزر الهند الشرقية الهولندية. أسرعت خطوات أندرو وهو يحاول أن يتذكر ما قرأه في الجريدة.

إن جزر الهند الشرقية الهولندية، كما كان يُطلق على إندونيسيا، كانت تحت الاحتلال الهولندي لمدة ٣٠٠ سنة، حتى احتلها اليابانيون خلال الحرب. والآن بعد أن رحل اليابانيون، فإن البعض في إندونيسيا أرادوا أن يتحرروا من الحكم الهولندي أيضًا. بالطبع عرف أندرو أن هذا لن يحدث، وأن الجيش الهولندي كان يرسل مجندين جدد لجزر

الهند الشرقية لإخضاع المتمردين.

وبينما كان أندرو يجري، استرجع في ذاكرته سببين يجعلانه جنديًا لا بأس به. لقد كان ذا لياقة بدنية عالية وصغيرًا في السن، وكان يبحث عن المغامرات. وعلى الجانب السلبي، لم يكن قد حصل على قسط وافر من التعليم. ولكنه تصور أن عددًا كبيرًا من المراهقين الهولنديين كانوا على شاكلته. لم يستطع أندرو أن ينتظر حتى يصل إلى البيت ويخبر عائلته بما استقر عليه.

مع أن إخوة أندرو ووالده تحمسوا بشأن التحاقه بالجيش، إلا أن والدته وأخواته لم يتحمسن. لم يدهش رد فعلهن أندرو، الذي كان يعرف أن والدته أرادت أن يبقى قريبًا من المنزل.

لم تتحمس عائلة ويسترا لقراره أيضًا. قال السيد ويسترا: "سوف أصلي لأجلك. أرجو أن تجد ما تبحث عنه، يا أندرو".

إلا أن أندرو لم يهتم حقًا بما كانوا يفكرون فيه. لقد كان واثقًا بأنه قد وُجد مستقبله. كان يتخيل نفسه بالفعل، فوق جزيرة استوائية، يأكل الأناناس ويشرب قهوة أهل جاوة.

ومع أن أندرو قدم طلبًا للالتحاق بالجيش في الحـــال، إلا أنه لم يكن مسموحًا له بالانضمام إليه حتى بلوغـــه الثامنـــة عشرة من العمر في ١١ مايو ســـنة ١٩٤٦. كـــان يبـــدو الانتظار بلا نهاية، ولكنه قُبِل فـــي النهايـــة وأُرسِـــل إلـــى جوركوم، في جنوب هولندا، للتدريب.

كان أندرو يحب كل ما يتعلق بالتدريب، بدءًا من الزحف هنا وهناك تحت شبكات التمويه وحتى تعلم إطـــلاق النـــار بالأسلحة شبه الآلية. كان الأمر شديد الـــشبه بالبقـــاء فـــي المقاومة، ولكنه الآن كان يحصل على أجر نظيـــر القيـــام بذلك. لقد جذب أندرو أيضًا أنظار عدد كبير من المعجبات، وقد حرص أن يعرف كل من يقابله أنه كان يتدرب ليصبح جنديًا.

في أيام الآحاد كان يحضر الكنيسة المحلية، حيث كـــان يُدعى في كل أسبوع لتناول الغذاء من قبل عائلة مختلفـــة. وإذا كانت العائلة لديها فتاة مراهقة جميلـــة، كـــان أنـــدرو يحرص أن يبدو أكثر جاذبية وثقة بالنفس. كان يقول للناس: "من الطبيعي، نظرًا لمـــوهبتي، أن أتـــدرب علـــى القتـــال المتلاحم".

ما كان ينبغي أن يقوله للعائلات التي كانت تدعوه ليأكل معهم أنه لم يكن مهتمًا حقًا بالخدمة الكنسية أو بصحبتهم. ما كان يأمل فيه حقًا هو أن يكتبوا له ويرسلوا بعض المعونات بعد أن يتم إرساله إلى وجهته. في إحدى الزيارات لإحدى العائلات، التقى أندرو بفتاة جذابة بنوع خاص، اسمها "ثايل". اعتبر أندرو أنها كانت أجمل فتاة رآها، بشعرها الأسود الفاحم، وبشرتها البيضاء الناعمة. ذكَّر أندرو نفسه أن يكتب لها في أول مجموعة من الخطابات يرسلها من إندونيسيا.

أخيرًا انتهى التدريب، وفي نوفمبر سنة ١٩٤٦ ذهب أندرو إلى البيت ليودع عائلته. كان يشعر بالفخر وهو يرتدي زيه الجديد بما فيه من إبزيم نحاسي لامع. لكن على الرغم من الزي الجديد والتدريب، لم تكن والدة أندرو متأثرة كثيرًا بذلك. وسألته: "لماذا تفكر دائمًا في القتل؟"

لم يكن لدى أندرو إجابة محددة على سؤالها. كان يعيش في وسط الحرب منذ أن بلغ من العمر ١٢ سنة، والآن صارت الأزياء الجديدة والبنادق والقتال أمورًا معتادة بالنسبة له.

قبل أن يغادر أندرو إلى أمستردام للالتحاق بوحدته

العسكرية، مدت أمه يدها إلى جيب مريلتها وقالت له: "هاك يا بني.. أريد أن تأخذ هذا معك".

شعر أندرو بالفزع. كانت أمه تعطيه كتابها المقدس الشخصي. كان أندرو يأمل أن يخرج من البيت بدون أي أدب ديني.

استطردت السيدة فان دير بيجل: "عليك فقط أن تعدني بأنك سوف تقرأه".

قرر أندرو ألا يتناقش معها، فتمتم بكلمة شكر ودفع الكتاب المقدس إلى أسفل حقيبة القماش الخاصة به. وبحسب ما توقع، كان يمكن أن يظل الكتاب في هذا الموضع حتى يعود.

بعد أن انضم أندرو إلى وحدته، تم تحميل الرجال فوق سفينة النقل "سيباجاك" المتجهة إلى جزر الهند الشرقية. بينما كانت السفينة في طريقها إلى جنوب شرق آسيا، أخذ أندرو يكتب أول مجموعة من الخطابات إلى بلده إلى أصدقائه القدامى والجُدد. في خلال فترة تدريبه، تمكن من جمع أسماء ٧٢ عائلة، وكان يأمل أن تسفر خطاباته لتلك العائلات عن حصاد وفير من المعونات التي تحتوي على

الشيكولاتة والجبن.

كان على أول قائمة أندرو من الناس الذين سيكتب لهم "ثايل" وعائلتها. كتب أندرو إلى ثايل قائلاً لها كم كان يحب الحياة في البحر، وكم كان على أحر من الجمر ليبدأ خدمة بلده بإخضاع المتمردين. وكمعظم الخطابات التي أعقبت ذلك الخطاب، كان هذا الخطاب مليئًا بالتظاهر بالشجاعة والمخادعة. لم يكن لدى أندرو فكرة عما سيواجهه في جزر الهند الشرقية.

الحقيقة أن أندرو لم يكن مستعدًا حقًا لفهم وقبول أي ثقافة أخرى. صحيح أن الألمان قد غزوا "سانت بانكراس"، ولكنهم كانوا جيران هولندا الأوروبيين وليسوا بعيدين عنها ثقافيًا. ولكن عندما نزل من السفينة "سيباجارك" قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام، فوجئ أندرو بأسلوب حياة مختلف تمامًا.

كان أول شيء توجب على أندرو أن يعتاد عليه هو الحرارة. كان الجو رطبًا ومليئًا بالضباب، وكانت درجات الحرارة لا تتعدى الأربعين، عندما ركب سفينة النقل في هولندا. ولكن الآن، بعد نزوله من السفينة، كانت درجة الحرارة ضعف ذلك، وكانت الرطوبة خانقة. عندما حمل

حقيبة القماش وهو ينزل على سلم السفينة، تكونت حبيبات العرق على جبينه.

كان التأثير الهولندي على "جاكرتا" واضحًا على الفور. كانت الواجهة المائية تحفها على الجانبين المخازن الأنيقة، وراؤها منازل من الطوب ذات أسطح من القرميد الأحمر. كانت البيوت على جانبي شوارع أنيقة وميادين، وترع بدت أنها في كل مكان.

بينما كان أندرو يشق طريقه في قلب المدينة مع زملائه الجنود، وجد أن الجزء الأنيق من المدينة والمتأثر باللمسة الهولندية قد تراجع ليفسح مجالاً لجاكرتا مختلفة. أخذت الشوارع تضيق وتتشعب بزوايا غريبة، وكانت تعج بأهل البلد والنشاط. وعلى جانب الطريق، كان الناس يبيعون كل شيء.. بداية من الفواكه والخضروات، التي لم يسبق لأندرو أن رأى بعضها من قبل، وحتى التوابل والأقمشة والملابس. كانت الشوارع مليئة أيضًا بالدراجات الثلاثية العجلات ذات الألوان الزاهية التي كانت تصلح كسيارات أجرة. كانت الدراجات تنقل أناسًا ذوي بشرة سمراء يمزحون بأغرب لغة سمعها أندرو. كم كان ذلك مختلفًا عن "سانت بانكراس".

فور وصول أندرو إلى "جاكرتـــا"، وجــد نفــسه وســط مجموعة من الجنود تم اختيارهم للذهاب إلى واحــدة مــن جزر إندونيسيا البالغ عددها ١٣,٦٧٧ جزيرة للحصول على تدريب خاص للأعمال الفدائية. وخلال تلك المدة تم تعريف المتدربين على أحوال عــدوهم. لــم يكــن عــدوهم هــم الإندونيسيون العاديون، بــل مجموعـــة مــن الثــوار – أو بالأحرى رجال حرب العصابات – يطلق عليهم لقب PNI. كانت المجموعة، التي يقودها رجل يدعى سوكارنو، تقاتــل لإخراج الهولنديين من إندونيــسيا. ولكــن رجــال حــرب العصابات لم يقاتلوا بطريقة أوروبية، بــل كــانوا يــشنون هجمات خاطفة على طريقة الكر والفر ضــد الهولنــديين، الذين كانوا يجدون صعوبة بالغة في الدفاع عــن أنفــسهم، حتى باستخدام أسلحتهم المتطورة والدبابات والمدافع. وكانت هناك أيضًا مجموعة متنامية من رجال حــرب العــصابات الشيوعيين تشن غارات متكررة على الهولنديين. ولكن على الرغم من الطبيعة المراوغة لعدوهم، كان أندرو يحب كــل دقيقة من التدريب علــى الأعمــال الفدائيــة فــي الغابــة الاستوائية. كان التدريب شاقًا، ولكن بجسده الطويل القــوي

وقوة تحمله، بدأ أندرو يشعر أن بمقدوره مواجهة أي تحد. ولكن، سرعان ما اكتشف أنه لا يزال بحاجة لتعلم بعض المهارات.

سأل أحد الضباط أندرو يومًا ما وهو خارج من المقر الرئيسي للفرقة هذا السؤال: "أيها الجندي، هل تستطيع أن تقود ناقلة جنود ماركة برن؟"

قال أندرو بعد أن استجمع كل الثقة التي كانت لديه: "نعم، سيدي".

قال الضابط، وهو يشير إلى الناقلة: "هاك تلك الناقلة بحاجة للذهاب إلى ورشة الصيانة للإصلاح".

في الواقع، لم يسبق لأندرو أن قاد من قبل ناقلة كهذه، أو أي مركبة أصلاً. ولكن بينما كان يُنقل في ناقلة جنود يومًا وراء الآخر أثناء فترة تلقيه التدريب، راقب أندرو كيف كان السائق يشغل المركبة وتوصل إلى الاستنتاج بأن ذلك لم يكن أمرًا بالغ الصعوبة.

كانت ناقلات الجنود ماركة برن عبارة عن ناقلات جنود كبيرة. كانت شيئًا وسط بين الدبابة والشاحنة، وكانت تبدو قادرة على الانزلاق بسهولة فوق أكثر الأراضي وعورة.

صعد أندرو إلى مقعد السائق، وكان الضابط جالسًا بجواره. أخذ أندرو يتفحص لوحة القيادة، محاولاً أن يعود نفسه على جهاز القيادة. كان المفتاح في أداة الإشعال، أداره، فأخذت الحياة تدب في محرك برن. راح أندرو يدرس الدواسات عند قدميه. أيهما كان جهاز تعشيق التروس؟ ضغط على أول دواسة فمضت تجاه الأرض، فعرف أنها كانت جهاز تعشيق التروس، فجعل المركبة في وضع التعشيق. ثم وضع رجله على دواسة البنزين وسحب رجله من على جهاز تعشيق التروس، كما كان يلاحظ السائق يفعل. وفي الحال تحركت المركبة الضخمة إلى الأمام وبدأت تزداد سرعة. أسرع أندرو في الشارع، متجنبًا بالكاد عدة جنود يعبرون الطريق. أخذت الناقلة تسرع أكثر فأكثر، وعندما نظر أندرو إلى الضابط الجالس بجواره، رأى أن مفاصل أصابع الضابط كانت بيضاء اللون فيما تمسك بمقعده، وأن سيقانه كانت مثبتة تجاه الأرض.

كان مبنى مجمع المحركات يقترب بسرعة. وعند ذلك أدرك أندرو أنه لا يعرف كيف يوقف المركبة. شعر أندرو بالذعر يسري في كيانه. فحتى عندما رفع قدمه عن دواسة

البنزين ظلت حاملة الجنود تنطلق بــسرعة فائقــة. دون أن ينظر، رفع أندرو قدمه تجاه ما افترض أنها الفرملة. ولسوء الحظ فإنه لم يضغط على الفرملة، بل على دواسة البنــزين. فاندفعت ناقلة الجنود إلى الأمام بأسرع مما كــان. ســحب أندرو قدمه.. ولكن كان قد فات الأوان لهذا. اصطدمت ناقلة الجنود بمؤخرة صف من ناقلات الجنود تنتظر الصيانة في مجمع المحركات، مما جعلها تصطدم ببعــضها الــبعض. وعندما توقفت ناقلة الجنود أخيرًا، قفــز الــضابط الجــالس بجوار أندرو، وهو شاحب الوجه ويرتعش. وفي نفس الوقت فتح رقيب فظ باب سائق الناقلة، وطلب أن يفسر له أندرو ما فعله لتوه.

قال أندرو: "قيادة الناقلة نحو مجمــع المحركــات، أيهــا الرقيب".

حملق الرقيب في أندرو.

اهتزت ثقة أندرو في نفسه، فأخذ يفكر بسرعة. أشار إلى الضابط الشاحب الوجه الواقف في الناحية الأخرى من ناقلة الجنود قائلاً: لقد سألني إن كنت أعرف كيف أقود واحدة من تلك الناقــلات. ولكنه لم يسألني إن كنت أعرف كيف أوقف

إحداها!.

في صباح اليوم التالي، كان أندرو بحاجة لاستجماع كل ثقته، فقد كان على وشك أن يُرسل على ظهر سفينة في مهمة قتالية. كانت فرقته مرسلة لتعزيز فرقة أخرى قُتل ثلاثة أرباع رجالها في القتال. كانت لحظة جادة فيما عقد أندرو رباط حذائه، وقذف بحقيبته فوق كتفه، وتقدم للخدمة.

سرعان ما اكتشف أندرو أن الحياة في جبهات القتال كانت شديدة الاختلاف عن التدريب. كان أحد الأسباب لذلك، أن الجنود لم يعودوا يطلقون النار على أهداف ورقية بأسلحتهم، بل يطلقون النار على أناس حقيقيين. وعلى الرغم مما سمعوه أنهم لم يكونوا يقاتلون أناسًا إندونيسيين عاديين، بل شيوعيين ورجال حرب عصابات، إلا أنه في ميدان القتال كان من الصعب أن تعرف مَن تُقاتل. كان من المرجح أن يطلقوا النار فورًا على أي شخص يُشتبه فيه.

عرف أندرو أيضًا أن الأسلحة كانت كل شيء. فأي صوت أو موقف غير عادي كان يواجَه بسيل من الرصاصات ووابل من القنابل اليدوية. كان أندرو يحب أن يشعر بارتداد مدفعه الرشاش عندما كانت قذائف الذخيرة

تندفع واحدة وراء الأخرى من ماسورته. وفيما بعد كان يفتخر بالضرر الذي أحدثه سلاحه فيما يمشي حول جثث الموتى والقرى المدمرة. تلك كانت الإثارة التي كان يبحث عنها.

ولكن مع مضي الأسابيع، بدأ أندرو يلاحظ أن الإثارة التي كان يشعر بها تقل شيئًا فشيئًا، وبدأ يحل محلها إحساس بالفراغ. لم يعد وميض الرصاص المنطلق من ماسورة مدفعه الرشاش يُشعره بأي نوع من الإثارة. وبدأ أندرو يشعر بألم من رؤية المذابح التي حلت بعامة الناس. أخيرًا بدأ أندرو، بعد عودته إلى المعسكر بالليل، يحتسي جرعة تلو الأخرى من الجِن (مسكر قوي). كان الجِن يحرق حلقه في البداية، ولكن بعد ساعة من تجرعه، كان أندرو يشعر بخدر تجاه أحداث النهار.. وكان هذا إحساسًا طيبًا للغاية.

الفصل السادس

صورة مؤلمة

كان الوقت على جبهة القتال يمضي ببطء بالنسبة لأندرو. ومع أن أندرو كان يتلقى خطابات منتظمة من الوطن، إلا أن قرية سانت بانكراس الهولندية الصغيرة كانت تبدو على بُعد مليون ميل. كان معظم الجنود الآخرين في فرقة أندرو يحيون حياة يأس قاتل، مثل أندرو، إذ كان في كل أسبوع يقتل واحد أو أكثر من رفقاء السلاح أو يجرح في القتال. كان مصدر الفرح الوحيد في حياة أندرو قرد جيبون يقارب طوله مترًا واحدًا.

كان أندرو في إجازة في جاكرتا، وبينما كان يمشي في أحد الأسواق، مر بالقرب من الجيبون. كان القرد مربوطًا في عمود وكان يجلس بأعلاه يقشر برتقالة. عندما مَر أندرو بالجيبون، قفز الجيبون إلى كتف أندرو، وقدم له فصًا من البرتقالة التي كان يقشرها. ابتسم أندرو، وبدا أن الحيوان يبادله الابتسام. اشترى أندرو القرد وأخذه معه إلى المعسكر .

كان الجيبون محبوبًا للغاية من قِبَل زملاء أنـــدرو مـــن الجنود، الذين كانوا يحبون أن يدللوا الحيوان ويلعبوا معـــه. ولكن أندرو لاحظ أنه في بعض الأحيان عندما كان واحـــد من الجنود يلمس الجيبون بالقرب من خصره، كـــان غالبًـــا يجفل في ألم. وعندما بحث الأمر، اكتشف أن القرد كان لديه شيء مغروس تحت جلده، وكان هذا يُسبب له الألـــم. أخـــذ أندرو موسي وأخذ يقطع في حذر في جلد الجيبـــون. ذهـــل أندرو لأن الحيوان كان يرقد ساكنًا ويسمح له بالقطع. باعد أندرو بين لحم الجيبون واكتشف أن الشيء المغروس كـــان عبارة عن قطعة من السلك. أخذ يواصل القطـــع ثـــم أزال السلك. عندما شفى الجرح، لم يجفل الجيبون مرة أخرى من الألم عندما كان يلمسه أحد عند خصره.

كان يبدو أن إزالة السلك قد أوجدت رابطة بين الجيبـــون وأندرو. أصبح الاثنان لا يفترقان. في بعض الأحيان كـــان أندرو يجري مع الجيبون وهو متعلق بكتفيه. وفـــي أحيـــان أخرى، خاصة بالليل عندما لم يكن هناك مَن يخاطبه، كـــان أندرو يجلس ويتكلم مع الجيبون. كان يخبر القرد عن حقيقة مشاعره تجاه القتال الدائر حوله. كان يبدو أن محادثاته مع

الجيبون تريح ضميره.

مع استمرار الصراع، أصبح أندرو على وعي بشجاعته وتفكيره السريع في المعركة. يومًا ما كان هو وفرقته من الجنود في دورية، ومضوا إلى أحد التلال. أخذ أندرو يعدو صعودًا إلى أعلى التل وسرعان ما أصبح يتقدم الآخرين بحوالي تسعين متر. كانوا يلهثون وهم يصعدون الجانب المنحدر المغطى بالأدغال. ولكن بينما كان يجري فوق الحافة على قمة التل، وجد أندرو نفسه وجهًا لوجه مع عشرة رجال من الثوار المدججين بالسلاح. كانوا يفوقونه في العدد والعتاد، وكانت بقية أفراد دوريته لا يزالون في منتصف التل. راح أندرو يفكر بسرعة، لأن حياته كانت تتوقف على هذا. كان يعلم أنه إذا أطلق النار على الرجال المسلحين، فإنهم سوف يردون بالمثل وعندئذ يلقي حتفه في ثوان معدودة. كانت الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هي أن يخدع هؤلاء الرجال. وفي الحال رفع بندقيته وصوَّبها نحو المقاتلين. قال: "الحرب انتهت بالنسبة لكم. ألقوا أسلحتكم. أنتم مُحاصرون من كل جهة". قال ذلك بدون تردد وبصورة مقنِعة على قدر استطاعته.

كان قلب أندرو يدق بشدة في صدره وهو ينتظر ليـــرى رد فعل المقاتلين. وسرعان ما شعر بالارتياح والاندهاش.. فقد ألقى الرجال بأسلحتهم واستسلموا. لقد نجحت الخدعـــة. لكم ذهل أفراد دوريته عندما وصلوا أخيرًا إلى حافة التـــل واكتشفوا أن أندرو كان يحرس عشرة أسرى بتهديد السلاح.

يومًا ما وقعت حادثة لم يستطع أندرو حتى أن يتحـــدث عنها مع قرده الأليف. كانت الأسابيع الثلاثة الماضية أسابيع عصيبة. فقد دخل رجال حرب العصابات الشيوعيون فـــي الصراع الدائر ما بين الهولنديين ورجال حرب العـــصابات المحليون من الـــ PNI. ونتيجة لذلك، فإن أندرو وزمـــلاءه صاروا الآن يقاتلون عدوين مختلفين. كان من الممكـــن أن يكون القتال أكثر سهولة لو أن الشيوعيين ورجـــال حـــرب العصابات كانوا يُقاتلون في حرب مفتوحة، ولكنهم فـــضَّلوا زرع الألغام الأرضية ووضع الشراك الخداعية التي كـــان من الممكن أن تنفجر في أي وقت وأي مكان. خلقت الألغام الأرضية بنوع خاص قدرًا كبيرًا من القلـــق بـــين القـــوات الهولندية، فأي خطوة في الاتجاه الخاطئ كان يمكن أن تفجر شخصًا وتحيله إلى أشلاء في ظرف ثانية.

في يوم الحادث، كان أندرو واحدًا من فرقة تعبر وسط قرية آمنة. كان الرجال واثقين أنه لا توجد ألغام أرضية حولهم، حيث أن القرية كانت مأهولة بالرجال والنساء والأطفال. ثم حدث دوي. وملأ الجو صوت يصم الآذان، وانهمرت الشظايا كالسيل. لقد مشى الرجال فوق حقل ألغام أرضية. أدار أندرو رأسه في الوقت المناسب ليرى صديقه "أرني" وقد مزقه لغم أرضي كان قد خطا عليه. أوقع دوى الانفجار العنيف أندرو على الأرض. وعندما نهض، كان أندرو يستشيط غضبًا. لا شك أن سكان القرية كان يعرفون موقع الألغام، وإلا لكانوا مشوا فوقها بأنفسهم، وبدا لأندرو أن كل فرد من أفراد الدورية قد توصل إلى نفس الاستنتاج في نفس الوقت. إذ فجأة دوت طلقات البنادق حوله. بدا كما لو أن الهواء قد تحول إلى رصاص مصهور، عندها فتح الجنود الهولنديون الخائفون والغاضبون النار ببنادقهم ورشاشاتهم دون تمييز على المنازل، والبشر، والحيوانات، والأشجار، وكل شيء تصادف وجوده في تلك المنطقة.

عندما سكنت البنادق أخيرًا، شق أفراد الدورية طريقهم بحذر حول حقل الألغام واتجهوا نحو حافة القرية. كان كل

ما حولهم تحول إلى دمار. لقد دُمرت القرية بالكامل، وبسبب الجثث المتناثرة هنا وهناك، بدا لأندرو أنه لم ينج كائن حي من ذلك الهجوم الضاري. ولكن أندرو برر ذلك بأنهم يستحقونه. إذ كانوا يعرفون أن الألغام موجودة هناك، وكان يجب عليهم أن يحذروا الجنود. وبعدم قولهم أي شيء، صاروا مجرمين تمامًا مثل رجال العصابات الذين زرعوا الألغام. وعندئذ رأى منظرًا أحال تبريراته لقتل أفراد القرية إلى شتات غير مترابطة. لقد كان أمام أندرو على الأرض أمًّا صغيرة السن ترقد وسط بِركّة من دمائها، وكانت تضم إلى صدرها بشدة طفلاً رضيعًا. لقد ضُربت الأم وطفلها بنفس الرصاصة.

سأل أندرو نفسه وهو يحملق في الأم وطفلها: "أي نوع من الحيوان أصبحتُ؟ كيف تصرفتُ هكذا؟" أراد أندرو للحظة أن يضع مسدسه تجاه رأسه ويضغط على الزناد. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ فجأة بدا له كل هذا القتل بلا معنى.

بذل أندرو كل ما في وسعه ليبعد صورة الأم الميتة وطفلها عن ذهنه، حتى أنه تحدث مع قسيس المعسكر بشأن ذلك. ولكن القس حاول التخفيف من وقع المأساة. وتأكد

أندرو أكثر من ذي قبل أنه لو كان هناك إله، فمن المؤكد أنه لن يهتم بجندي هولندي واحد فوق جزيـرة اسـتوائية فـي جنوب شرق آسيا.

كانت صورة الأم الميتة وطفلها تتأجج كالنيران المشتعلة في أعماق كيانه، فاتجه أندرو إلى الشيء الوحيد الذي علـم أنه يخمد الذاكرة لفترات قصيرة.. الكحول. عندما جلس في الحانة مع أصدقائه، شرب أندرو ضِعّف ما شربوه. وعندئذ فقط، عندما كان شراب الجِن يحرق معدته ويضع غـشاوة على عقله الواعي، كان بمقدوره أن ينسى ما فعله هو وبقية أفراد الدورية. ولكن عندما كان تأثير الخمر يقل، كان أندرو يشعر بأنه عديم القيمة أكثر من أي وقت مضى.

أخيرًا قرر أندرو أنه لم يعد لديه شـيء يحيـا لأجلـه، وأصبح من أجسر جنود الفرقة. قال لنفسه انه إذا لم يستطع أن يقتل نفسه، فيمكن للعدو أن يفعل ذلك بدلاً منه. اشـترى قبعة من القش صفراء اللون ليرتـديها حـين يكـون فـي المعركة، ليصير هدفًا سهلاً لأي شخص يريد أن يُطلق عليه الرصاص. ولكن كانت رصاصات العـدو تخطئـه دائمًـا بطريقة ما.

في وسط يأسه، تلقى أندرو خبرًا كاسحًا من أرض الوطن. يومًا ما وصل خطاب من أخيه بِن، يصف فيه جنازة في القرية. وحالما فرغ من قراءة الخطاب أدرك أندرو أن "بن" كان يتكلم عن جنازة أمهما. كان من الواضح أنه لم تبلغ أندرو البرقية السابقة التي تخبر بوفاة أمه.

بعد قراءة الخطاب، قرر أندرو أن يعدو في الغابة لكي يحاول أن يجد شيئًا من راحة البال.. ولكن هيهات. كان مع كل خطوة يخطوها يفكر في أمه المسجاة في تابوت، ثم يغرق عقله في مناظر كل الناس الذين قتلهم هو وفرقته. اتجه أندرو مرة أخرى إلى الكحول ليخفف من ألمه.

في بعض الأحيان، بين فترات الشراب، كان أندرو يكتب خطابات لبعض الناس الذين قابلهم في فترة التدريب في جوركوم. لقد أخبرهم عن حقيقة شعوره وعن بعض الأشياء التي حدثت له منذ أن غادر هولندا. ولكن الناس الذين كتب إليهم كانوا يكتبون له نفس الإجابة: "أنت تخدم بلدك بشرف، وتنفذ الأوامر الصادرة لك. لذا لا تدع هذا يتعب ضميرك".

ولكن ما حدث قد أتعب ضميره.. وبشدة. ابتدأ أندرو يكتب عن حقيقة مشاعره لثايل، الفتاة ذات البشرة البيضاء

والشعر الأسود الجميل والتي التقى بها في جوركوم. لم ترد ثايل عليه بكلمات سطحية، ولكنها أخبرته أن الله بمقدوره أن يغفر له وأنه بحاجة أن يغفر لنفسه أيضًا. كانت خطاباتها ذات معنى بالنسبة لأندرو عندما كان غير ثمل. ولكن عندما كان ثملاً، كان يعتقد أن نصيحة ثايل سطحية وصبيانية.

ذات مرة كتب خطابًا إلى ثايل يخبرها فيه أن حياته قد أصبحت مهزلة. فعلى الرغم من نشأته المسيحية، لم يعد يؤمن بالله، ويبدو أنه لم يعد يأبه بقتله للنساء والأطفال. لم يرسل هذا الخطاب الذي كان يمكن أن يُحدث صدمة كبيرة لثايل حين تقرأه. وبدلاً من ذلك فقد دس الخطاب في قاع حقيبة القماش الخاصة به أسفل كتاب أمه المقدس. قال لنفسه: "ربما يعود على الخطاب شيء من النفع في موضعه هذا".

استمرت الحرب، وفي فبراير سنة ١٩٤٩، صدرت الأوامر لفرقة أندرو بأن تتحرك في حملة كبرى جديدة لشن قتال ضد العدو الثائر. علم أندرو أن قرده الأليف لا يستطيع السفر مع الفرقة؛ لذا توجب إطلاق سراحه. وهكذا قام جندي زميل بأخذ أندرو والقرد في السيارة إلى داخل الغابة.

قال أندرو لرفيقه الصغير الأمين: "عليك أن تبقى ها هنا".

كان يبدو أن الجيبون قد فهم، لأنه وقف ساكنًا تمامًا فيما انطلق أندرو في السيارة الجيب وأسرع عائدًا. نظر أندرو خلفه، وكان هناك الجيبون، واقفًا ومحملقًا فيه، دون أن يبذل أي محاولة لاتباعه. تسلل إحساس عميق بالوحدة إلى أندرو. وفكر كم سيفتقد حيوانه الأليف. كان يبدو الجيبون في كثير من الأحيان أقرب إلى البشر منه إلى القرد.

اختلفت الأمور عما كانت عليه حالما غاب الجيبون عنه. فأندرو لم يفقد رفيقه وحسب، لكنه أيضًا فقد رغبته في القتال بعد أكثر من عامين من القتال. كان لا يزال يرتدي قبعته صفراء اللون ويشن أشد الغارات جنونًا غير مهتمٍ بالحياة أو الموت.

بعد إطلاق سراح الجيبون بثلاثة أسابيع، كان أندرو في دورية وسط حقول الأرز خارج جاكرتا. وبينما كانت سريته تشق طريقها وسط الحقول، وهي تخوض في الماء والطين حتى الكاحل، فتح العدو النار عليهم. فجأة بدأت الرصاصات تأتي من كل مكان حولهم.

سمع أندرو واحدًا من زملائه الجنود يصيح قائلاً: "إنه

كمين. لقد أحاطوا بنا من ثلاث جهات".

أطلق أندرو النار من بندقيته على العدو بلا انقطاع. وفجأة شعر بلسعة في كاحله. بدأ الألم يرتفع في ساقه، مما جعله يسقط على ركبتيه في حقل الأرز. وعندما نظر إلى أسفل ليرى مصدر المشكلة، رأى الدم يتدفق من ثقب في حذائه الأيمن. أخذ يدقق النظر ورأى أن إحدى رصاصات العدو قد اخترقت كاحله.

صرخ أندرو: "لقد أصبتُ".

بعد لحظات وصل مسعفان ووضعاه على نقالة. وزحفا حاملين أندرو بعيدًا، والقبعة القش الصفراء لا تزال على رأسه.

في مكان ما بالطريق، أغمى على أندرو بسبب الألم المبرح في كاحله الأيمن. وعندما عاد إلى الوعي، كان في مستشفى ميداني. استطاع أن يسمع الممرضة والطبيب يتحدثان فوقه.

سمع الطبيب يقول: "أعتقد أننا ينبغي أن نحاول إنقاذ الساق أولاً".

ردت الممرضة قائلة: "ولكن كاحله في حالة سيئة للغاية".

رد الطبيب بالقول: "أعرف ذلك.. قد نضطر لبتره".

حقن الطبيب ساق أندرو بمخدر موضعي من محقن. وبدأ الألم في كاحل أندرو يقل بالتدريج، في الوقت الذي بدأ فيـــه الطبيب يجري العملية للكاحل المصاب.

عندما سقطت قبعة القش الصفراء أثناء العمليـــة، طلـــب أندرو من الممرضة أن تلتقطها وتضعها ثانية على رأســـه. وبينما كانت تفعل ذلك، كان يفكر في سوء حظه. لقد كـــان يرتدي القبعة حتى يصيبه شخص ما برأسه ويقتله.. ولكنـــه بدلاً من ذلك أصيب في الكاحل. وهل هو في العشرين مـــن عمره، وأغلب الظن أنه سيصير مقعدًا بقية حياتـــه. فجـــأة وبدون سابق إنذار انتهت حرب أندرو.. ولكن ليس حياته.

الفصل السابع

أرض الوطن أخيرًا

توالت الأيام التي رقد فيها أندرو على ظهره في مستشفى فرنسيسكاني في جاكارتا. كانت جبيرة الجص على ساقه اليمنى تمتد من أصابع قدميه إلى فخذه، مما تركه بلا حراك. قالت الممرضات الكاثوليك اللاتي اعتنين به أنه يجب أن يدرك كم هو مبارك لأن الطبيب استطاع أن ينقذ ساقه. ولكن كلمة "مبارك" لم تكن في قاموس أندرو، بل كانت كلمة "ملعون" اختيارًا أفضل للكلمات بالنسبة له.

انتابت أندرو نفس الأحاسيس التي انتابته وقت احتضار أخيه "باس"، وأراد أن يموت كذلك. ولكن بدا أنه لُعن بأن يحيا حياة المقعد. ومما زاد الطين بلة، أن الحرب كانت تضع أوزارها، وكان الهولنديون هم الطرف الخاسر. كانت إندونيسيا، بتأييد من الأمم المتحدة الوليدة، على وشك أن تصبح دولة مستقلة. كانت تلك حبَّة مُرَّة كان على أندرو أن يبتلعها. وبينما كان يرقد على ظهره في الفراش أثناء النهار، كان يفكر في مغامرته الكبرى وكيف تحولت إلى كابوس.

وفي الليل عندما يتمكن من النوم، كان أنـــدرو يحلم بالمرأة الميتـــة وطفلها السابحين في بركة من الدماء.

بعد إصابة أندرو بأسبوع، استقبل زائـــره الأول، "چـــان زوارت"، أحد جنود سريته. كان المفروض أن ترفع الزيارة من روح أندرو المعنوية، ولكن كان لهـــا تـــأثير معـــاكس. أوضح چان كيف أن الشيوعيين ورجال حرب العـــصابات كانوا يستخدمون كل الميزات التكتيكية في القتال، وأن عددًا كبيرًا من سريتهم كانوا يُقتلون. في الواقع، ذكـــر چـــان أن ثمانية جنود فقط بقوا على قيد الحياة من أصـــل ٩٠ رجـــلاً كانوا قوام السرية. لكن لم يكن ذلك ما جعل أندرو يغـــوص في يأس عميق. بل كان السبب هو خطاب قد كتبه من قبل.

في الأسابيع القليلة الأخيرة قبل أن يُجرح، كان أندرو قد اعتاد الكتابة إلى ثايل، ليخبرها عن أعمق مشاعره ويصف فيه أردأ الأمور التي فعلها في ذلك اليوم. كانت القائمة فـــي بعض الأحيان طويلة ومثيرة للاشمئزاز. كان أندرو يكتـــب الخطابات مدركًا أنه لن يرسلها. فقد كانت أشـــياء مرعبـــة لدرجة لا يستطيع أن يكتب عنها لأحد. وبدلاً من ذلك، كان يحتفظ بالخطابات في حقيبته ليوم أو يومين، ثم يأخذها إلـــى

الخارج ويحرقها. ولكن أحد هذه الخطابات كان لا يزال في حقيبته عندما أُصيب في كاحله. والآن كان يرقد وهو متألم في الفراش، يصغي إلى چان الذي يخبره بابتسامة أن أحد أصدقائه قد وجد الخطاب في حقيبته، وبحث عن عنوان ثايل في دفتر عناوين أندرو، وأرسل الخطاب بالبريد لها. أصيب أندرو بالذعر لذلك. لم يستطع أن يتصور ما يمكن لثايل أن تفعله حين تقرأ كل الأشياء التي كتبها. لكم أراد وقتها أن يسقط ميتًا.

واصل چان حديثه قائلاً: "وأحضرت لك هذا. لقد كان ضمن متعلقاتك أيضًا". أخرج الكتاب المقدس الخاص بأم أندرو ووضعه على المنضدة بجوار السرير.

تمتم أندرو، وهو واثق أنه لن يفتحه: "شكرًا".

كان چان أحد الزوار القلائل الذين زاروا أندرو في المستشفى. خلال أيام النقاهة الطويلة، كان أندرو يشعر بالوحدة ووجد نفسه يفكر كثيرًا في عائلته. كيف كان حال أخته جيلتج؟ كانت قد تزوجت مؤخرًا، وحاول أندرو أن يتصور حفل الزفاف بدون وجوده هو أو أمه. كان بِن قد كتب يقول أنه كان مرتبطًا كذلك، ولكنه كان يؤجل حفل

الزفاف لحين عودة أندرو إلى أرض الوطن.

كان الضياء الوحيد في عالم أندرو هو الراهبات الفرنسيسكانيات اللاتي كن يدرن المستشفى ويسهرن على رعاية المرضى. كانت الممرضات تضحكن وترنمن أثناء جولاتهن في العنابر، وحتى عندما كن يضطررن للقيام بواجبات كريهة، مثل تنظيف ملاءات السرير أو تغيير الضمادات الملوثة. كان أندرو يراقبهن وينتظر أن يضبط واحدة منهن وهي في حالة مزاجية سيئة، لكن دون جدوى. ذات يوم سأل الأخت باتريس، التي كانت تعتني به، عن السبب الذي يجعل الممرضات سعيدات طوال الوقت.

أجابت الأخت باتريس ببريق في عينها: "أنت شاب هولندي طيب. بالطبع أنت تعرف الإجابة.. إنها محبة المسيح. الأمر كله موجود هنا في الكتاب الذي بجوار سريرك، أليس كذلك؟". ثم ربتت على الكتاب المقدس.

بدت الأخت باتريس أشبه ما تكون بوالدته.

في وقت لاحق من ذلك اليوم شعر أندرو بالملل لدرجة أنه قرر أن يفتح الكتاب المقدس ويقرأه. بدأ يقرأ منذ البداية بخلق الله السموات والأرض. كانت نفس القصة التي سمعها

عندما كان ولدًا صغيرًا في مدرسة الأحد، ولكن الآن بدت القصة مختلفة.. بدت حية وحقيقية. لأول مرة في حياته، لم يستطع أندرو أن يضع الكتاب المقدس جانبًا. من ذلك الوقت فصاعدًا، كان أندرو يقضي كل يومه في قراءة الكتاب المقدس حتى أنهى العهد الجديد. كانت بعض الأشياء التي قرأها مربكة، وأخذ يتساءل إن كانت بعض الأحداث قد حدثت بالفعل أم لا، وعن معنى كل ذلك بالنسبة لحياته إن كانت الأحداث حقيقية بالفعل.

كانت هذه الأسئلة مصدر إزعاج لأندرو، وعلى الرغم أنه كان يشك إن كانت ثايل سوف تكتب له ثانية أم لا، إلا أنه كتب لها يطلب منها إجابات لبعض أسئلته. ولفرط دهشته، كتبت ثايل لأندرو مرة أخرى تخبره أنها استلمت خطابه عن الأشياء المريعة التي ارتكبها، وحثته على طلب الغفران الإلهي وقبوله بسبب ما ارتكبه من أفعال. بدا خطاب ثايل منطقيًا لأندرو.. ومن ناحية أخرى لم يستطع أن يقتنع بأنه إذا كان هناك إله، أنه سوف يكون على استعداد للصفح عنه لأجل قتله للنساء والأطفال الأبرياء. لم يبدو ذلك ممكنًا.

مضى على أندرو شهران وهو يدرس الكتاب المقدس وكان ينتظر خلع جبيرته. وعندما تم خلعها أخيرًا، كانت ساقه اليمنى متغضنة وعديمة النفع. حاول الأطباء تشجيع أندرو بقولهم إنه إذا واصل القيام بتدريباته بصفة جادة، فسوف يتمكن يومًا ما من المشي بمساعدة العصا. ولكن كل ما جال بفكر أندرو هو الجري فوق الأرض المستصلحة كمراهق. الآن قد ولت تلك الأيام، وفي سن العشرين من العمر، شعر وكأنه رجل عجوز صارت أفضل أيامه خلفه.

تم تزويد أندرو بعكازين، وبمجرد أن استطاع استخدام العكازين عن طريق الوثب هنا وهناك، بحث عن العزاء الوحيد الذي عرفه.. زجاجة جِن من أقرب حانة. ظل أندرو في المستشفى لعدة أسابيع أثناء النهار، وكان يخرج للشرب بالليل. وفي مايو سنة ١٩٤٩، وصلت رسالة مفادها أن الجيش كان مستعدًا لنقل أندرو بالسفينة إلى موطنه في هولندا. ملأته فكرة العودة إلى أرض الوطن بالرعب. ماذا سيكون رأي الناس فيه، بساقه المعاق ووجهة نظره المليئة بالتشاؤم عن الحياة؟ فالناس ليس لديها فكرة عما اجتاز فيه في إندونيسيا، ولم يكن يعرف كيف يشرح لهم ذلك.

بعد الظهر قبل إخراجه من المستشفى، جاءت الأخت باتريس لكي تهنئ أندرو بعيد ميلاده الحادي والعشرين، ولكي تروي له قصة.

بدأت الأخت باتريس هكذا: "هل تعرف كيف يصطاد السكان المحليون القرود في الغابة؟"

أجاب أندرو: "لا.. كيف؟"

قالت له: "إن القرد لا يتخلى عن شيء يريده طالما أمسك به، حتى لو كان ذلك يعني فقدانه لحريته. يعرف المحليون ذلك، ويستغلونه. إنهم يأخذون ثمرة من ثمار جوز الهند ويُحدثون بها فتحة صغيرة، تكفي بالكاد كي يضع القرد يده من خلالها، وبعدئذ يُسقطون حصاة في ثمرة جوز الهند. ثم يضعون الثمرة بجوار شجيرة وينتظرون وصول أحد القرود.

"عندما يصل القرد أخيرًا، يكون محبًا للاستطلاع لدرجة أنه يلتقط الثمرة ويهزها. وعندما يسمع صوت الحصاة بالداخل، فإنه ينظر إلى الداخل ويدخل يده في الفتحة ليمسك بالحصاة. وعندما يحاول أن يسحب يده الملتفة حول الحصاة، فإنها لا تطاوعه في الخروج من الفتحة. ولكن

القرد لا يترك الحصاة، حتى عندما يقترب السكان المحليون ويمسكون به.

ثم أردفت بالقول: "يا أندرو، إنك تشبه ذلك القرد الصغير إلى حد ما. أنت تمسك بشيء ما – شيء يعوق حريتك – وأنت لا تريد أن تتخلى عنه".

أخذ أندرو يحدق في الأخت باتريس مشدوهًا. لم يكن لديه فكرة عما كانت تعتقد أنه يمسك به، ولم يكن يعبأ بذلك. ولكن بدلاً من ذلك احتفل أندرو في تلك الليلة، بخروجه من المستشفى وبعيد ميلاده في آن واحد، بنفس الطريقة التي كان يحتفل بها بمعظم الأشياء.. بالشراب حتى ينسى مَن هو أو أين هو.

كانت الرحلة البحرية إلى هولندا مختلفة تمامًا عن الرحلة إلى جزر الهند الشرقية الهولندية منذ ثلاث سنوات مضت. كان عدد كبير من الناس المسافرون على ظهر السفينة يعانون من إصابات بالغة، ولم يتبادل أيهم الحديث مع الآخرين أثناء تناول وجبات الطعام. كان أندرو يفهم معنى ذلك الصمت. لم يكن لدى الناس الكثير الذي يتحدثون عنه. كان متأكدًا أنهم، نظيره، يفكرون جميعًا في أنهم قد فشلوا

في مهمتهم في الحفاظ على إندونيسيا كمستعمرة هولندية. وفي حقيقة الأمر، قبل أن يبحروا من جاكرتا بأربعة أيام، خضعت الحكومة الهولندية تحت ضغط من الأمم المتحدة ووافقت على منح الحرية لإندونيسيا. وكنتيجة لذلك، فإن الچنرال سبور، الحاكم الهولندي لإندونيسيا، قدم استقالته من منصبه.

حالما رست السفينة في روتردام، انتشرت الأنباء بأن الچنرال سبور قد مات نتيجة لنوبة قلبية. بدا مثيرًا للسخرية في نظر أندرو أنه في نفس اليوم الذي رجع فيه لأرض الوطن كجندي "مرفوع الرأس"، تركز انتباه الأمة على موت الچنرال والهزيمة المذلة في إندونيسيا.

عند وصوله إلى روتردام، مُنح أندرو الإذن بالعودة إلى قريته قبل الذهاب إلى وحدة إعادة التأهيل التي كلفها الجيش بمتابعة حالة ساقه المصابة.

هناك في "سانت بانكراس"، كان كل شيء يمضي كما تركه أندرو من قبل، مع أن صفًا جديدًا من أشجار الدردار كان ينمو على طول الطريق المرتفع عبر الأراضي المنخفضة. كانت أول شخصية رآها أندرو هي أخته جلتج.

عندما لمحت جلتج أندرو من النافذة، اندفعت عبر الجسر الصغير لتلتقي به.. وسرعان ما كان أندرو في منزل "فان دير بيجل"، وسط عائلته بعد أن تم تقديمه لزوج أخته الجديد آري ولخطيبة بن.

بعد أن رحب به الجميع في البيت، سألته مارتيج أخته الأخرى: "هل تريد أن ترى قبر ماما؟"

أومأ أندرو رأسه بالموافقة. كان ذلك هو ما أراد أن يفعله أكثر من أي شيء آخر، ولكن ساقه كانت تؤلمه كثيرًا من المشي من محطة الحافلة إلى البيت لدرجة أنه كان يخشى ألا يتمكن من الذهاب إلى المدفن.

قالت مارتج: "يمكننا أن نستخدم دراجة بابا، إذا أردت".

أومأ أندرو رأسه بالموافقة، ووقف بتصلب، وتبع مارتيج إلى الخارج، وهو يستند بشدة على عصاه. أخذ يمشي بالدراجة نحو الطريق المرتفع. ألقى بساقه اليمنى فوق الدراجة حتى تستند على القضيب المستعرض "الكادر". ثم قفز أندرو مقابل الدراجة بساقه اليسرى، جاعلاً الدراجة تحمل ثقل ساقه المصابة. لم تكن تلك طريقة أنيقة في التنقل، وشعر أندرو بارتياح لأن المسافة إلى مدفن القرية لا تتجاوز

٥٠٠ ياردة. إذ لم يرد أن يراه أحد في الطريق يستخدم الدراجة بتلك الطريقة الغريبة.

في المقبرة لم تكن الأعشاب نمت بالكامل لتغطي قبر والدته، وكانت هناك مزهرية صغيرة تحمل زهورًا حديثة العهد فوق القبر. بينما كان أندرو يحملق في القبر، راح يفكر في المرة الأخيرة التي رأى فيها أمه. هل كان من الممكن أن يكون هو ذلك الشاب المليء بالأمل والشجاعة، متصورًا أن الحرب – أي حرب – ما هي إلا نوع من المغامرة الكبرى؟

كان لدى أندرو الكثير من الأشياء التي أراد أن يقولها لأمه، ولكنه شعر بعدم الارتياح لقولها أمام مارتيج. لذا عزم أن يعود سريعًا إلى المقبرة. في تلك الليلة بعدما أجاب أندرو على كل الأسئلة السهلة عن المعيشة في إندونيسيا وأجاب كرنيليوس عن عادات الجيبون، انطلق أندرو وحده متجهًا نحو المقبرة، وعندما وصل إلى هناك، جلس وبكى.

قال أندرو: "لقد فعلتُ أشياء لن أصفح لنفسي أبدًا عنها.. أشياء ما كنت لتتخيلي أن ابنك يستطيع أن يفعلها. ماما.. ساعديني. أحتاج أن أجد طريق الرجوع، ولكني لا أعتقد

أني سأجده. ما الذي سأفعله بحياتي؟"

كان أندرو يأمل في عقله الباطني أن تحقق لـــه لحظـــة الجلوس بجوار قبر أمه السلام وتمنحه الإجابـــات. ولكنـــه سرعان ما اكتشف عدم وجود أي منهما. بعد ساعة ونصف، مسح الدموع من عينيه وقطع طريق العودة إلى البيت بنفس الطريقة: نصف راكب ونصف ماشي.

في اليوم التالي تناول أندرو طعام الإفطار مع عائلته ثـــم قرر أن يواجه القرية. أخذ أندرو يستند بشدة على عصاهِ (لم يحب أن يراه أحد مستخدمًا عكازيه)، ثم أخذ يعـــرج فـــي الطريق المرتفع. كان الناس الذين التقى بهم علـــى طـــول الطريق قد عرفوه طوال حياته، ومع ذلك عندما حيوه، كانوا يعاملونه بأدب ولكن بشيء من التباعد. كان الحديث بيـــنهم وبينه قصيرًا. سألوه عن المكان الذي أصيب فيه في ســـاقه، ولكن دون أن يسألوه عن كيفية حدوث ذلك. لم يذكر أحـــد آخر الأخبار بأن القوات الهولندية المتبقيـــة كانـــت تـــستعد للجلاء عن إندونيسيا.

كان أندرو يشعر بالحرج عند الحديث مع عائلتـــه ومـــع الناس الذين التقى بهم في القرية عن تجاربه، ولكنـــه كـــان

يتوق لشخص ما يجري معه حديثًا جادًا. ثم وجد نفسه بطريقة ما يمشي نحو منزل ويسترا. حيا السيد والسيدة ويسترا أندرو كابنٍ طال غيابه عنهما. أسرعت السيدة ويسترا لتعمل القهوة والكعك المدهون بالزبدة، بينما أمطر السيد ويسترا أندرو بالأسئلة.

شعر أندرو بالارتياح لأنه وجد شخصًا أبدى اهتمامًا حقيقيًا بما اجتاز فيه من تجارب، علاوة على الاهتمام بفقدان إندونيسيا. وبعد عدة دقائق، توقف السيد ويسترا ثم سأل: "إذًا، يا أندرو هل هذه هي المغامرة الكبرى التي كنت تبحث عنها؟"

أجاب أندرو بالقول: "كلا" وهو يشعر بالإحراج لتذكره مدى الإثارة التي شعر بها قبلاً تجاه الالتحاق بالجيش.

قال السيد ويسترا وهو يربت على ظهر أندرو: "حسن إذًا. علينا فقط أن نواصل الصلاة لأجلك، أليس كذلك؟"

نظر أندرو إلى أسفل إلى ساقه اليمنى المعاقة وضحك بمرارة وهو يقول: "لم يعد هناك المزيد من المغامرات في مستقبلي".

مضى الحوار فاترًا بعد ذلك، وشعر أندرو بالندم لتعليقه

الأخير. في أعماقه كان يتوق أندرو للتحدث إلى شخص ما عن حياته، أو ما تبقى منها. ولكنه لم يستطع أن يكون صريحًا بشأن مخاوفه تجاه المستقبل. بدلاً من ذلك تمتم ببعض الأعذار وغادر منزل ويسترا.

قال السيد ويسترا بينما كان أندرو يهم بالرحيل: "تعال ثانية وزرنا قريبًا". ولكن أندرو لم يكن متأكدًا إن كان سيأتي مرة أخرى أم لا. كانت عائلة ويسترا تعامله بلطف شديد على الرغم من كل الأشياء التي عملها.

بينما كان أندرو يعرج في الطريق، وهو يتكأ بشدة أكثر على عصاه، أخذ يتساءل عمَن يزوره بعد ذلك. لقد طرأ على ذهنه فجأة "كيس"، صديقه منذ وقت المقاومة ضد النازية. تذكر أندرو كيس كشاب ثائر وجرئ. قال أندرو لنفسه: "لا شك أنه إذا أراد أي شخص أن يستمع إلى قصص عن غارات الفدائيين والكمائن في إندونيسيا، فإنه سيكون كيس" عندما وصل أندرو إلى المنزل اقتادته أم كيس إلى الدور العلوي حيث توجد حجرة نوم كيس.

أخذ أندرو يمشي تارة، ويسحب نفسه إلى أعلى السلم تارة أخرى. وجد أندرو كيس منكبًا على كتاب، في دراسة

جادة. حيا كيس أندرو بحرارة وأفسح له مكانًا على السرير ليجلس عليه. بعد لحظات قليلة حرجة، سأل أندرو كيس عما كان يدرسه.

قال كيس، وهو يمسك بتفسير للكتاب المقدس: "لقد اكتشفت ما أريد أن أفعله بحياتي".

شعر أندرو بابتسامة مصطنعة ترتسم على وجهه. وسأله: "ماذا؟" مع أنه كان قد خمن بالفعل الجواب.

أعلن كيس بحماس: "سوف أصبح خادمًا للإنجيل".

كان هناك صمت أطول في الوقت الذي حاول فيه أندرو التفكير في شيء يقوله. أراد أن يصرخ قائلاً: "ولكن يا كيس، لقد كنت شجاعًا للغاية.. مثلي الأعلى وقت صباي. لا تلق بحياتك بعيدًا في حضن الديانة!" ولكنه بدلاً من ذلك استأذن لينصرف وأخذ يجر رجليه وهو ينزل درجات السلم ويخرج من الباب. وتمتم بكلمة وداع لأم "كيس" وهو ينصرف.

في طريق العودة على الطريق المرتفع، شعر أندرو بضغط كاسح جعل صدره ينقبض. لا شيء كان يسير وفق توقعاته. كان معظم الناس مهذبين، على الرغم أنهم لم

يهتموا بخبراته.. والوحيدون الذين اهتموا لأمـــره أرادوا أن يتحدثوا إليه عن الله. قضى أندرو ثلاث سنوات في إندونيسيا وهو يتوق للعودة إلى البيت، والآن فقد كان البيت هو آخـــر مكان على الأرض كان يريد أن يبقى فيه.

الفصل الثامن

التحرر من ذاته

شعر أندرو بالارتياح لوداع سانت بانكراس. كان الجيش قد رتب له برنامجًا خاصًا لإعادة تأهيله في مستشفى للمحاربين القدامى في دوورن، على بُعد ٦٠ ميلاً. وفي المستشفى تعجب أندرو لشعوره بالراحة للتواجد وسط شبان عانوا من تجارب مماثلة لما عاناه هو. لم يكن أحد يحملق في عصاه. وإذا أراد أحد أن يعرف ما أصاب ساقه، كان يسأل أندرو مباشرة ويستمع إليه دون أن تتلوى قسمات وجهه خلال الحوار.

كان أفضل شيء فيما يتعلق بدوورن بالنسبة لأندرو أنها كانت تقع في مكان ليس ببعيد عن جوركوم ومنزل ثايل. في أول إجازة أسبوعية له، اتجه أندرو مباشرة لمنزل ثايل. ولكن الأمور لم تبدأ على ما يرام. كانت الحافلة مزدحمة جدًا حتى أنه لم يكن بها سوى مكان للوقوف، ووقفت امرأة لتسمح لأندرو بأن يأخذ مقعدها. ومع أنه كان يعرف أنه لا يستطيع أن يقف طوال الطريق، إلا أنه شعر بالمهانة للتفكير

في منظره العاجز.

وعندما وصل أندرو أخيرًا إلى بيت ثايل، ساءت الأمور أكثر. على الرغم من أنه تخيل كثيرًا لحظة اللقاء الرائعة مع ثايل، إلا أن اللقاء كان متوترًا في حقيقة الأمر. أرادت ثايل أن تعرف كيف يمضي أندرو في قراءته الكتاب المقدس، واضطر أندرو أن يعترف أنه لم يمسك بالكتاب المقدس منذ وصوله إلى أرض الوطن. شعرت ثايل بالإحباط. سألته: "يا أندرو، إن الله يريد أن يقلب حياتك رأسًا على عقب ويشكلها من جديد. لماذا لا تدعه يفعل ذلك؟"

كان ذلك سؤالاً قد يطرحه السيد ويسترا، ولكن أندرو لم يكن في حالة مزاجية تتيح له التفكير في حالته الروحية. ومع أن أندرو أراد أن يرد على السؤال بشيء من الفكاهة، إلا أنه بدلاً من ذلك ظل عابسًا. كان يبدو أن كل واحد كانت لديه فكرة أو خطة ما "لجعله في حال أفضل". ومع ذلك فعلى الرغم من المسارات غير المتوقعة في حوارهما، إلا أن أندرو استمتع بزيارته لثايل ووعد أن يعود لرؤيتها مرة ثانية عند حصوله على إجازة في المرة التالية. ولكن كان لابد من مرور عدة أسابيع قبل أن يتمكن أندرو من الحصول

على إجازة أخرى، ولذلك فقد اكتفى بالكتابة إلى ثايل.

بعد مرور شهر على زيارته لثايل، مر أندرو في اختبار لم يستطع أن يعبر عنه بالكلمات. كانت البداية، عندما جاءت شابة شقراء اللون إلى عنبره في مستشفى المحاربين. دعت المرأة أندرو والعشرين رجلاً الآخرين الذين كانوا يشاركونه العنبر لحضور اجتماع نهضة في تلك الأمسية، وقالت أنه تم تدبير حافلة لنقل أولئك الذين يريدون الذهاب إلى منطقة الاجتماع. أطلق الشبان صفارات الاستحسان وهي تغادر العنبر ووعدوا أن يحضروا إلى الاجتماع. والمثير للدهشة، أنه بحلول الساعة السادسة والنصف مساءً، كان جميع الرجال في العنبر يرتدون أفضل الثياب وينتظرون في صف واحد عند باب المستشفى لحين وصول الحافلة.

كان أندرو وصديقه باير، الذي كان يشغل السرير المجاور له في العنبر، يقفان في آخر الصف. في وقت سابق من بعد ظهر ذلك اليوم كان باير قد تسلل إلى المدينة واشترى زجاجة جن، والآن كان هو وأندرو يقفان في الصف، ويرتشفان جرعات كبيرة من الزجاجة. وعند وصول الحافلة في الساعة السابعة لاصطحاب الرجال، كان

أندرو يشعر بطنين الكحول الحار المسبب للانشراح يحيط به.

ظل أندرو وباير يرتشفان الچن خلال رحلة الحافلة التي أقلتهم إلى أطراف المدينة، حيث كانت هناك خيمة كبيرة مقامة لأجل الاجتماع. في داخل الخيمة وجد أندرو وباير مقعدًا في المؤخرة وقد أفرغا زجاجة الخمر من محتوياتها في الوقت الذي كانا ينتظران فيه بدء الخدمة.

بدأت الخدمة عندما اعتلى المنصة رجل ذو عينيين غائرتين ووجه هزيل. بدا وجه الرجل لأندرو مثل الفأر، فبدأ يضحك بصوت عالٍ. اشترك باير معه في الضحك، وكان الرجلان لا يزالان يقهقهان عندما انتهت الترنيمة الافتتاحية. لم يكن لدى أندرو فكرة عن مدى التشويش الذي أحدثه سلوكه وسلوك باير حتى أعلن الرجل ذو الوجه الذي يشبه الفأر قائلاً: "إخوتي وأخواتي، لدينا هنا رجلان الليلة مقيدان بقوى عالم مظلم". وبدأ الرجل بعدئذ يصلي بصوت عالٍ لأندرو وباير.

بينما كان الرجل يصلي، حاول أندرو أن يتحكم في ضحكه حتى آلمه جانباه. وأخيرًا خسر المعركة وأخذ يقهقه

بصوت أعلى عن ذي قبل. كان في الواقع أعلى من صلاة الرجل ذي الوجه الذي يشبه الفأر. راقب أندرو في نشوة ناجمة عن احتساء الخمر فيما توقف الرجل المحبَط عن صلاته وأمر جوقة الترنيم بأن ترنم. وقف أفراد الجوقة وبدأوا يرتلون ترنيمة "أطلق شعبي".

عندما وصلت الجوقة إلى قرار الترنيمة، اشترك الجميع في الترتيل. ولكن كان أندرو وباير لا يزالان يضحكان دون ضابط. في الواقع، لم يستطع أندرو أن يتذكر وقتًا ضحك فيه من قبل إلى هذه الدرجة. كان جيدًا أن يضحك، حتى وإن كان الضحك بسبب الخمر.

واصلت الجوقة ترتيل العدد الثاني، ولكن عندما اشترك الجمهور في القرار، لاحظ أندرو شيئًا غريبًا. عندما أنشدوا بقوة "أطلق شعبي"، كان للكلمات فجأة تأثير منبِّه عليه. توقف أندرو عن الضحك واستمع إلى الكلمات التي كان الجميع من حوله يرتلونها. ولكن بدلاً من أن يسمع الكلمات "أطلق شعبي"، بدا لأندرو وكأنه يسمع الكلمات "أطلقني". وكأن أندرو كان يخاطب قوةً ما خارج نفسه.

كان أندرو يجلس صامتًا في رحلة عودة الحافلة إلى

المستشفى، وهو يتأمل في كلمات الترنيمة. مـــاذا يمكـــن أن تعني؟ ولماذا كانت تبدو وكأنها موجهة له؟

في صباح اليوم التالي استيقظ أندرو وهو يعاني من آثار المسكر. ولكنه استيقظ أيضًا ومعه شيء آخر.. رغبة عميقة لقراءة كتاب أمه المقدس. طوال ذلك اليوم كان يحمل الكتاب المقدس معه، يقرأه كلما وجد عنده وقـــت فـــراغ. ولفـــرط دهشته، أراد أن يقرأ المزيد في اليوم التالي، واليـــوم الـــذي يليه. سرعان ما وضع لنفسه جدولاً ليـــساعد فـــي إرشـــاده لقراءة الكتاب المقدس كله بصورة منتظمة.

نتيجة لقراءة الكتاب المقدس، استطاع أندرو أن يـــستمتع بزيارة أكثر إمتاعًا لثايل في المرة التالية التي رآهـــا فيهـــا. الآن كان يريد أن يناقش مع ثايل ما كان يقرأه في الكتـــاب المقدس، وقد استمتع بتعليقات ثايل وملاحظاتها. لقد استمتع بحواراته مع ثايل كثيرًا، لدرجة أنه قرر أن يطلب منهـــا أن تتزوجه بمجرد تسريحه من الجيش وحصوله على وظيفـــة دائمة.

تم تسريح أندرو من الجيش ومن مركز إعادة التأهيل في نوفمبر سنة ١٩٤٩. أعطت الحكومة الهولندية لأندرو حصة

مالية صغيرة في مقابل إنهاء خدمته بالإضافة إلى أوراق إخلاء طرفه. استعمل أندرو النقود لشراء دراجة. عملت أسابيع إعادة التأهيل على زيادة القوة في ساقه اليمنى، ولكن كان لا يزال أمامه طريق طويل حتى يمشي دون أن يعرج. قرر أندرو أن ركوب الدراجة هنا وهناك سوف يعمل على تقويه ساقه، بالإضافة إلى أنها سوف تأخذه إلى الأراضي المستصلحة من البحر والتي كان يحب كثيرًا أن يجري فوقها.

وحيث أن أندرو لم يكن لديه مكان آخر ليذهب إليه بعد خروجه من المستشفى والجيش، فقد عاد إلى مسقط رأسه في "سانت بانكراس" وقضى معظم وقته مع أبيه. ومع أن أندرو لم يكن لديه وظيفة، إلا أنه استطاع أن يشغل وقته، فكان يحضر خدمة كل ليلة بالكنيسة، وخدمتين في أيام الآحاد. كانت بعض الخدمات في الكنيسة المصلحة في "سانت بانكراس".. بينما كانت الأخرى، مثل خدمة جيش الخلاص في الكمار، واجتماع الصلاة المعمداني في أمستردام، تحتاجان إلى ركوب الدراجة مسافة طويلة. لم يكن أندرو يهتم بالطائفة التي كان ينتمي إليها الناس طالما

كانوا يؤمنون بالكتاب المقدس ويريدون أن تكون لهم شركة معه. كان في الخدمات التي يحضرها يدون مذكرات دقيقة خلال العظات، وكان يراجعها في اليوم التالي وهو يقرأ كل الفقرات الكتابية المذكورة، ويتأمل في معناها ومعنى العظة لحياته.

كان أفراد عائلة "فان دير بيجل" أعضاء مخلصين في الكنيسة الهولندية المصلحة، ولم يسعدهم عادة أندرو في حضور أية كنيسة. في البداية كان أندرو غافلاً عن مخاوفهم، حتى أحضرت له أخته مارتيج يومًا ما كوبًا من الشاي، وكان أندرو جالسًا على سريره يقرأ مزمورًا.

قالت مارتيج بخجل: "يا أندرو، أعلم أنك قد عانيت الكثير. ولا أريد أن أجرح مشاعرك، ولكني قلقة بشأن مقدار الوقت الذي تقضيه في حجرة نومك. ليس ذلك شيئًا عاديًا. هذا بالإضافة إلى كل تلك الرحلات التي تقوم بها للكنائس على دراجتك. أنت لم تكن معتادًا على الذهاب إلى الخدمة ولو مرة واحدة في يوم الأحد، والآن فأنت تذهب كل يوم! ألا تعتقد أن ذلك شيء مُبالغ فيه؟"

حملق أندرو في أخته وهو يقول لها: "كل ما هناك أني

اشعر أنه يجب عليَّ أن أفعل ذلك، يا مارتيج. أنا أيضًا أود أن أعرف حقيقة ما يحدث لي".

تنهدت مارتيج قائلة: "كلنا قلقون، وأبي بنوع خاص.." أخذ صوتها ينخفض وهي تقول: "أبي يقول أنها صدمة عصبية".

لم يعرف أندرو ما يقوله بعد ذلك، ووضعت مارتيج كوب الشاي بهدوء وتركت الحجرة.

عندما استرجع أندرو سلوكه منذ وصوله إلى البيت من وحدة إعادة التأهيل، اضطر أندرو أن يعترف بأنه من المرجح أن الأمر كان يبدو غريبًا بالنسبة للناس. قال لنفسه: "ولكن هل أنا في خطر أن أصبح واحدًا من هؤلاء الأشخاص المهووسين دينيًا الذين يهذون في الشوارع في أمستردام؟ أو أني سوف أصبح مثل عائلة ويسترا، أقتبس الآيات الكتابية لكل مناسبة. هل هذا ما أنا مقبل عليه؟" كانت هذه أسئلة منبهة وقد أصبح شاي أندرو باردًا وهو يتأمل فيها. كل ما كان يعرفه أنه كان يشعر بأنه لا يستطيع مقاومة شركة المؤمنين كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قرر أندرو أن يناقش مخاوف عائلته مع ثايل: لاشك أنها

ستعرف ما يمكن عمله. ولكن ثايل قد برهنت على أنها كانت بعيدة كل البعد عن القدرة على مواساته.

قالت ثايل: "لقد كنت أتساءل عن ذلك أيضًا، يا أندي! كل ما في الأمر أني لم أعرف كيف أتطرق إلى ذلك الموضوع".

سأل أندرو: "ماذا تقصدين؟"، وهو يعتقد أنه إذا كانت ثايل تفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها أفراد عائلته، فلابد أنه شخص غير عادي بأكثر مما كان يتصور.

واصلت ثايل حديثها وهي تشعر بالإحراج قائلة: "أنا أعلم أنك لابد أن تتعلق بشيء ما الآن بعد عودتك من الجيش، ولكن هل لابد أن تكون شديد التعصب تجاه ذلك الموضوع؟ ليس هناك ما يدعو لأن ترهق نفسك. لماذا لا تقرأ كتبًا أخرى في بعض الأحيان أو تذهب إلى السينما معي؟"

على الرغم من اقتراح ثايل، إلا أن أندرو اكتشف أنه لا يمكن أن يربك نفسه بعمل أشياء أخرى. لقد كان يحب أن يقرأ الكتاب المقدس، ويصلي، ويذهب إلى الكنيسة. لا شيء آخر كان يشد انتباهه أكثر من ذلك. وعندئذ، في إحدى الليالي، وبعد الاحتفال برأس سنة ١٩٥٠، تعرض أندرو

لاختبار أقنعه بأنه كان على الطريق الصحيح.

كانت ليلة باردة وعاصفة. كان الريح يعوى حول منـزل "فان دير بيجل"، وكان الصقيع يسقط أفقيًا فوق الأرض المستصلحة من البحر. كان أندرو يرقد في الفراش وهو يشد البطاطين بشدة تحت ذقنه ليشعر بالدفء. وبينما كان يحملق في السقف المُظلم، أخذت القصة التي روتها له الأخت باتريس قبل مغادرته لإندونيسيا – وبخاصة كلماتها عن أن القرد لا يتخلى عن شيء – تغزو ذاكرته. أخذ يفكر أيضًا في كلمات الترنيمة التي سمعها في الاجتماع الانتعاشي في دوورن: "أطلق شعبي". سأل أندرو نفسه: "ما الذي أنا متعلق به؟" وعندئذ جاءت الإجابة فجأة له.. كان عليه أن يتخلى عن ذاته. كان عليه أن يضع حياته بالكامل وكلية بين يدي الله. وبهدوء، في صوت أعلى قليلاً من الهمس، فتح أندرو فمه وصلى: "يا رب، إذا أريتني الطريق، سوف أتبعك. آمين".

هذه الصلاة البسيطة أدت إلى تغييرات فورية في حياة أندرو. ولأول مرة منذ سنوات، شعر أندرو بالطهارة بداخله، كما لو كان عقله قد تم تنظيفه تمامًا. لم يستطع أن

ينتظر ليخبر شخصًا ما عن اختباره، والأشخاص الوحيدون الذين كان أندرو متأكدًا أنهم سوف يفهمون ما حدث له كانوا عائلة ويسترا وكيس. ذهب أندرو وأخبر السيد والسيدة ويسترا عن اختباره، فكانا كلاهما مسرورين لأجله. كان كيس أيضًا مسرورًا لهذا الخبر، وطلب من أندرو أن يصبح شريكه في الصلاة ودراسة الكتاب المقدس.

في ربيع سنة ١٩٥٠، عندما بدأت الزنابق تشق الأرض الندية، قرر أندرو وكيس أن يذهبا إلى أمستردام معًا لسماع كارز هولندى مشهور يدعى آرن دونكر. كان أندرو مندهشًا بسبب مقدار استمتاعه برسالة الراعي دونكر، خاصة وأنه كان يشعر بالغربة في وسط هذا الحشد الكبير. ولكنه بدأ يشعر حقًا بعدم الارتياح عندما أعلن الراعي دونكر قائلاً: "لديَّ إحساس بأن شيئًا فريدًا سوف يحدث هنا الليلة. شخص ما في هذا الجمع سوف يهب نفسه ليكون كارزًا".

اختلس أندرو نظرة إلى كيس، وتلاقت عيونهما في نفس الوقت. علم أندرو أنهما كانا يفكران سويًا في نفس الشيء: دعنا نخرج من هنا قبل أن يحدث شيء غريب.

دون أن ينطقا بكلمة وقف كلاهما وشقا طريقهما إلى

نهاية الصف. ولكن عددًا كبير من الناس التفت لينظر إليهما بترقب، فعاود كلاهما الجلوس في المقاعد الخالية في نهاية الصف.

همس كيس في أذن أندرو بالقول: "يستحسن الانتظار حتى ينتهي كل ذلك".

لم يتحرك أي شخص آخر في القاعة، ولكن آرن دونكر لم يتوقف، بل قال: "هناك حياة خطر دائم ومخاطرة تنتظر أن يطالب أحدهم بها الليلة.. شاب، على ما أعتقد".

نظر أندرو إلى الأمام مباشرة، ودون التفكير في ما كان يفعله، وقف على قدميه. وقف كيس أيضًا، وسارا تجاه مقدمة القاعة.

سمع أندرو الراعي دونكر يقول: "ها أنتما، ليس واحد بل اثنين! شيء رائع. تعاليا إلى الأمام".

بدا الممر ممتدًا إلى ما لانهاية، ولكن أندرو وكيس لم يتوقفا حتى وصلا إلى مقدمة القاعة.

قال الراعي دونكر: "اركعا، يا ولديَّ. أريد أن أصلي لأجلكما".

ركع أندرو وكيس طائعين، وبدأ الراعي دونكر يصلي.

مع أن أندرو لم ينتبه إلى صلاة الراعـي، إلا أنـه سـمع التعليمات التي أعطاها الراعي بعد الانتهاء من الصلاة: "لا ترحلا حتى أتحدث إليكما أنتما الاثنين".

بدت الحادثة كلها غريبة وغير واقعية وكالحلم بالنسبة لأندرو، بينما كان يجلس في الصف الأمامي في الوقت الذي كان يرتل فيه الجمهور الترنيمة الختامية. عندما انتهى الاجتماع ووقف الجميع للانصراف، أراد أندرو أن يقف أيضًا ويختفي وسط الجمع. ولكنه شعر أنه مُجبر على البقاء في مكانه في انتظار أن يبتعد الراعي عنْ الأفراد المحيطين به والذين كانوا يمطرونه بالأسئلة.

أخيرًا، عندما أصبحت القاعة شبه خالية، انطلق الراعـي دونكر إلى مقعد الصف الأمامي، ووجه إليهما هذا السؤال: "إذًا ما اسميكما؟"

أجاب أندرو بسرعة: "أندرو وكيس"، وهو يأمل أن يتجنب استعمال الاسمين الأخيرين أو ذكر أي تفاصيل أخرى، كالمكان الذي أتيا منه.

قال الراعي: "عظيم. أندرو وكيس.. اسمان جميلان. هل أنتما الاثنان على استعداد للاستجابة لأول تكليف؟"

شعر أندرو بالألم في تجويف معدته. لم يكن يعرف لماذا مشى إلى المقدمة، ولكنه كان متأكدًا مائة في المائة ١٠٠% أن ذلك لم يكن ليصير كلعبة في يد الراعي دونكر!

سأل الراعي: "من أين أنتما؟"

تمتم أندرو بالقول: "سانت بانكراس"

"كلاكما؟"

أومأ كيس رأسه بالموافقة.

"حسن ... حسن. إنه شيء كتابي أن تعملا معًا كاثنين. إن النموذج بالعهد الجديد هو أن يبدأ الرسل في مسقط رأسهم، وأن يكرزوا بالإنجيل ثم ينتقلوا إلى الخارج من هناك".

ابتسم أندرو على استحياء، وهو خائف مما سوف يسمعه بعد ذلك.

"إذًا هذا ما سوف تفعلانه. على كليكما أن تعدا شهادة قصيرة، وسوف آتي إلى سانت بانكراس السبت القادم. في الواحدة ظهرًا، سوف تعقدا اجتماعًا في الهواء الطلق خارج منزل العمدة. سوف أكون هناك لمؤازرتكما وتقديم بعض الأفكار الختامية القليلة".

شعر أندرو بأن الدم ينضب من وجهه. فإذا كانت عائلته تعتقد أنه يتحول إلى متدين متعصب من قبل، فما الذي يمكن أن يفكروا فيه عندما يبدأ في التبشير في الشارع.. وليس مجرد أي شارع، بل الشارع الرئيسي في "سانت بانكراس"!

كان أندرو يريد أن يقول "لا" أكثر من أي شيء آخر. لا.. لن يجعل من نفسه شخصًا أحمقًا. لا.. لن يعد شهادة. لا.. لم يقصد حتى أن يذهب إلى الأمام. ولكن على الرغم مما بذله من محاولات، فإنه لم يستطع أن يخرج كلمة "لا" من فمه. بدلاً من ذلك وجد أندرو نفسه يومئ بالموافقة ويعطي لآرن دونكر عنوانه.

خرج أندرو وكيس من القاعة في صمت مذهل. كان أندرو يتمنى أن يتكلم كيس، وكان واثقًا أن كيس كان يتمنى منه أن يفعل نفس الشيء. ولكن لم يتكلم أي واحد منهما بشيء، وقد أصبحا الآن غير قادرين على الحركة أو تغيير الاتجاه. قال أندرو لنفسه وهما يشقان طريقهما إلى البيت: "سوف لا أتحدث بشأن هذا الأمر بقدر الإمكان. سوف لا أدعو شخصًا واحدًا لحضور الاجتماع، ولو كنا محظوظين، فربما لن يلحظ أحد شيء ما".

الفصل التاسع

الاتجاه نحو مغامرة مجهولة

عندما اقتربت الساعة الواحدة يوم السبت، شق أندرو طريقه إلى الميدان أمام منزل العمدة. اعتصره الخوف عندما رأى الجموع.

قال واحد من الجيران لأندرو وهو يندفع وسط الجمهور: "سمعنا أنك أنت وكيس سوف تتحدثان. لم يسبق أن فعل أحد في القرية شيئًا كهذا من قبل".

كان آرن دونكر قد أقام منصة صغيرة، وكان هو وكيس يقفان خلفها. صافح الراعي دونكر أندرو، وبعد صلاة قصيرة صعد إلى المنصة، حيث رحب بالجمهور وقدم كيس وأندرو. وبعدئذ دعا كيس ليخطو إلى الأمام ويتكلم. كان أندرو يستمع من وراء المنصة، ولكنه لم يستطع التركيز على أي كلمة قالها كيس. تكونت حبيبات من العرق البارد على جبينه. لم يشعر بمثل هذا الخوف في أي من المعارك الخطيرة التي خاضها في إندونيسيا. وكانت ركبتاه تصطكان.

أخيرًا انتهى كيس من حديثه، ودعا الراعي دونكر أندرو ليتقدم إلى الأمام ويتحدث. وجاءت اللحظة التي كان يخشاها كثيرًا، وتقدم أندرو إلى الأمام إلى حافة المنصة وهو يعرج. أخذ ينظر إلى الجمهور، وأخذت وجوه صارمة تحملق فيه. فجأة شعر أندرو بجفاف في الفم، واكتسى لسانه بطبقة رمادية اللون عندما بدأ يتكلم. بدأ أندرو يردد الشهادة التي كان قد كتبها وراح يحفظها عن ظهر قلب خلال الأسبوع السابق، ولكن الكلمات كانت تبدو بلا طعم وتفتقد إلى الحياة بالنسبة له، كما لو كانت لا تصل إلى آذان الجمهور. قرر أندرو أن يترك الشهادة المُعدة من قبل ويرتجل الكلمات من داخله.

بدأ هكذا: "لقد فعلت أشياء مريعة عندما كنت في جزر الهند الشرقية، أشياء لست فخورًا بها. وعندما وصلت إلى أرض الوطن، شعرت بالضياع. لقد أحسست بقذارة ما بداخلي وأحسست بالذنب تجاه الأشياء التي فعلتها. لقد كان يبدو كما لو كانت هناك قيود تحيط بي".

عندما بدأ أندرو يتكلم من قلبه، أحس بأن الخوف يفارقه. ولاحظ أن النظرات الصارمة على الوجوه التي تحملق فيه

بدأت حدتها تخف، بل إن بعض الناس كانوا يبتسمون لــه، وكان البعض الآخر يومئون رؤوسهم بالموافقة.

قال أندرو: "لقد بحثت عن الحرية، عن شيء ما لتغيير ما كنت أشعر به بالداخل. وفي ليلة عاصفة في شــهر ينــاير وجدت الحرية التي كنت أبحث عنها. وجدتها عندما ألقيــت بثقل ذنبي وعاري عند قدمي يسوع وسلمت نفسي له".

عقب اجتماع الهواء الطلق، رمق عدد قليل من الناس في القرية أندرو بنظرات غريبة، ولكنه لم يأبه لذلك. لقد أدرك أنه من المرجح أنهم كانوا يتوقعون أن يفعل شــيئًا "أحمقًــا" كهذا في النهاية. ولكن لفرط دهشته أنــه عنــدما اســترجع اختباره، أضطر أندرو أن يعترف بينه وبين نفسه أنــه قــد استمتع بمشاركة إيمانه مع الآخرين إلى حد كبير، لدرجة أنه بدأ يبحث عن طريقة ليصبح كارزًا.

ما أن فهمت ثايل أن أندرو كان جادًا بــشأن أن يــصبح كارزًا، حتى قدمت له يد المساعدة بكتابة الخطابات التي كان يستفسر فيها عن الطريقة التي يمكن أن يصبح بها كــارزًا لدى الكنيسة الهولندية المصلحة. كانت جميع الإجابات التي تلقاها على خطاباته تسير في نفس الاتجــاه. كــان أنــدرو

بحاجة للذهاب إلى كلية لاهوت وأن يصبح خادمًا مرسومًا. وعندما يصبح خادمًا مرسومًا، عليه أن يعمل في كنيسة لعدة سنوات ثم يبحث عن منصب كارز. ولكن لأن أندرو لم يلتحق بالمدرسة الثانوية، فإن هذه الرحلة ليصير خادمًا مرسومًا كانت تعني ١٢ سنة من الدراسة.

شكَّل هذا عبئًا كبيرًا على أندرو. أخذ يعد السنوات، فأدرك أنه سيحل عام ١٩٦٢، وسوف يبلغ من العمر ٣٤ سنة على الأقل قبل أن يصبح خادمًا مرسومًا. لم يكن بمقدوره أن ينتظر طوال تلك المدة لكي يباشر دعوته. ومع ذلك فعندما شرح أندرو ذلك للناس، سألوه عما كان مدعوًا للقيام به، وأين يمكنه القيام بتلك الدعوة. ولكنه لم يستطع الإجابة على أسئلتهم.

على الرغم من أن أندرو أحس بدعوة عامة للسير في طريق الله وأن يقوم بعمل شيء ما، إلا أنه لم يكن واثقًا من ماهية تلك الدعوة وأين ستكون. إن فكرة كونه كارزًا بدأت تتعثر، وقرر أندرو أن يحصل على وظيفة في الوقت الذي يصلي فيه أكثر بشأن الموضوع ككل.

كان مصنع الشيكولاتة في الكمار، حيث يعمل آري زوج

جلتج أخته، في حاجة إلى عمال. فقدم أندرو طلبًا للحصول على وظيفة هناك. وعُيِّن في وظيفة تسليم البضاعة، حيث يقوم بدفع عربة صغيرة مليئة بالشيكولاتة من غرفة التجميع إلى رصيف الشحن. اتضح أن مصنع الشيكولاتة كان حقلاً مرسليًا في حد ذاته، وسرعان ما كان أندرو يساهم في تنظيم اجتماعات الصلاة بين العمال وكان يقوم بأخذ العديد من زملائه العمال معه إلى الاجتماعات في الإجازة الأسبوعية. وللاحتفاظ برؤيته المرسلية نابضة بالحياة، اشترى أيضًا كتبًا لاهوتية ودرسها وبدأ يأخذ دروسًا في اللغة الانجليزية عند السيدة "ميكل"، المعلمة في القرية.

وفي الإجازات الأسبوعية كان أندرو يزور ثايل، التي كانت تشجعه وتمتدحه لأجل كل التغييرات الجيدة التي كان يعمل على إدخالها إلى المصنع. ولكن على الرغم أنه لعب دورًا في تغيير الجو في مصنع الشيكولاتة وشهد تجديد العديد من الشابات القساة القلب هناك، إلا أن أندرو كان يعرف أن هناك خللاً ما. صحيح أن مصنع الشيكولاتة كان حقلاً مرسليًا، ولكنه لم يكن حقله المرسلي. كان هناك مكان ما ينتمي إليه، وبعد مضي سنتين من العمل في المصنع،

أصبح يشعر بالإحباط لعدم العثور على ذلك المكان.

بدت فكرة أن يكون كارزًا تابعًا للكنيسة الهولندية المصلحة أكثر إرباكًا عن ذي قبل. وقرر أندرو أن يبحث عن إرساليات أخرى يمكن أن تقبله ككارز. لم يستطع أن يعرف السبب الذي لم يجعله يفعل هذا من قبل، سوى أن ثايل كانت تعترض على خروجه عن دائرة كنيستهما المصلحة.

كما حدث بعد ذلك، فقد دُعي أندرو لسماع كارز من حركة الكرازة العالمية. ذهب إلى هناك وهو يتوقع أن يسمع عن الفرص التبشيرية في كل أنحاء العالم، وهذا ما حدث فعلاً. ولكن المتكلم، وهو رجل انجليزي يدعى السيد جونسون، أوضح أيضًا أن مرسلي حركة الكرازة العالمية كانوا يعيشون بالإيمان. كان السيد جونسون يقصد بذلك أن المرسلين التابعين لتلك المنظمة لم يتلقوا أي دخل من أي كنيسة أو منظمة أخرى، ولكنهم كانوا يصلون ويطلبون من الله أن يسدد احتياجاتهم.

كان أندرو مهتمًا بكل ما قاله السيد جونسون حتى سمع تلك المعلومة. وفجأة وجد عقله يسرح بعيدًا ليفكر في جميع

الناس الذين عرفهم وكانوا يعيشون بالإيمان. كان مثل هؤلاء الناس يُشعرونه بعدم الارتياح حين يتواجد معهم ، ويجعلوه يشعر بالذنب إذا أنفق أي مبلغ مالي أو ارتدى سترة لا بأس به. كذلك كانوا متخصصين في "التلميح" عـن احتياجـاتهم المادية. أخذ أندرو يقول لنفسه عندما انتهى الاجتمـاع: "إن ذلك أبعد ما يكون عن الثقة بالله".

في الأمسية التالية، ذهب أندرو لركـوب الدراجـة مـع كيس. وبينما كانا يركبان معًا، أمطر كيس أندرو بوابل من الأسئلة عن حركة الكرازة العالمية.

لم يكن لدى أندرو الكثير من الإجابات التي تمكنـه مـن الرد عليه، واعترف أنه قد كف عن الاهتمام بها عندما علم أن مرسلي حركة الكرازة العالمية يعيشون بالإيمان. ولكن، بما أن كيس كان لديه عنوان تدريب الهيئة فـي جلاسـجو باسكتلندا، فقد اقترح أندرو أن يراسلهم كيس بنفسه.

وهذا ما فعله كيس بالفعل. ولفرط دهشة أندرو، فإن كيس قدم طلبًا للانضمام إلى الحركة وقُبِل أيضًا من قِبَلِهـا لكـي يتدرب ككارز. حدث كل شيء بسرعة فائقة، وسرعان مـا كان كيس في طريقه إلى اسكتلندا للتدريب.

كان كيس يكتب إلى أندرو كل أسبوع، ويصف له البرامج الدراسية والتدريب العملي الذي يأخذه، والشركة المسيحية الرائعة التي كان يستمتع بها. سرعان ما اقتنع أندرو أنه يجب أن يذهب هو أيضًا. قدم طلبًا إلى حركة الكرازة العالمية. وكان الرد الذي تلقاه سريعًا ومشجعًا. نعم، إن حركة الكرازة العالمية سوف تقبل أندرو في دفعة مايو سنة ١٩٥٣. لم يكن الموعد المحدد سوى بُعد أسابيع قليلة، وسرعان ما أبلغ أندرو جهة العمل باستقالته وباع كتبه ودراجته.

قام أندرو بزيارة سريعة إلى "جوركوم" لكي يخبر ثايل بالنبأ شخصيًا. لم تكن ثايل مسرورة لذلك. فبالنسبة لها، أي شيء لا تؤيده الكنيسة الهولندية المصلحة يعد مضيعة للوقت، وقد أخبرته هذا صراحةً. ولكن أندرو كان يشعر بإثارة بالغة لا تسمح له بأن يشعر بالضيق بسبب رد فعلها. كان يعرف أن ثايل تحتاج بعض الوقت حتى تعتاد على الخطط الجديدة، وكان متأكدًا في النهاية أنها سوف ترى الأمور مثلما يراها.

كان يوم ٢٠ أبريل هو اليوم المقرر لإبحار أندرو من

روتردام إلى لندن. لم يبق ســوى أســبوع، وخــلال ذلــك الأسبوع حدثت ثلاثة أشياء غير متوقعة لأندرو.. وجميعهــا غير سارة!

الشيء الأول الغير متوقع جاء على شكل خطــاب مــن ثايل. أوضحت في خطابها أن راعيها قال لها أن الكنيــسة المصلحة لن تعترف بتدريب أنــدرو فــي هيئــة الكــرازة العالمية. وحيث أنه بدا أن أندرو لا يبالي بهذه الحقيقة، فهي لم تكن تريد أن تراه أو تسمع منه مرة أخرى.

شعر أندرو كما لو كان قد تلقى صفعة قوية على وجهه. راح يفكر في الأوقات السعيدة التي كان قد استمتع بها حينما كان يذهب إلى الكنيسة مع ثايل، وكيف كانت تبدو جميلــة وهي تودعه في نهاية زياراته. كانت أروع شخصية عرفها، والآن ها هي تضع حدًا لعلاقتهما. على الرغم من أنــه لــم يكن هناك ارتباط رسمي، إلا أن أندرو اعتقد أنها يومًا مــا سوف تكون زوجته. ولكن الآن بدا أن ذلــك ســوف لــن يحدث.

قبل أن تتاح لأندرو الفرصة للتقييم الصحيح لخطاب ثايل، الذي كان يُعد ضربة مريرة، جاءت الآنسة "ميكــل" وهــي

تعدو على طول الطريق المرتفع متجهة نحو الفناء الخلفي لمنزل "فان دير بيجل". قرعت على الباب الذي فتحه أندرو. وفي الحال انطلقت الآنسة ميكل تدلي باعتراف.

بدأت هكذا: "يا أندرو، أعتقد أنك بحاجة أن تعرف أنه لم يسبق لي أن سمعت أحدًا يتحدث اللغة الانجليزية. ولكني أعلم أن قواعد النحو التي أعرفها صحيحة، لأني أراسل امرأة في انجلترا، وهي تقول أني 'أكتب بصورة رائعة...'". ثم بدأ صوتها ينخفض وهي تقول: "ولكن فيما يتعلق بنطق الكلمات.. فأنا غير متأكدة إن كنت أعلِّمها بطريقة صحيحة أم لا". قالت هذا ثم استدارت وانصرفت مُسرعة.

لم يستطع أندرو استيعاب ما أعلنته له. لقد بذل جهدًا شاقًا كي يتعلم التحدث بالانجليزية، وفهمها جيدًا حتى يستطيع أن يفهم المحاضرات في اسكتلندا ويتحدث إلى الناس هناك. والآن ها هو يتساءل إن كان المتدربون على العمل المرسلي سوف يفهمون كلمة واحدة مما يقوله بالانجليزية.

بعد ثلاثة أيام، وصل خبر أكثر إيلامًا، وقد جاء أيضًا على شكل خطاب. كان الخطاب الوارد من هيئة الكرازة

العالمية يحتوي على اعتذار عن أي إزعاج تسببوا فيه لأندرو، بالإضافة إلى إيضاح بأنه لا يوجد مكان له في البرنامج في الوقت الراهن، وأن بإمكانه أن يقدم طلبًا جديدًا بعد عامين.

كيف له أن ينتظر عامين آخرين! لقد ترك أندرو بالفعل وظيفته، وباع دراجته، وأخبر عائلته أنه سوف يغادر البلاد، واستخدم كل مدخراته لشراء تذكرة ذهاب فقط إلى لندن. والآن ها هي هيئة الكرازة العالمية تطلب منه تأجيل قدومه لمدة عامين! لقد كان الأمر أكثر مما يستطيع أن يحتمل. حاول جاهدًا أن يجد معنى في كل ما حدث له ذلك الأسبوع. هل أراده الله أن يمكث في وطنه، ويحصل على وظيفة أخرى، ويتزوج ثايل.. أم كان يريد لأندرو أن يبحث عن شخص يكون قد سمع آخرين يتحدثون اللغة الانجليزية ويأخذ دروسًا على يد ذلك الشخص؟ كان هذان هما الاحتمالان القائمان. ولكن بينما كان أندرو يصلي بشأن الموقف، شعر بسلام يحل عليه، وكانت هناك كلمة تدوي في عقله: "اذهب".

مع أن الكلمة لم تبدو منطقية، حيث أنه لم يكن هناك

منصب ينتظره على الجانب الآخر، إلا أن أندرو قــرر أن يتبع القيادة الإلهية ويذهب. لم يخبر عائلته أن هيئة الكرازة العالمية لن تستقبله في الوقت الراهن. وبدلاً من ذلك واصل حزم أمتعته وودع أصدقاءه وعائلته في القرية. بعد يــومين كان أندرو يستقل حافلة متجهة إلى روتردام، حيث كان من المقرر أن يركب من هناك على متن السفينة المتجهة إلـــى لندن والمغامرة التي تنتظره هناك.

الفصل العاشر

تجربة في الثقة بالله

وقف أندرو في الشارع خارج محطة القطارات في لندن، وكان عنوان هيئة الكرازة العالمية في يده. عندما لمح شرطيًا يرتدي قبعة سوداء مرتفعة، مشى تجاهه وسأله وهو مُمسك بقطعة الورق: "هل تستطيع أن تخبرني كيف أصل إلى هناك؟"

وقف الشرطي متحيرًا لحظة ثم أشار غربًا. كان الشرطي يثرثر بقائمة من التوجيهات، ولكن أندرو لم يفهم كلمة واحدة مما قاله، وتساءل إن كان الشرطي يتكلم الانجليزية حقًا. رغم ذلك، كان أمام أندرو اتجاه يسير فيه، ولذا فقد التقط حقيبة ملابسه وبدأ يمشي غربًا. كانت الحافلات ذات الدورين تئز حوله، وكانت سيارات التاكسي تُحدث أصواتًا عالية غير محببة. وتمنى أندرو أن يتمكن من السير تجاه المقر الرئيسي لهيئة الكرازة العالمية. لم يتبق لديه سوى القليل من المال، ولم يرد أن ينفق كل ما لديه على المواصلات العامة.

بعد المشي لمسافة نصف ميل، سأل أندرو شخصًا آخـــر عن الاتجاهات، وحصل على إجابة غير مفهومة كتلك التي سمعها من الشرطي، ولكن في هذه المرة أشار الشخص إلى جهة الشرق. تنهد أندرو. لقد كان في لندن أقل من ســـاعة، وقد عرف بالفعل شيئين: كانت اللغة الانجليزية للسيدة ميكل غير مفهومة في انجلترا، وأنه سوف يضطر لأخذ تاكـــسي للوصول إلى مقصده.

نادى أندرو على سيارة تاكسي، وبعد عشر دقائق توقفت السيارة أمام مبنى كالح اللون من طابقين.

دفع أندرو الأجرة، واتجه نحو المبنى. كانت هناك لافتـــة فوق الباب تقول: "هيئة الكرازة العالمية".

ولفرط دهشة أندرو، كان هناك رجـــل يتحـــدث بعـــض الهولندية يرحب بأندرو عند الباب.

قال أندرو: "اسمي أندرو فان دير بيجل. لقد وصلت للتو من هولندا".

قطب الرجل جبينه وهو يقول: "أندرو فان دير بيجل؟ ألم يصلك الخطاب الذي يوضح لك أنه لا يوجد مكان لك فـــي الوقت الحالي؟"

أجاب أندرو: "نعم، وصلني. ولكني صممت على المجيء بأي حال حتى أكون مستعدًا عندما أجد مكانًا".

ابتسم الرجل: "وهو كذلك إذًا. أنت هنا الآن، ولذلك مرحبًا. تعال ادخل، وسوف أريك سريرًا. نحن لا نستطيع أن نجعلك تقيم هنا إلى أجل غير مسمى، ولكن يمكنك أن تقيم بضعة أيام قليلة حتى نرتب لك شيئًا".

غمر أندرو شعورًا بالارتياح. حتى تلك اللحظة لم يكن يدرك كم كان بحاجة أن يستمع إلى شخص يقول له: "مرحبًا" ويعرض تدبير الأمور.

أقام أندرو في المقر الرئيسي لهيئة الكرازة العالمية لما يقرب من شهرين. وقد أسندت إليه مهمة طلاء المبنى الرث الهيئة من الخارج. كانت المهمة بسيطة بدرجة كافية، على خلاف تعلم "اللغة الانجليزية"، والتي ثبت أنها مهمة أكثر إرهاقًا. كان أندرو شاكرًا لأنه لم يذهب مباشرة إلى مدرسة التدريب في جلاسجو، لأنه ما كان ليتمكن من فهم أي شيء يقال، كما أنه لن يكون قادرًا على جعل نفسه مفهومًا. وعلى الرغم من صعوبة المعيشة في مقر هيئة الكرازة العالمية والتحدث بالانجليزية، إلا أنه أدرك أن محاولة تعلم اللغة

كطالب كان من الممكن أن تكون أصعب من ذلك بمائة مرة.

ولكي يساعد أندرو نفسه، أخذ يقرأ في كتاب مقدس طبعة الملك جيمس كان قد أعطاه له شخص ما. كان يحتفظ بقاموس لغة إنجليزية في متناول يديه للكشف عن الكلمات التي لم يكن يعرفها. ولكن لم تكن الكلمات المكتوبة هي التي كانت تشكل المشكلة الكبرى بالنسبة له، بل الكلمات المنطوقة. لم يكن في اللغة الهولندية صوت الـ (th) (ذا)، وقد وجد أندرو صعوبة في نطق هذا اللفظ. وعندما طُلب من أندرو أن يُقدم حديثًا تعبديًا ذات صباح، اختار الآية التي تقول: "أبصر، إيمانك قد خلصك"، ونصها بالانجليزية:

"Receive thy sight, thy faith hath saved thee"

ولكن أفضل لفظ استطاع أن يتوصل له كان:

"Receive die side, die fade had saved dee"

شعر بالغباء لاختياره آية بها العديد من حرفي الـ (th).

بحلول منتصف يونيو انتهت مهمة الطلاء، وكان شخص آخر بحاجة إلى سرير أندرو. ذهب أندرو إلى كنت بجنوب لندن، ليقيم مع السيد والسيدة هوبكنز. كان السيد هوبكنز مقاول بناء ومتبرع سخي لهيئة الكرازة العالمية. لم يندهش أندرو ليكتشف أن السيد والسيدة هوبكنز كانا يعيشان في

منزل بسيط، إذ قيل له أنهما كانا يهبان ٩٠% من دخلهما للجمعيات الكرازية.

لم يمض وقت طويل، حتى أصبح العم هوبي والأم هوبي، كما كان الجميع ينادون السيد والسيدة هوبكنز، كوالدين لأندرو. كانت الأم هوبي مريضة، تمامًا كما كانت أم أندرو، وكان لها نفس الإيمان والتصميم لكي تعيش كل يوم لله. كان أندرو يأتي إلى البيت في الليل ليجد الأم هوبي تقدم الشهادة للمسيح لسكير أو عاهرة يبيتان في المنزل. وفي الصباح كان تقدم للشخص إفطارًا جيدًا ومعطفًا إذا كان هو أو هي في حاجة إليه، وكانت تصلي لأجله أو لأجلها عند الرحيل.

كان أندرو يشعر وكأنه في بيته مع عائلة هوبكنز لدرجة انه حين وصل إليه خبر مفاده أن بمقدوره أن يبدأ تدريبه في هيئة الكرازة العالمية بأسرع مما كان يتوقع، كان يشعر بالحزن لفراقهما. في سبتمبر سنة ١٩٥٣ شكر أندرو عائلة هوبكنز لأجل الرعاية الرائعة والصداقة اللتين قدماها له ولحق القطار الذاهب إلى جلاسجو.

بعد الوصول إلى جلاسجو، وجد أندرو طريقه إلى ١٠

طريق الأمير ألبرت، حيث كانت تقع مدرسة التدريب التابعة لهيئة الكرازة العالمية. كان المبنى الذي توجد به المدرسة عبارة عن منزل كبير مكون من طابقين يقع على ناصية. كان المنزل محاطًا بجدار حجري، وعلى المدخل المقوس فوق البوابة كانت الكلمات "ليكن لك إيمان بالله" مكتوبة بألوان واضحة. مشى أندرو تحت المدخل المقوس واتجه إلى الباب الأمامي. طرق على الباب، وبعد لحظات فُتح الباب. كان من دواعي سرور أندرو، أنه وجد كيس واقفًا هناك. احتضن كل منهما الآخر، واقتاد كيس أندرو إلى الدور العلوي إلى حجرته وقدمه إلى زملائه الثلاثة في الحجرة.

بعد أن استقر أندرو، أخذه كيس ليقابل مدير مدرسة التدريب، ستيوارت دينين. صافح أندرو ستيوارت، وأخبره ستيوارت شيئًا ما عن فلسفة المدرسة.

بدأ ستيوارت بالقول: "يا أندرو.. إن الغرض من مدرسة التدريب هذه تعليم طلبتنا أنه بإمكانهم أن يثقوا بأن الله سوف يعمل ما قال أنه سيعمله. أنت لا تذهب من هنا إلى حقول إرسالية تقليدية. أنت تذهب إلى أرض جديدة. إن خريجي

المدرسة يكونون وحدهم. لذا لا يمكنهم أن يكونوا فعالين إذا كانوا خائفين أو إذا شكوا أن الله يعني حقًا ما يقوله في كلمته. أرجو أن يكون ذلك هو نوع التدريب الذي تبحث عنه بمجيئك إلى هنا، يا أندرو".

أجاب أندرو: "نعم، يا سيدي.. هذا هو بالضبط نوع التدريب الذي أبحث عنه".

بعد أن استقر أندرو في المدرسة، شعر بسرور مرة أخرى لأنه لم يأت مباشرة إلى جلاسجو من هولندا. فعلى الرغم أن لغته الانجليزية كانت أفضل بكثير بعد الوقت الذي قضاه في لندن، إلا أنه وجد قدرًا كبيرًا من الصعوبة في فهم لهجة أهل جلاسجو. وعلى الرغم من ذلك، فقد ثابر وتجلد لأن من بين واجباته المدرسية أن يمارس الكرازة في الشوارع على طريقة العمل الفردي.

ذهب أندرو للتبشير بالإنجيل في أردأ مناطق جلاسجو.. حي فقير يُدعى حي باتريك. هذا كان يشتهر بالعنف لدرجة أن رجال الشرطة كانوا لا يمشون في شوارعه وحدهم. ولكن لأن أندرو كان يعتقد أن ذلك هو المكان الذي أراده الله أن يذهب إليه، فقد ذهب إلى حي باتريك. لم يستطع أندرو

أن يصدق حالة المكان حين رآه لأول مرة. كان كل شـــيء مظلمًا وشديد الرطوبة على نحو مزعج.

كانت المصابيح الكهربائية فـــي الــشوارع مكــسورة أو مسروقة، وكانت أكوام القمامة المتعفنة مكومة في كل مكان في الشوارع. كان الأطفال ذوو أنــوف كثيــرة الارتــشاح ويرتدون أسمالاً بالية، ينظرون إليه بريبة وهو يشق طريقه على طول الشارع، حاملاً كومة من الأناجيل. لم يـصادف أندرو مكانًا كهذا في هولندا. إن الولـــع الهولنـــدي بالنظـــام والنظافة لا يسمح أبدًا بوجود مكان كهذا.

على ناصية كل عمارة كانت هناك حانات مليئة بالدخان كان يجلس فيها رجال ذوو وجوه واجمة يسكرون، وينفقون عادة نقود طعام عائلاتهم على الويسكي الــرخيص الــثمن. كان أندرو يدخل إلى الحانات ويستأذن أصـــحابها إن كـــان بإمكانه أن يوزع النبذ الإنجيلية على رواد تلك الحانات. لـــم يكن أحد منهم يرفض. راح أندرو يوزع النبذ على زبـــائن الحانات ويتحدث مع أي واحد يـــستطيع أن يجـــري معـــه حوارًا.

في إحـــدى الحانات قابل أندرو رجلاً يدعى جاك كيرني:

كان جاك ثملاً تمامًا، ولكنه أخذ واحدة من النبذ وطلب من أندرو أن يزوره في منزله في مساء اليوم التالي. وافق أندرو على ذلك، وفي الأمسية التالية شق هو وألبرت، أحد أصدقائه في مدرسة التدريب، طريقهما صعودًا على السلالم إلى الطابق الرابع نحو شقة جاك. وكما كان الحال مع أنوار الشارع، فقد كانت المصابيح الكهربائية التي كانت تُنير السلم إما مكسورة أو مسروقة. اضطر أندرو وألبرت أن يشقا طريقهما على درجات السلم في ظلام تام، وقد بذلا كل ما في وسعهما لتجنب زجاجات البيرة المكسورة على درجات السلم.

بحث الرجلان عن باب الشقة في الظلام وطرقا عليه. فتح جاك الباب، واستطاع أندرو أن يرى بوضوح أنه كان لا يزال ثملاً. كانت عينا جاك لامعتين، وكان يترنح في مشيته، وكانت أنفاسه تفوح منها رائحة الويسكي. قال جاك وهو يشير لأندرو وألبرت بالدخول: "ادخلا".

كانت الشقة في الداخل داكنة، مضاءة بمصباح كهربائي واحد. كان ورق الحائط ملطخًا باللون البني ومنفصلاً عن الحوائط، وكان الطلاء منفصلاً عن السقف. كانت كسر

الخبز البالية وقطع الطعام متناثرة فوق طاولة المطبخ والمنضدة، وكانت الأطباق القذرة مكومة في حوض غسيل الأطباق.

قال جاك: "دعاني أعمل لكما كوبًا من الشاي"، وبعد أن قال ذلك سحب ثلاثة أكواب قذرة من الحوض. لم يأبه كثيرًا بغسلها، ولكنه مسحها فقط بفوطة أطباق ملوثة.

نظر كل من أندرو وألبرت إلى الآخر باندهاش شديد، ولكنهما لم ينبسا ببنت شفة. كان أندرو يعرف أن رفض عرض جاك لعمل الشاي ينطوي على إهانة بالغة، حتى وإن كانت الأكواب غير نظيفة.

بعد عدة دقائق وضع جاك ثلاثة أكواب مليئة بالشاي على المنضدة. وبينما كانوا يحتسون الشاي، تحدث الرجال الثلاثة، وكان جاك يسأل أندرو سؤالاً بعد الآخر عن حياته في هولندا والتجارب التي مر بها في إندونيسيا.

أخيرًا سأله جاك: "بما أنك كنت في الجيش أيها الهولندي، قل لي ما هو أول قانون في الحرب؟"

فكر أندرو لحظة ثم رفع عينيه ليحملق في وجه جاك الممتلئ بالشعر القصير: "إما حياتك أو حياتي. هذا هو

قانون الحرب، يا جاك".

قال جاك: "قول صائب، أنت محق تمامًا". بعد ذلك نهض من أمام المنضدة، ومشى نحو خزانة خلف أندرو، وفتح درجًا، وسحب منه شيئًا ما. كان ذلك الشيء هو موسى قديمة لحلاقة الذقن له نصل طويل. وأمسك بالموسى ووضعه فوق حنجرة أندرو قائلاً له: "وأنا سوف أقتلك".

جلس ألبرت على الجانب الآخر من المائدة قبالة أندرو، الذي رأى أن صديقه كان مرتعبًا لدرجة أنه لم يتمكن من عمل شيء سوى أن يصلي. وفي نفس الوقت أخذ أندرو يفكر بسرعة. لم يكن لديه شك أن جاك، في حالته الثملة، كان قادرًا تمامًا على شق حنجرته بالموسى.

قال أندرو: "أنت محق، يا جاك. إنها حياتي أو حياتك، ولكن لهذا السبب لا يمكنك أن تفعل ما تفعله. لقد مات شخص ما لإنقاذ حياتي وحياتك.. اسمه يسوع المسيح".

شعر أندرو بأن جاك يضغط بالموسى بقوة أشد على رقبته، حتى أحس أندرو بالنصل الحاد يجرح الجلد عند حنجرته. واصل أندرو حديثه قائلاً: "يا جاك، لقد جاء يسوع إلى العالم بسبب قوانين الحرب هذه، وبسبب الحرب

الروحية التي يكسب فيها إنسان واحد فقط ويخسرها الآخر. على واحد أن يموت حتى يعيش الآخر. وهذا ما فعله يسوع المسيح. لقد مات حتى تعيش أنت، يا جاك".

وقف جاك ساكنًا لحظة من الزمن. كان قلب أندرو يـدق بشدة في صدره وهو ينتظر ما سيفعله جاك. هـل سـيتركه لحال سبيله أم سيذبحه؟ تنفس أندرو الصعداء حـين تخلـى جاك عن الضغط بالموسى على رقبته وأبعده عنهـا. خطـا جاك إلى الوراء، وأغلق الموسى، ووضعه في الدرج.

فكر أندرو سريعًا ثم قال: "شكرًا لك لإبعاد الموسى، يـا جاك. سوف نمضي في طريقنا الآن، وسوف أعود وأتحدث معك ثانية عن يسوع".

أومأ جاك رأسه بالموافقة وانطلق أندرو وألبـرت مـن الشقة وهبطا درجات السلم المظلم بأسرع ما يمكنهما. كـان وجه كل منهما رمادي اللون. وكانا يرتعشان عند وصولهما إلى الشارع.

في الأمسية التالية عاد أندرو ليرى جاك، إلا أنه في هذه المرة قرر ألا يأخذ ألبرت معه. شق أندرو طريقـه وهـو يصعد درجات السلم إلى شقة جاك في خوف ورعدة. طرق

بحذر شديد على الباب. فتح جاك الباب، وقد شعر أندرو بارتياح كبير، على الرغم من إحساسه بالرعب، وبالرغم من وجود حلقات سوداء كبيرة تحت عيني جاك، إلا أنه لم يكن سكرانًا.

اعتذر جاك قائلاً: "إني آسف لما حدث البارحة. ما عملته معك كان شيئًا فظيعًا. إنها الخمر.. إنها تجعلني أرتكب أشياء فظيعة".

قال أندرو بينما كان يخطو إلى داخل شقة جاك: "لا بأس.. إني متفهم لهذا. أنت تعرف أن يسوع يحبك يا جاك. إنه يحبك حقًا. لماذا لا تصلي وتطلب منه أن يأتي إلى حياتك ويُغيِّرك؟"

لفرط دهشة أندرو، ركع جاك على ركبتيه في المطبخ وبدأ يسكب قلبه في الصلاة، طالبًا من الله أن يغفر له، ويغيِّر حياته. صلى جاك قائلاً: "أنا حقًا شخص سيء، يا يسوع، ولكني أريد بالفعل أن أتبعك. أرجوك أن تصفح عني وتقبلني".

في تلك الليلة، عندما غادر أندرو شقة جاك، نزل السلم المعتم بسرعة فائقة وكأنه يطير فرحًا.. فالرجل الاسكتلندي

المُسرف في الشراب من الأحياء القذرة، والذي كان يريد أن يشق رقبة أندرو، قد أصبح مسيحيًا.

زار أندرو جاك عدة مرات أخرى، وفي كل مــرة كــان يغادر الشقة، كان يندهش للتغييرات التي حدثت في جــاك، فقد لمس الله جاك حقًا وغيَّر حياته.

مضى نصف العام الدراسي الأول في مدرسة التــدريب بسرعة. ونظرًا لعدم وجود عمال للعمل في هيئة الكــرازة العالمية، كان على جميع الطلبة أن يقوموا بجهــد مــشترك ويقدموا المساعدة بإنجاز المهام المطلوبة. كان أندرو يقــوم بدوره في غسل الملابس، وطبخ الطعام، وتنظيــف دورات المياه.

كانت المدرسة تعطي دروسًا عملية أيضًا. كان الجميــع يتعلمون كيف يقيمون مأوى من الخوص (أوراق النخيــل)، وكيف يفككون محرك السيارة ويركبونه من جديد، وكيــف يشكلون من الصلصال وعاء للشرب. كانت هــذه مهــارات هامة لأن عددًا كبيرًا من خريجي هيئة الكرازة العالمية كانوا معرضين للمعيشة في ظروف بدائية في بلاد بعيدة. بالنسبة لأندرو، لم تكن لديه فكرة عن المكان الذي قد يختاره الله له،

ولكنه لم يجعل من ذلك سببًا للقلق. ففي ذلك الوقت كان لديه أكثر مما يكفي للتركيز عليه.

خلال النصف الأول من العام الدراسي، كان أحد الكتاب الذين استمتع أندرو بالقراءة لهم مبشرًا اسكتلنديًا يُدعى أوزولد تشامبرز. مات تشامبرز في سنة ١٩١٧، ولكن كتابه التعبدي "أقصى ما عندي لمجد العلي"، ألهم أندرو، خاصة عندما عانى أندرو من ألم في الظهر واضطر أن يرقد في الفراش عدة أيام متواصلة. في خلال تلك المدة قرر أندرو أن يكتب خطابًا لأرملة أوزولد تشامبرز، وهي امرأة مُسِنَّة تدعى "ببي".

قبل عيد الميلاد مباشرة تسلم أندرو ردًا رائعًا من ببي تشامبرز. في خطابها دعت ببي أندرو لزيارتها في وقت ما. كتب إليها أندرو على الفور يقترح في رده أن يأتي في عيد الميلاد المجيد.

عندما أبلغ زملاءه في الدراسة عما فعله، ذهلوا. قالوا له: "لا يمكنك أن تدعو نفسك للإقامة مع شخصية بهذه الشهرة". ولكن أندرو لم يفهم وجهة نظرهم. لقد دعته ببي تشامبرز للزيارة، وهو يحب أن يذهب.

ولذا ففي عيد الميلاد ركب أندرو القطـــار إلـــى جنـــوب إنجلترا وقضى مدة الإجازة في منزل تـــشامبرز. اكتـــشف أندرو أن ببي كانت مضيفة رائعة. لقد جعلته أيـــضًا يقـــرأ بعض النصوص الأصلية لزوجها الراحـــل. نتيجـــة لتلـــك الإقامة، أصبح أندرو وببي تشامبرز صديقين حميمين.

بعد زيارته لجنوب إنجلترا، عاد إلى اســـكتلندا لتمـــضية النصف الثاني من الدراسة في مدرسة التدريب. فـــي هـــذه المرة كان هناك شيء خاص ينتظر جميع الطلبة. لقد أعلـــن ستيوارت دينين، مدير مدرسة التدريب أن الطلبة كانوا على وشك أن يجتازوا في تدريب على الثقة بالله.

قال ستيوارت: "القواعد بسيطة جدًا. كل واحد منكم سوف يُعطى ورقة مالية فئة جنيه واحد. بهذا المبلغ عليك أن تتعهد بالقيام بجولة كرازية لمدة شهر كامل في ربـــوع اســـكتلندا. سوف يُنتظر منك أن تدفع كل نفقاتك من الجنيـــه، وعنـــدما تعود إلى المدرسة بعد شهر، عليك أن ترد الجنيـــه. ولكـــن خلال المدة التي تكون فيها بعيدًا، ليس مسموحًا أن تجمـــع تبرعات، ويشترط ألا تذكر احتياجاتـــك لأي واحـــد. هـــذه تجربة في الاعتماد على الله لسد احتياجاتك، ولا يـــصح أن

تستغل التجربة لفائدتك بأية وسيلة. فإذا فعلت ذلك، تصبح التجربة فاشلة".

كان أندرو مستعدًا لمواجهة التحدي، وحالاً بعد ذلك أنطلق هو وأربعة شبان آخرون من المدرسة للطواف حول اسكتلندا، يعظون ويشهدون حيثما ذهبوا. تحدثوا في الكنائس والقاعات على طول الطريق، وكانوا حريصين دائمًا على عدم ذكر احتياجاتهم. وأثناء سفرهم، على الرغم من أن أندرو لم يعرف كيف حدث ذلك، إلا أن الشبان الخمسة كان لديهم دائمًا المال الكافي لتغطية تكاليف معيشتهم. في بعض الأحيان كان أحد أعضاء الفريق يتلقى خطابًا من البيت به نقود. وفي أوقات أخرى كان الشبان يتلقون خطابات تحتوي مالاً من أناس سمعوهم يعظون على طول الطريق. وفي كثير من الأحيان كانت تلك الخطابات تحتوي على ملاحظات تقول: "أنا أعلم أنك لست بحاجة إلى مال، لأنك لو كنت محتاجًا إلى المال لقلت ذلك. ولكني أشعر فقط أن الله يريدني أن أرسل لك هذا المبلغ". وعندما كانوا يتلقون مالاً بهذه الطريقة، كان الفريق حريصًا على أن يعشّر كل ما يتلقاه من مال.

وفي أوقات أخرى كان يأتي أناس فجأة ويقدمون للرجال منتجات زراعية. ذات مرة بينما كان الرجال يُقيمون في مدينة صغيرة في المرتفعات الاسكتلندية، جاءهم شخص ما ومعه ٦٠٠ بيضة. فكان أندرو ورفاقه يأكلون بيضًا على الإفطار والغذاء والعشاء لعدة أيام، ووزعوا المئات منها أيضًا.

أخيرًا، بعد السفر بطول اسكتلندا وعرضها لمدة شهر، عاد فريق أندرو إلى جلاسجو. وعند وصولهم إلى مدرسة تدريب هيئة الكرازة العالمية، رد كل منهم الجنيه الذي تلقاه. ليس ذلك فقط، ولكن كان لديهم أيضًا مبلغ إضافي تصل قيمته إلى عشرة جنيهات، قدموه لدعم مرسلي هيئة الكرازة العالمية.

شعر أندرو بالفرح للعودة إلى جلاسجو، ولكنه حين استعاد التفكير في تجربة الشهر الماضي، أدرك أنه قد تعلم الكثير فيما يتعلق بالاعتماد على الله لتسديد احتياجاته. فأثناء الوقت الذي قضوه بعيدًا، كان أندرو وزملاؤه يأكلون كل يوم ولديهم مكان ليناموا فيه كل ليلة وملابس لارتدائها. وكل ذلك بينما كانوا يقدمون ١٠ % من كل شيء يتلقونه. كان

أندرو يقول لنفسه:

"عندما تكون في مهمة خاصة بالملك، فإنه يدبر كل شيء حقًا".

انتهى العام الأول في مدرسة التدريب دون أن يشعر أندرو به. وفي نهاية ذلك العام، عُقد حفل تخرج لجميع طلبة الصف الثاني، وكان كثيرون منهم قد ذهبوا إلى الحقل المرسلي بالفعل. بعد تخرجه، حجز كيس تذكرة سفر إلى كوريا، ووعد أن يكون على اتصال بأندرو.

مضت السنة الثانية لأندرو في مدرسة التدريب بأسرع من الأولى. وقبل أن يشعر بذلك، كان وقت الربيع قد وصل. وعلى الرغم أن وقته في المدرسة كان على وشك أن ينتهي، إلا أن أندرو لم يكن لديه فكرة عما يجب أن يفعله بعد ذلك. ولكن كان لديه إيمان بأن الله سوف يرسل له إرشادًا واضحًا في الوقت المناسب. كان آخر مكان توقع أن يجد فيه هذا الإرشاد هو بدروم المدرسة. كان قد ذهب إلى البدروم ليستعيد حقيبة ملابسه، ولكن بينما كان يمد يده ليأخذها، لاحظ مجلة جميلة المظهر فوقها. لم يلحظ أندرو المجلة من قبل، ولم تكن لديه فكرة عن الكيفية أو السبب في

وجودها هناك. ولكن عندما التقط المجلة وأخذ يقلب صفحاتها، أحدث ما رآه وقرأه في تلك تغييرًا في مسار حياته إلى الأبد.

الفصل الحادي عشر

خلف الستار الحديدي

وقف أندرو في البدروم المعتم، غير قادر على الحركة بسبب الصور التي رآها على الصفحات التي كان يقلبها. كانت المجلة مليئة بوجوه مشرقة لشباب مبتسمين.. صينيين وروس وبولنديين. وفي النص المصاحب للصور الفوتوغرافية قرأ أندرو أن ٩٦ مليون شخص وجدوا السلام، والأمل، والحرية في حياتهم وتعاونهم في مجتمعاتهم من خلال عالم الاشتراكية الجديد الرائع.

الاشتراكية! الشيوعية! كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يتعرضوا لخداع كهذا؟ أخذ أندرو يفكر. كانت المجلة مليئة بالمقالات عن عالم أفضل، ولكن أندرو لم يقتنع بكلمة منها. راح يفكر في الشيوعيين الذين عرفهم، ولم يتخيل أن يكون بحوزة أحدهم المفتاح لعالم أفضل. لقد تذكر امرأة واحدة بنوع خاص. كانت تلك المرأة، وهي شيوعية معروفة، قد عملت مع أندرو في مصنع الشيكولاتة في الكمار. كانت من أكثر الأشخاص الذين عرفهم أندرو كآبة وتشاؤمًا. لم يكن

العبوس يغيب عن وجهها، وكانت تمقت بشدة مجموعات الصلاة والخلوات التي كان أندرو يخططها للعمال. ذات مرة قالت لأندرو أن الله "من اختراع طبقة السادة المستغلين" وبحسب ما قالته، فإن الأجور التي كانت تتقاضاها هي والعمال الآخرون في مقابل عملهم كانت كأجور العبيد. وعندما قال لها أندرو أنه سوف يترك المصنع، واجهته بنظرة قائلة: "حسن، ولكن الأكاذيب التي قلتها سوف تبقى. إنك قد نومت هؤلاء الناس تنويمًا مغناطيسيًا بحديثك عن الخلاص وتلك الأوهام الكاذبة. لقد أعميت عيونهم تمامًا". لم يكن لتلك المرأة أية علاقة بالناس المبتسمين ذوي الوجوه المشرقة الموجودين في المجلة.

بينما كان أندرو على وشك أن يضع المجلة ويلتقط حقيبة ملابسه، لفت نظره شيئًا ما في المجلة. لقد كان إعلانًا على نصف صفحة، دعوة للاشتراك في احتفال شبابي حاشد سوف يُعقد في دارسو في شهر يوليو. كان الإعلان يقول: "مرحبًا بالجميع". أخذ أندرو يضحك ضحكة خافتة وهو يقول: "الجميع! أراهن انهم لا يريدون أي شبان مسيحيين مثلي هناك". ولكن بينما كانت الكلمات تتردد في ذهنه،

تملكه دافع غريب لا يُقاوم. لقد عرف بطريقة ما أن عليه أن يكتب إلى العنوان الموجود في الإعلان ليسألهم إن كانوا على استعداد أن يرسلوا له أوراق المطلوبة للحصول على التأشيرة وبطاقات الدخول لمهرجان الشباب.

نظرًا لعلم أندرو أن الشيوعيين لم يكونوا يحبون المسيحيين أو يرحبون بهم، فقد قرر ألا يُخفي أسبابه لرغبته في حضور مهرجان الشباب. كتب خطابًا صريحًا، ذكر فيه أنه يحب أن يستمع إلى وجهة النظر الشيوعية بطريق مباشر ويشرح وجهة نظره المسيحية. وضع الخطاب في صندوق البريد تلك الليلة، وهو لا يعرف أي نوع من الردود سوف يتلقاه، إذا كان هناك أي رد.

في خلال أسبوعين تلقى أندرو ردًا بالموافقة. رد الخطاب أن منظمي مهرجان الشباب يسعدهم أن يأتي أندرو ويستمع إلى الأيدلوجية العليا للشيوعية. وأنه سوف يلقى الترحيب إذا أراد يتباحث مع أي واحد آخر فيما يتعلق بالمسيحية. أخبره الخطاب أيضًا أن قطارًا خاصًا كان سيتجه من أمستردام إلى دارسو. ولأنه كان طالبًا، يمكنه الحصول على تخفيض على أجرة السفر بالقطار. وكما لو أن هذا لم يحمل مفاجأة كافية،

فقد سقطت أيضًا بطاقات الدخول من الخطاب المفتوح.

كان الخطاب يحوي كل الإرشادات التي احتاجها أندرو. بمجرد أن انتهت مدرسة التدريب، عاد أندرو إلـــى هولنـــدا للاستعداد لرحلته إلى دارسو في بولندا. في الطريـــق إلـــى هولندا توقف لزيارة السيد والسيدة هوبكنز في كنت. وعندما أوضح لهما ما انتوى أن يفعله، صُدم العم هوبى في البداية وسأله: "ولكنك لن تستطيع أن تذهب إلى مـــا وراء الـــستار الحديدي، هل تستطيع أيها الفتى؟"

كانت عبارة "الستار الحديدي" لفظًا نال شهرة كبيرة على يد رئيس الوزراء البريطـــاني ونـــستون تـــشرشل، الـــذي استخدمه لتحديد الخط الذي كان يفصل الغـــرب عـــن دول شرق أوروبا، حيث كان الاتحاد السوفيتي قد أقام حكومـــات عميلة في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان السفر في تلـــك الدول شديد الصعوبة، حيث كان يصعب الحـــصول علـــى التأشيرات. وكان السفر إلى هناك شديد الخطـــورة أيـــضًا، خاصة بالنسبة للمسيحيين. كان معظـــم القـــادة الـــشيوعيين يشعرون بالبارانويا (جنون الاضطهاد) فيما يتعلـــق بتـــأثير المعلومات الخارجية على بلادهم، خاصة فيما يتعلق بأمور

مثل الديانة، التي اعتبروها تحديًا لسلطتهم وأنها تقلل من شأن القيم الشيوعية.

أجاب أندرو: "أنا لا أعرف السبب الذي يجعلني لا أستطيع الذهاب إلى ما وراء الستار الحديدي. لقد دُعيت، وأنا صادق فيما يتعلق بالسبب الذي أريد أن أذهب لأجله".

أومأ العم هوبى رأسه بالموافقة وهو مستغرق في التفكير، وقال: "في هذه الحالة دعني أكون أول من يدعو لك بالبركة في رحلتك". وبعد أن قال ذلك مد يده إلى جيب معطفه الرث وسحب منه لفة من الأوراق المالية فئة الخمسة جنيهات. أخذ يعد بعضها وسلمها لأندرو. قال وهو يسلم الأوراق المالية: "هذه سوف تعينك على السير في الطريق. فلتبق على اتصال بي".

بعد أن أمسك أندرو بالأوراق المالية في يده، وقف دون أن ينبس ببنت شفة. لقد كان العم هوبى حقًا واحدًا من أروع الرجال الذين التقى بهم.

وفي هولندا وجد أندرو سانت بانكراس كما تركها. بدا كما لو أن الزمن قد توقف. كان أمامه أسبوع واحد ليرى فيه جميع الناس في مسقط رأسه وبعد ذلك يحزم أمتعته

للسفر إلى بولندا. قام أندرو بجولة سريعة مـن الزيـارات لعائلة كيس، والعمال في مصنع الشيكولاتة، والسيدة ميكـل التي شعرت بالاندهاش بسبب الانجليزية "الغريبة" التي كان بمقدوره الآن أن يتكلم بها. كان السيد والسيدة ويستر أيـضًا يحزمان أمتعتهما. فقد كانا في طريقهما إلى أمستردام حتـى يتوسعا في تصدير الزهور.

خلال ذلك الأسبوع أيضًا استقل أندرو الحافلة إلى أرميلو لزيارة أخيه بن وزوجته. كانا على ما يرام، ولكنه أنـدرو اضطر لحبس الدموع في عينيه عندما أخبره بن أن ثايل قد تزوجت خبازًا في جوركوم. فتحطمـت.كـل آمالـه فـي المصالحة معها. ولكن بينما كان يركب الحافلة عائدًا إلـى سانت بانكراس، توصل أندرو إلى الاسـتنتاج بأنـه مـن المرجح أن زواج ثايل كان للصالح. لقد كان يبلغ من العمر آنذاك ٢٧ سنة، وقد أصبحت النقود التي معه أقل مما كـان معه قبل أن يذهب إلى اسكتلندا بالقطار. ومع ذلك، فقد كان يأمل أن تكون له زوجة يومًا ما، على الرغم أنه أدرك أنها يجب أن تكون امرأة متميزة حتى تقبل أن تكـون شـريكة حياته.

في صبيحة ١٥ يوليو سنة ١٩٥٥، كان أندرو في طريقه إلى محطة السكة الحديد في أمستردام، وكان يحمل معه حقيبة ثقيلة. كان قد حزم الحد الأدنى من الملابس، وملأ بقية الحقيبة بنسخ من كتيب يتكون من ٣١ صفحة عنوانه "طريق الخلاص" باللغة البولندية وعددًا من اللغات الأوروبية الأخرى. كان على دراية بأن كارل ماركس قال ذات مرة: "أعطني ٢٦ جنديًا من الرصاص وأنا أهزم العالم". بتلك العبارة كان ماركس يشير إلى الـ ٢٦ حرفًا من حروف الأبجدية مسبوكة في قوالب من الرصاص، والتي كانت تستخدم في الطباعة لطبع الأدب. قرر أندرو أن يلاعب الشيوعيين وفقًا لقواعد لعبتهم، باستخدام الأدب لنشر الإنجيل فيما وراء الستار الحديدي.

عندما وصل إلى المحطة في قلب أمستردام، اندهش أندرو لحجم جمهور الشباب الذي كان ينتظر القطار. لقد كان يتوقع أن يتوجه إلى مهرجان الشباب حوالي خمسين شخصًا على الأكثر، ولكن كان هناك مئات الأشخاص مصطفين على رصيف المحطة. عندما توقف القطار بجوار الرصيف، زحف الناس لركوب القطار في رحلة الذهاب إلى

وارسو. حمل أندرو حقيبته الثقيلة وركب القطار، ثم وضعها على رف الحقائب، ووجد مقعدًا للرحلة.

في المساء، عندما بدأت شمس الصيف تغيب، دخل القطار محطة وارسو.

ما أن وصلت المجموعة، حتى استقبلهم مرشدون اقتادوهم إلى "فندقهم" الذي اتضح أنه مبنى مدرسي تم تحويله إلى عنابر للنوم خصيصًا لمهرجان الشباب. تم اقتياد أندرو إلى فصل دراسي لتدريس الرياضيات، حيث كان هناك ٣٠ سريرًا موضوعة جنبًا إلى جنب.

في تلك الليلة قال أحد المرشدين للمجموعة التي وصلت للتو أن ما يزيد على ٣٠ ألف من الشباب سوف يكونون في وارسو طيلة مدة المهرجان التي تبلغ ثلاثة أسابيع. بعد ذلك شرح المرشد أنهم في كل صباح سوف يستقلون حافلات للقيام بجولات لرؤية معالم المدينة، وسوف يقضون فترتي بعد الظهر والأمسيات في الاستماع إلى خطب ملهمة من نفر من القادة الشيوعيين.

لم يبدو هذا لأندرو طريقة مثيرة لتمضية اليوم، ولكن في صباح اليوم التالي ركب واحد من الحافلات التي توقفت أمام

مبنى المدرسة لرؤية معالم المدينة. بينما كانــت الحــافلات تحمل الشباب في شوارع مدينة وارسو، وجد أندرو نفــسه يعترف بأن ما كانوا يشاهدونه له عظيم الأثر. شاهد الشباب مدارس جديدة، ومصانع تعج بصوت الآلات التي تُنتِج كــل أنواع السلع المصنعة، وعمــارات مــن المبــاني الــسكنية الشاهقة، ومتاجر مليئة بالأغراض المعروضة للبيع.

بعد مضي يومين من الاستمتاع بالمعالم والاستماع إلــى الأحاديث المملة من قِبَل رجال ونساء تعلو وجوههم تكشيرة، قرر أندرو أنه بحاجة لرؤية وارسو لوحده. كان يتساءل عن شكل المدينة الحقيقي فيما وراء الواجهة التي يُظهرونها لهم من خلال الحافلات التي كانت تقلهم لرؤية معالم المدينــة. استيقظ أندرو مبكرًا ذات صباح وارتدى ملابسه قبل الجميع وأسرع بنزول السلم وخرج مــن البــاب الأمــامي لمبنــى المدرسة. قضى أندرو بقية اليوم وهو يتجول ذهابًا وإيابًا في شوارع وارسو.

ما رآه أندرو وهو يمشي أصابه بالصدمة والهلع. فبعــد مضي عشر سنوات على انتهاء الحرب العالميــة الثانيــة، كانت هناك عمارات سكنية بأكملها لا تزال حطامًا من جراء

القنابل الألمانية والروسية. كان عدد كبير من الناس الــذين رآهم يرتدون أسمالاً بالية، وملابس مهلهلة. وفـــي أســواق اللحم وأكشاك الخضراوات، كانت هناك طوابير طويلة مــن الزبائن ينتظرون أن يشتروا الطعام. إن وارسو التي رآها لم تكن شبيهة بوارسو المشرقة التي أظهروها لــه مــن وراء نوافذ الحافلات المخصصة لرؤية معالم المدينة. اتجه أندرو إلى شارع جانبي مليئ بالحطام. كانت جميع المباني في هذا الشارع قد تحولت إلى أنقاض بفعل القصف بالقنابل. ولفرط دهشة أندرو، كان الناس لا يزالون يعيشون في الشارع. لقد كانوا كالأرانب يختبئون في جحور في الأنقاض ويقيمــون مساكن لهم في بدرومات المباني المضروبة بالقنابل. وبينما كان أندرو يتمشى، لاحظ بنتا صغيرة تلعب وسط الأنقــاض والحطام. أخذ واحدة من نسخ "طريق الخلاص" بالبولنديــة التي كانت معه وأعطاها لها. أخذت البنت الكتيب وراحــت تجري بعيدًا.

بعد لحظات ظهر رأسان من وسط كومة من الأنقــاض. فقد تسلق رجل وامرأة، تتبعهما البنت الصغيرة، خروجًا من الفتحة التي كانت تؤدي إلى حظيرتهم تحت الأرض. كــانوا

جميعًا يرتدون خرقًا قذرة، وكان الرجل يمسك بالكتيب الذي أعطاه أندرو لابنته وكان يهز رأسه. حاول أندرو أن يتكلم مع الرجل في البداية باللغة الانجليزية، ثم بالهولندية، وأخيرًا بالألمانية "المكسرة" التي كان لا يزال يتذكرها منذ الاحتلال النازي لهولندا. ولكن الرجل لم يفهم شيئًا منها. كان الرجل لا يزال ممسكًا بالكتيب ويهز رأسه. ثم لاحت لأندرو الفكرة بأن الرجل كان يحاول إخباره أنه لا يستطيع أن يقرأ. أشار أندرو للرجل بأن يحتفظ بالكتيب وواصل سيره. لقد عثر على جزء من وارسو كان متأكدًا أن الحكومة الشيوعية لم تكن تريده أن يراه.

بينما كان يمشي، لاحظ أندرو شيئًا غريبًا. لقد جاء متوقعًا أن يجد أبواب الكنائس مغلقة ومحظورًا دخولها، ولكنه بدلاً من ذلك مشى أمام كنائس كاثوليكية وبروتستانتية ووجدها مفتوحة. فقرر أن يحضر إحدى الكنائس في يوم الأحد.

في عنبر نومه في تلك الليلة، كان أندرو يجلس مغتمًا بسبب ما شاهده في ذلك اليوم. وفي نفس الوقت كان فان هانز، وهو شيوعي هولندي ينام في نفس العنبر، يتحدث بحماس عن إنجازات الشيوعية.

لم يكن أندرو يتفق مع هانز في تأييده الحماسي للشيوعية، وأخيرًا قال له: "يا هانز، لماذا لا تترك جولة الغد والأحاديث وتذهب وترى وارسو بنفسك؟ فلتذهب إلى الشوارع وترى الأشياء التي رأيتها اليوم". بعد ذلك أعطى لهانز الاتجاهات للوصول إلى أكثر أجزاء المدينة إثارة للصدمة.

في الليلة التالية وجد أندرو هانز جالسًا مكتئبًا في عنبر نومهما. قال هانز لأندرو انه اتبع نصيحته وذهب ليرى المدينة بنفسه. أعلن هانز قائلاً: "يا أندرو، سوف أرحل في قطار نصف الليل إلى بلدي. ما رأيته اليوم قد أخافني أكثر من أي شيء آخر في حياتي. أنا مضطر لمغادرة هذا المكان".

في يوم الأحد اكتشف أندرو الطريق إلى كنيسة مصلحة، ولم تكن الخدمة هناك قد انتهت بعد. تسلل أندرو إلى مقعد في الخلف ودهش لحجم جمهور الحاضرين. كان ثلاثة أرباع الكنيسة مملوءًا. كان الترتيل حماسيًا، ومع أنه لم يستطع أن يفهم العظة، حيث أنها كانت باللغة البولندية، إلا أن أندرو اعتقد أنها كانت كتابية. وقد حكم على ذلك من

الطريقة التي كان الراعي يمسك بها كتابه المقدس ويقرأ منه.

وفي نهاية الخدمة، جاء الراعي إلى أندرو وتحدث معه بالانجليزية. عبر أندرو عن دهشته لأن المسيحيين كان مسموحًا لهم بالعبادة بكل حرية. وقال أنهم سمعوا في الغرب أن السلطات الشيوعية قد أغلقت مدارس اللاهوت وقبضت على رعاة الكنائس. أومأ الراعي رأسه وأوضح أنه من المسموح لهم ان يتعبدوا بحرية طالما أنهم لا يتطرقون للأمور السياسية، وقال: "إنه حل وسط. ولكن ما الذي يمكننا أن نفعل؟"

أومأ أندرو رأسه بالموافقة.

سأله الراعي: "قل لي، ما هي الكنيسة التي تنتمي إليها في بلدك؟"

أجاب أندرو: "كنيسة معمدانية".

قال له الراعي: "إذًا ربما تحب أن تحضر كنيسة معمدانية هنا في وارسو؟"

أومأ أندرو رأسه بالموافقة.

امسك الراعي بقطعة من الورق وكتب فيها عنوان كنيسة

معمدانية وسلمها لأندرو، ثم أردف قائلاً: "سوف تكون هناك خدمة هذا المساء".

في تلك الأمسية شق أندرو طريقه بحثًا عن العنوان الذي كتبه الراعي وتسلل إلى المؤخرة بينما كانت الخدمة لم تنته بعد. ولكن دخوله كان ملحوظًا. بدأ الناس يلتفتون وينظرون إليه. أدرك أندرو أن ملابسه سوف تعطي الانطباع بأنه أجنبي. وعند معرفتهم بأن أجنبيًا كان في وسطهم، دعا الراعي أندرو ليأتي إلى المنبر ويتحدث إليهم.

مشى أندرو إلى الأمام وسأل إن كان أي واحد في وسط الجمع يتكلم الانجليزية أو الألمانية. أعلنت امرأة أنها تتحدث الألمانية، ودعاها أندرو إلى الأمام. ثم تحدث بالألمانية إلى الجمهور، وتوقف بعد كل جملة أو اثنين ليسمح للمرأة بأن تترجم كلماته من الألمانية إلى البولندية.

عندما انتهى أندرو من الحديث، تقدم الراعي إلى الأمام وقال: "نحن نريد أن نشكرك. وحتى لو لم تقل كلمة واحدة، فإن مجرد رؤيتك ووجودك معنا يعني الكثير بالنسبة لنا. ففي بعض الأوقات نعتقد أننا وحدنا في صراعنا".

تأثر أندرو كثيرًا بكلمات الراعي وبالحفاوة التي أظهرها

الجمهور له.

خلال الأسبوع التالي، قرر أندرو أن يخرج إلى شوارع وارسو ويوزع نسخًا من "طريق الخلاص" على الناس الذين يمر بهم. كان يقف عند نواصي الشوارع ويوزع الكتيبات. ولفرط دهشته، كان كل من يقدم له نسخة يأخذها. في البداية كان أندرو يبتعد عندما يرى جنودًا قادمين نحوه. ولكن في يوم ما سأل نفسه لماذا كان يخشى الجنود. لماذا كان يتسلل بعيدًا عندما كان يراهم قادمين؟ على أي حال، فالجنود كانوا بحاجة لسماع الإنجيل مثل الباقين. ولذا فعندما لاحظ مجموعة من الجنود يقتربون يومًا ما، قرر أن يقف في مكانه. مشى الجنود نحوه، وقدم لكل منهم نسخة من الكتيب. فأخذوا الكتيبات واطلعوا عليها.

قال أندرو بالألمانية: "أنا هولندي".

ردد أحد الجنود بالألمانية: "هولندي؟"

ولكن قبل أن يتمكن أندرو من بدء حوار مع الجنود، اقترب الضابط الذي يرأسهم، وتحرك الجنود بسرعة وكل منهم ممسك بنسخته من "طريق الخلاص".

سأل قائد الوحدة بالألمانية: "ما الذي تمسكون به هنا؟"

قدم أندرو للضابط نسخة من الكتيب، وتصفحه الضابط بتكشيرة على وجهه. كان قلب أندرو يدق بشدة وهو ينتظر ليرى إن كان قد تجاوز الحد أم لا. هل سيقبض عليه الضابط أم يسمح له بالانصراف؟

بعد مرور عدة دقائق من تصفح الكتيب، بدأ الضابط يسأل أسئلة عنه. طيلة الساعتين التاليتين تحدث أندرو والضابط عن رسالة الكتيب. وعندما انصرف الضابط أخيرًا، شعر أندرو بالسرور لأنه واجه مخاوفه ووصل إلى الجنود. لقد كان متأكدًا أن الكتيبات سوف يكون لها تأثير عليهم.

بنهاية الأسبوع، كان أندرو قد وزع كل نسخ "طريق الخلاص" التي أحضرها معه.

وفي الأحد التالي، وجد أندرو مرة أخرى كنيسة يحضرها. وفي أثناء الخدمة، دهش أندرو حين علم أنه يوجد متجر في وارسو يبيع الكتب المقدسة. حصل أندرو على العنوان، وفي يوم الاثنين انطلق يبحث عن المتجر.

مشى أندرو في شوارع وارسو حتى جاء إلى العنوان في شارع العالم الجديد. خطا أندرو إلى داخل الدكان الصغير

ونظر حوله بينما كان هناك رجل يقوم بخدمة عميل أمام المتجر. كانت هناك العديد من طبعات الكتاب المقدس موضوعة على الأرفف. بعض الطبعات كانت كبيرة، وعليها كلمات يسوع مكتوبة باللون الأحمر، والبعض الآخر كان طبعات صغيرة، مثل العهد الجديد الذي كان أندرو يحمله في جيبه. عندما غادر العميل المحل أخيرًا، تقدم أندرو نحو النضد وتحدث مع الرجل خلفه. قال بالبولندية: "صباح الخير".

رد الرجل بالبولندية، ولكن حيث أن عبارة صباح الخير كانت كل ما يعرفه أندرو من اللغة البولندية، سأله بالانجليزية: "هل تتحدث الألمانية أو الانجليزية؟"

قال الرجل: "الانجليزية".

أعرب أندرو عن دهشته لعثوره على متجر يبيع الكتب المقدسة في دولة شيوعية، وسأله: "هل توجد مكتبات للكتب المقدسة في الدول الشيوعية الأخرى؟"

لاحظ أندرو أن الرجل كان متحفظًا في رده. كانت عينا الرجل تتحرك إلى الخلف والأمام لأن الرجل كان يحاول أن يتأكد قبل أن يتكلم أنه لا يوجد شخص آخر في الدكان.

أجاب الرجل: "بعض الدول فيها مكتبات والبعض الآخر لا يوجد فيها".

بعد صمت طويل، واصل الرجل حديثه. في هذه المرة لم يكن صوته يعلو على الهمس، وكان على أندرو أن يميل إلى الأمام لكي يسمع ما كان الرجل يقوله.

قال الرجل: "إني أفهم أنه في روسيا تعد الكتب المقدسة نادرة. ويمكن تكوين ثروة عن طريق بيع الكتب المقدسة. يمكن لرجل أن يقوم بتهريب عشرة كتب مقدسة إلى داخل روسيا ويبيعها بمبلغ يكفي لشراء دراجة بخارية، ثم يقود الدراجة هنا إلى بولندا أو ألمانيا الشرقية ويبيعها مقابل الربح، ثم يستخدم هذا الربح لشراء المزيد من الكتب المقدسة التي يهربها إلى روسيا ويبيعها بمبلغ كبير، وهكذا تتواصل دائرة الربح".

أثرت كلمات الرجل على أندرو تأثيرًا كبيرًا، وعندما عاد إلى عنبر النوم في فصل الرياضيات، أخذ أندرو يتأمل في تلك الكلمات. كان الناس يهربون الكتب المقدسة إلى داخل الاتحاد السوفيتي نظير الربح. ولكن هل كان أحد يهرب الكتب المقدسة إلى ذلك البلد مجانًا، لأجل محبة يسوع

المسيح، ولأجل محبته بأن يرى الإنجيل ينتشر هناك؟

أخيرًا جاء اليوم الأخير في مهرجان الشباب الذي دام ثلاثة أسابيع. كان ذلك اليوم يتميز بموكب النصر، وهو مسيرة كبرى تخترق شوارع وارسو من قِبَل المشاركين في المهرجان. لكن أندرو قرر أن يتخطى هذا الحدث. لقد كان يومه الأخير في بولندا، وأراد أن يقضي الوقت في الصلاة لأجل الناس الذين تكلم معهم وأعطاهم نسخ "طريق الخلاص" خلال إقامته في وارسو، ولأجل الشعب البولندي عمومًا.

استيقظ أندرو مبكرًا في ذلك الصباح. كانت الشمس في بداية ظهورها عند الأفق في الشرق في الوقت الذي خرج فيه إلى الشارع. اتجه إلى واحد من أوسع شوارع المدينة ووجد مقعدًا ليجلس عليه. وعندما شعر بدفء أشعة الشمس الذهبية، سحب أندرو العهد الجديد الصغير من جيبه ووضعه على ركبته. راح يتأمل في المدة التي قضاها في وارسو. في الآحاد الثلاثة التي قضاها في المدينة، حضر عددًا من الكنائس البروتستانتية، والكاثوليكية والأرثوذكسية، حيث قوبل بحفاوة بالغة. وقد قام أيضًا بتوزيع مئات النسخ من

"طريق الخلاص" في الشوارع، وتحدث عن الإنجيل إلى بشر لا يعد ولا يحصى، سواء من الذين حضروا مهرجان الشباب أو من مواطني وارسو. والآن شعر أنه قد جاء الوقت المناسب للصلاة لأجل هؤلاء الناس.. الصلاة لكي يقوّي الله المسيحيين الذين صار في شركة معهم، وكي يحرك الله قلوب أولئك الذين أعلن رسالة الإنجيل لهم. فتح أندرو العهد الجديد على ركبته، ووضع يده عليه، وبدأ يصلي.

لم يكن أندرو مدركًا لطول المدة التي قضاها في الصلاة حتى لاحظ صوت موسيقى من بعيد. كانت الموسيقى تعلو، وعندما نظر إلى الشارع، أدرك أن موكب النصر كان يقترب. سرعان ما كان هناك صف طويل من الشباب يتكون من ثمانية يمشون جنبًا إلى جنب يسيرون أمامه. كان المشاركون في العرض ينشدون بصوت عال ويهتفون بالشعارات بأعلى أصواتهم. نظر أندرو إليهم. كان هؤلاء هم الكارزون بالشيوعية. ولكن أين الكارزون لأجل يسوع المسيح فيما وراء الستار الحديدي؟ على قدر علم أندرو، لم ترسل هيئة الكرازة العالمية مرسلاً واحدًا خلف الستار

الحديدي. ولقد كان واثقًا أن هذا كان حال باقي الطوائف الأخرى والهيئات التبشيرية في الغرب.

بينما كان أندرو يفكر في ذلك، نظر إلى العهد الجديد على ركبته. كان الكتاب مفتوحًا على سفر الرؤيا، الإصحاح الثالث. وقرأ العدد المجاور لإصبع سبابته الذي كان ممسكًا بالكتاب مفتوحًا. كان العدد الثاني من الإصحاح، وبدت الكلمات تقفز أمامه: "كُنْ سَاهِرًا وَشَدِّدْ مَا بَقِيَ، الَّذِي هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَمُوتَ".

أزعجت تلك الكلمات أندرو، وقبل أن يدرك مدى تأثيرها، كانت الدموع تنساب على خديه. هل كان الله يتكلم إليه؟ صلى أندرو قائلاً: "هل هذا ما تقوله لي، يا رب؟ هل تخبرني أن مهمتي في الحياة هي هنا وراء الستار الحديدي، مشددًا ما بقي؟"

كانت فكرة مجنونة. كان أندرو يعرف ذلك. كيف يمكن لهولندي واحد صغير السن، وبلا سند أن يحدث فرقًا في مثل هذا الحقل المرسلي الضخم؟ ولكن برغم كل محاولة بذلها لكي يطرد الفكرة، لم يستطع أندرو أن يتخلص من الشعور بأن الله كان يتحدث إليه عن مستقبله. كان لا يزال

يتأمل في تلك الفكرة عندما ركب القطار بعد ظهر ذلك اليوم في رحلة العودة إلى هولندا. هل كان الله بالفعل يوجّهه نحو خدمته المستقبلية؟

الفصل الثاني عشر

كأس الألم

على خلاف عودته من إندونيسيا، أراد كل مَن في القرية أن يسمعوا عن تجارب أندرو في بولندا. كانت هذه مفاجأة سارة، وفي خلال أسبوع من عودته، تكلم أندرو في العديد من اجتماعات المنازل في القرية عن كل الأشياء التي سمعها وفعلها عندما كان في وارسو. سرعان ما بدأت الدعوات تصل إليه من أماكن بعيدة مثل أمستردام لكي يأتي ويتحدث عن "الكنيسة المتألمة خلف الستار الحديدي". أكد أندرو أنه ليس خبيرًا في هذا الموضوع، ولكن المسيحيين كانوا شغوفين بأن يسمعوا ما يقوله على كل حال. إذ رأوا أنه قد رأى وسمع أكثر منهم بكثير.

كانت عائلة أندرو أيضًا مساندة له. ففي الوقت الذي كان فيه في مدرسة تدريب هيئة الكرازة العالمية، شيدت عائلته حجرة أخرى فوق سقيفة الحديقة، وانتقل إليها السيد فان دير بيجل. كانت الحجرة التي تخلى عنها والد أندرو أكبر حجرة في المنزل، فقد كانت دائمًا حجرة نوم. وقد تصور أندرو أن

أخته جلتج وزوجها آري سوف يرغبان في الحصول عليها. ولكنهما لم يفعلا. وبدلاً من ذلك فقد أخبرا أندرو أنه يجب عليه أن ينتقل إلى الحجرة. لقد اتخذا قرارًا بأن يستخدمها أندرو ليس فقط كحجرة نومه، بل أيضًا كالمقر الرئيسي لخدمته.

شعر أندرو بالتواضع أمام بادرة جلتج وآري. لكنه شعر أيضًا بشيء من القلق. كان يبدو له أن الجميع يعتقدون أنه كان يعرف ما سوف يفعله بحياته. على أي حال، فقد كانت لديه ارتباطات لإلقاء الأحاديث، وأصبح لديه "مركز قيادة"، وطُلب منه أن يكتب سلسلة من المقالات في المجلات عن الشيوعية والمسيحية.. وكل ذلك لأنه ذهب إلى بولندا لمدة ثلاثة أسابيع لحضور مهرجان للشباب. ربما كان الآخرون يثقون أن أندرو يعرف إلى أين سيتجه. ولكن الحقيقة، أن أندرو لم تكن لديه فكرة حقيقية عما يريد منه الله أن يفعل بعد ذلك. كان متأكدًا أن الله قد تكلم إليه خلال اليوم الأخير في وارسو، ولكن بما أن أندرو لم تكن لديه فكرة عن كيفية تنفيذ مثل هذه الدعوة، فقد قرر أنه يجب عليه فقط أن يقتنص الفرصة التالية التي تلوح له مع الصلاة أن يريه الله

الطريق.

وهذا ما حدث، ولكن ليس بطريقة كان يمكن لأندرو أن يتنبأ بها. عندما انتهى أندرو من الحديث إلى جمع غفير في أمستردام، اتجهت نحوه مباشرة امرأة بدينة. تعرَّف أندرو على المرأة في الحال. كانت هذه المرأة قائدة للفريق الهولندي في مهرجان الشباب في وارسو. وقفت المرأة أمامه بصلابة ودخلت إلى لب الموضوع مباشرة. قالت المرأة: "أنا غير موافقة على ما قلته الليلة".

أجاب أندرو: "لم أعتقد أنك ستوافقين".

قالت المرأة: "لقد ركزتَ على توابع الثورة التي لا زلنا نحن الشيوعيين نحاول تغييرها. يجب عليك أن تنظر إلى المستقبل وتدرك أننا نقدم العديد من المزايا لشباب اليوم".

هز أندرو كتفيه وهو يقول: "لقد تحدثت فقط عما رأيته بأم عينيّ والتجارب التي مررت بها".

هاجمت المرأة هذه العبارة وهي تقول: "هذا بيت القصيد. أنت بحاجة لرؤية المزيد حتى تستطيع أن تتكلم بإيجابية أكثر. أنا مسئولة عن الإشراف على مجموعة من ١٥ شخصًا للقيام برحلة إلى تشيكوسلوفاكيا لاستكشاف الحقائق.

سوف نمضي هناك شهرًا. لدينا مربون وأناس على دراية جيدة بنقل المعلومات، ونحن بحاجة إلى شخص له منظور كنسي. هل تحب أن تأتي؟"

هز أندرو رأسه بعدم الموافقة، فلديه بالكاد المال الكافي لدفع أجرة الحافلة إلى بلدته سانت بانكراس، ناهيك عن المال الكافي للقيام برحلة ثانية خلف الستار الحديدي. أجابها بالقول : "ليس لديَّ مال".

نظرت إليه المرأة من أعلى إلى أسفل بنظرة قاسية على وجهها وأجابت بحدة: "سوف أدبر موضوع المال. إذا أردت أن تأتي، فلتقل هكذا".

نظر أندرو إليها. هل تعرض عليه حقًا رحلة مجانية إلى تشيكوسلوفاكيا؟ ثم سألها: "وهل سوف تتولين أمر التأشيرات؟"

قالت له: "كل شيء معمول حسابه من قبل. ما رأيك؟ هل ستأتي؟"

ابتسم أندرو وهو يقول: "متى سنسافر؟"

في طريق عودته إلى بلدته بالحافلة في تلك الليلة، لم يستطع أندرو أن يصدق ما حدث للتو. سوف يذهب في

رحلة ثانية إلى ما وراء الستار الحديدي. هل هـذه مجـرد مصادفة، أم أن الله يدبر أمرًا خطيرًا."

في صباح يوم بارد من أيام شهر نوفمبر، بعـد مـرور ثلاث سنوات على زيارته إلى وارسو، وجد أنـدرو نفـسه يقف في براج. كان المطر ينهمر، وهو يستمع إلى مرشـدة رحلتهم وهي تشرح انجازًا رائعًـا آخـر مـن انجـازات الشيوعية. مضى على أندرو الآن في تشيكوسلوفاكيا ثلاثـة أسابيع، وكان كل يوم يمضي على نفس الوتيرة. كان أندرو والأربعة عشر عضوًا من أعضاء الفريـق يـتم قيـادتهم كالقطيع لرؤية نماذج وأحداث معينة، في الوقت الذي كانت فيه مرشدة رحلتهم تشرح مآثر الشيوعية وتبـرز كيـف أن الشعب التشيكي أكثر حرية الآن عمـا كـانوا عليـه فـي الماضي. كان أندرو يشك في ذلك، ولكن كان من الـصعب إيجاد أي دليل يبطل ذلك. كانـت قائـدة الرحلـة، المـرأة الهولندية البدينة التي جندت أندرو للرحلة، تـضعه تحـت مراقبتها الصارمة، مع التأكد أنه كان في مقدمة المجموعة. وكانت تعد أفراد المجموعة للتأكد أن أحدًا لا يضل الطريق، ولكن أندرو كان مقتنعًا أنها كانت قلقة بشأن انطلاقه بعيـدًا

واستكشافه براج لوحده. كان أندرو يتمنى أن يفعـل هـذا، ولكنه لم يكن يعرف كيف يمكنه عمل ذلك.

في نفس الوقت، قدمتْ مرشدة الرحلـة لأنـدرو نظـرة رسمية عن "التعاون المتناغم" بين الكنيسة والحكومة. وقالت له: "إن الحكومة لا ترغب في التدخل في العقائد الدينية"، ثم أردفت بالقول: "في الواقع، إن الحكومة قد خصصت مرفقًا بأكمله لإنتاج طبعة جديدة ومنقحة للكتاب المقدس. هل تحب أن تزوره؟"

أجاب أندرو: "بالطبع".

في اليوم التالي انطلق أندرو ومرشدة الرحلة إلى وسـط براج، إلى مبنى مكتبي كبير يدعى المركز الكنسي. شرحت المرشدة أن المبنى كان مركزًا لكل الكنائس البروتستانتية في البلاد. في داخل المبنى، شق أندرو والمرشدة طريقهما فـي متاهة من الطرقات المظلمة حتى وصلا إلى حجرة كبيـرة. كان يجلس بداخلها عدد من البـاحثين يرتـدون معـاطف سوداء، وكان بعضهم يكاد يختفي وراء أكوام مـن الأوراق والكتب المكدسة فوق مكاتبهم. تحدث أندرو إلى واحد مـن الباحثيـن بالألمانيـة. سأله أنـدرو: "هل يمكننـي أن أرى

الترجمة الجديدة؟"

نهض الباحث ومشى نحو مكتب آخر. عاد بعد لحظات. توقع أندرو أن يقدم له نسخة مجلدة من الكتاب المقدس الجديد، ولكن بدلاً من ذلك سلمه الباحث مخطوطة مطبوعة على الآلة الكاتبة، وكانت صفحاتها بالية من التداول المستمر.

سأل أندرو: "ألم تنشر الترجمة بعد؟"

أجاب الباحث: "كلا، ليس بعد، ولاحظ أندرو الحزن في عينيه وهو يجيب".

قال الباحث: "إن الترجمة مكتملة لدينا منذ الحرب، ولكن..."

قاطعته مرشدة الرحلة قائلة: "يعمل الباحثون الآن على إنتاج قاموس للكتاب المقدس".

نظر الباحث بارتباك إلى مرشدة الرحلة ثم جلس أمام مكتبه.

سأل أندرو: "هل قاموس الكتاب المقدس جاهز؟"

أجاب الباحث: "تقريبًا".

قال أندرو فورًا: "ولكن ما فائدة قاموس الكتاب المقدس

إذا لم تكن هناك كتب مقدسة؟ هل هناك ترجمات سابقة للكتاب المقدس؟".

ظل الباحث الكتابي صامتًا لحظة، ثم اندفع يقول بسرعة: "كلا. من الصعب.. بل من الصعب جدًا أن تجد كتبًا مقدسة في تشيكوسلوفاكيا هذه الأيام".

إلى هنا أنهت المرشدة الرحلة الزيارة، واقتادت أندرو ليخرج من مبنى المركز الكنسي.

كان أندرو هادئًا جدًا على العشاء في تلك الليلة. كان يفكر في مدى لؤم الشيوعيين. فبدلاً من أن يمنعوا تداول الكتاب المقدس علانية، أعلنوا أنهم بصدد إنتاج طبعة أفضل. ولكنهم لم ينووا نشر هذه الطبعة الأفضل. كلما فكر أندرو في ذلك، كان يصاب بالإحباط. كان الغد، يوم الأحد، هو آخر يوم كامل له في تشيكوسلوفاكيا، ولم يتمكن بعد من العثور على طريقة للتحدث على انفراد مع أي مسيحي. أصر أندرو أنه بطريقة أو بأخرى سوف يجد وسيلة ليفعل ذلك.

في صباح اليوم التالي انطلقت المجموعة في جولة أخرى بالحافلة لزيارة مواقع ثورية هامة. كان من المتوقع أن

تجعل مرشدة الرحلة الحافلة تتوقف عند كل موقع في الوقت الذي تشرح فيه لماذا لعب ذلك الموقع المعين دورًا هامًا في الاستيلاء الشيوعي على البلاد. عند محطة التوقف الثانية، تمكن أندرو من وضع نفسه في مؤخرة الحافلة، وهو يبحث باستماتة عن طريقة ما للهروب من المجموعة.

عندما جلس في المؤخرة، استقرت عيناه على الباب الخلفي على يساره. كانت مفصلة الباب بها عيب، تسبب في ترك فجوة تبلغ حوالي ثلاثين سنتيمتر إلى جانب الباب عندما يكون مغلقًا. كتم أندرو أنفاسه. هل بإمكانه أن يعصر نفسه من خلال فجوة تبلغ ثلاثين سنتيمتر؟ نعم! كان متأكدًا من قدرته على ذلك. جلس صابرًا في المؤخرة بينما استكملت الحافلة جولتها. عند كل تقاطع كان أندرو ينتظر أن يتطلع الجميع نحو الأمام، ولكن كان هناك دائمًا شخص ما ينظر إلى شيء ما بالوراء. أخيرًا توقفت الحافلة أمام تمثال برونزي لرجل يمتطي صهوة جواد.

انطلقت قائدة الرحلة في حديث حماسي عن أهمية التمثال. أخذ الجميع ينظرون إلى التمثال.. الجميع باستثناء أندرو، الذي رأى في هذا فرصته. فتسلل بهدوء من مقعده،

وتحرك نحو الباب المعيب. ألقى أندرو نظرة أخيرة على زملائه الركاب، الذين كانوا ينصتون جميعًا لمرشدة الرحلة. فأخرج زفيرًا، وحشر نفسه في الفجوة بالباب. شعر بالطريق تحت قدميه وتمكن من سحب بقية جسده من خلال الفجوة قبل أن تطلق الحافلة سحابة من دخان العادم الأزرق اللون وتواصل مسيرتها.

لأول مرة في الرحلة، كان أندرو وحده في تشيكوسلوفاكيا. نظر حوله. كان متأكدًا أنه رأى كنيسة قريبة في جولة سابقة بالحافلة في هذا الجزء من المدينة. رجح أن تكون ناحية الشرق، فانطلق يمشي في ذلك الاتجاه. وفعلاً بعد عشر دقائق كان يجلس في الصف الخلفي لإحدى الكنائس. عندما وقف الجمهور ليرنم ترنيمة، لاحظ أندرو شيئًا جعله يتساءل إن كان كل من في المبنى لديهم طول نظر. كان كل الذين لديهم كتب ترنيم يرفعونها إلى أعلى بطول الذراع. وكان آخرون يفعلون نفس الشيء بالكراسات.

بعد دقائق قليلة، استنتج أندرو أن الناس لم يكونوا جميعًا طوال النظر كما ظن.. إنما كانت كتب الترانيم قليلة العدد. وكل مَن كان محظوظًا بما فيه الكفاية ليحصل على واحد

كان يمسكه بهذه الطريقة حتى يستطيع أكبر عدد ممكن من الناس أن يرى كلمات الترنيمة. كذلك نسخ الناس كلمات الترانيم باليد على صفحات الكراسات ورفعوها لأعلى لنفس السبب. وعندما كان الراعي يقتبس الشواهد الكتابية أثناء عظته، كان القليلون الذين يمتلكون كتبًا مقدسة يرفعونها لأعلى بنفس الطريقة لكي يراها مَن حولهم. أدرك أندرو فجأة كم كان الكتاب المقدس الهولندي الصغير في جيبه ثمينًا.. وكم كانت الحرية لامتلاك كتاب كهذا، عندما يرغب الإنسان في ذلك، ثمينة حقًا.

في نهاية الخدمة صافح أندرو راعي الكنيسة وقال بهدوء: "يا أخي، أنا مؤمن من هولندا. أنا هنا لأتقابل مع المسيحيين في بلدك".

قال الراعي: "تعال من فضلك وتحدث معي، يا أخي. أنت أول مؤمن نلتقي بهِ من الغرب منذ سنوات عديدة".

بعد وقت قصير كان أندرو يجلس في شقة الراعي، يحتسي القهوة ويستمع إلى ما يقوله الراعي.

"الأمور عصيبة هنا، فالحكومة تحاول أن تفرض سيطرتها الكاملة على الكنيسة. حتى طلاب اللاهوت يتم

اختبارهم من قِبَل الحكومة. والذين يؤيدون النظام فقط هم الذين يُسمح لهم بدراسة اللاهوت. عليَّ كراع أن أجدد رخصتي كل شهرين. على جميع الرعاة أن يفعلوا هذا. وقد حدث مؤخرًا أن رُفض طلب صديق لي بتجديد رخصته. لم تذكر الحكومة السبب. وهم ليسوا مضطرين لذكره." شرب الراعي جرعة من القهوة وواصل حديثه: "وحتى مع وجود الرخصة فنحن لسنا أحرارًا حتى نعظ ما نريد. علينا أن نكتب كل عظة مقدمًا لكي توافق عليها الحكومة قبل أن نتمكن من أن نعظها".

لم يعرف أندرو كيف يتقبل هذه المعلومة. كل ما استطاع أن يفعله أنه أطلق صفارة خفيضة.

قال الراعي: "سوف يكون لدينا خدمة أخرى الآن، يا أخي. أريدك أن تأتي وتتحدث إلينا".

سأل أندرو: "ولكني فهمت أن العظات يجب أن تتم الموافقة عليها مقدمًا!"

قال الراعي مع بريق في عينيه: "أنا لا أطلب منك أن تعظ أريدك أن تهدي لنا 'التحية' من المسيحيين في بلدك.. وإذا أردت، يمكنك أيضًا أن تهدي لنا 'التحية' من الرب يسوع".

هذا ما فعله أندرو بمساعدة طالب طب شاب يدعى أنطونين عمل كمترجم له. قدم أندرو تحية موجزة من المسيحيين في هولندا والغرب، ثم قضى الثلاثين دقيقة التالية مقدمًا للشعب التحية والسلام من يسوع المسيح. قدر الجمهور كلماته للغاية، حتى أنهم احتشدوا حوله ليصافحوه في نهاية الخدمة.

كانت هذه الطريقة ناجحة لدرجة أن أندرو وأنطونين قضيا بقية فترة ما بعد الظهر يقدمان التحية لأربعة كنائس تشيكوسلوفاكية أخرى. كانت الكنيسة الأخيرة التي زاراها هي كنيسة في مقاطعة مورافيا على الجانب الآخر من براج. احتشد حوالي مائة شخص في الكنيسة. ودُهش أندرو لأن حوالي أربعين من هؤلاء كانوا شبابًا فيما بين الثامنة عشر والخامسة والعشرين من العمر.

في نهاية هذه الخدمة، قدم أندرو تحياته، واحتشد عدد من الشباب حول أندرو وأمطروه بوابل من الأسئلة. لم يستطع هؤلاء الشباب أن يصدقوا أن المسيحيين في هولندا والغرب لا يُعاقبون لكونهم مسيحيين. وقالوا أن كون المرء مسيحيًا في تشيكوسلوفاكيا كان يعني أن يُعامل كمواطن درجة ثانية.

فالحكومة التشيكية لم تسمح للمسيحيين بتولي الوظائف الجيدة أو دخول الجامعة. كان كون المرء مسيحيًا يعني تحمل قدر كبير من الألم بالنسبة لهؤلاء الشباب.

بينما كان الحوار على وشك أن ينتهي، قدم واحد من الشباب لأنطونين دبوسًا فضيًا لصدر السترة.

أوضح أنطونين لأندرو ذلك بالقول: "إنهم يريدونك أن تحصل على هذا كهدية للذكرى".

نظر أندرو لدبوس السترة، الذي كان على شكل كأس صغيرة وقال: "ماذا تعني هذه الكأس؟"

قال أنطونين، وهو يثبّت الدبوس في صدر سترة أندرو: "إنها رمز كنيسة تشيكوسلوفاكيا، نحن ندعوها كأس الألم".

عندئذ قال واحد من الشباب شيئًا، وترجم أنطونين كلماته. "الآن أنت شريك في الكأس معنا. عندما يسألك أهل هولندا عن الكأس، أخبرهم عن المسيحيين التشيك. قل لهم أننا في ألم، وأننا نعاني".

حل الظلام على براج في الوقت الذي ودع فيه أندرو أنطونين، وانطلق للبحث عن مجموعة الرحلة. تساءل كيف تعامل أفراد المجموعة مع اختفائه. قال لنفسه: "لا شك أنه لا

يمكن أن يحدث شيء سيء نتيجة لذلك".

عندما عاد إلى الفندق، لم تكن المجموعة هناك، ولم يكونوا في المطعم حيث كانوا يأكلون في معظم الليالي. طلب أندرو شطيرة، وما أن قضم قطعة صغيرة حتى دخلت الحجرة قائدة الرحلة، المرأة الهولندية البدينة. كان وجهها محمرًا، وكان فمها مغلقًا تمامًا. أشارت لأندرو أن يتبعها. فنهض أندرو من أمام المائدة، وتبعها إلى خارج الباب الأمامي للمطعم، ثم إلى سيارة ليموزين كانت في الانتظار. لم يتبادلا أي كلمة، وافترض أندرو أنها كانت غاضبة منه جدًا لدرجة أنها لم ترد أن تتكلم.

كان أندرو على حق. فقبل أن يرجعا إلى الفندق، لم تستطع المرأة أن تحتفظ بصمتها أكثر من ذلك. انفجرت فيه قائلة: "لقد جمدتَ حركتنا نصف يوم بأكمله. لقد بحثنا عنك في كل مكان.. في كل المستشفيات، وأقسام البوليس، وحتى المشرحة. والآن أجدك تأكل سندوتشًا بكل هدوء. أين كنت؟"

دس أندرو يديه في جيبيه حتى لا تراه وهو يرتعش. قال دون مبالاة على قدر ما استطاع: "أوه. لقد ابتعدتُ عنكم. لذا قررت أن أقوم بقليل من الاستكشاف وحدي. لم يكن لديَّ

فكرة أن ذلك يمكن أن يتسبب لكم في كل هذا القــدر مــن الانزعاج. أعتذر".

ردت المرأة بحدة: "هذا ليس كافيًا. لن يتم الترحيب بــك رسميًا هنا مجددًا. إني آسفة لأني أحضرتك في هذه الرحلة. إذا حاولت أن تعود إلى هذا البلد، سوف تجد طريقك مسدودًا عند الحدود. سوف أتكفل أنا شخصيًا بذلك".

كان أندرو يحملق إلى خارج نافذة الليموزين. هل ضــل الطريق بطريقة ما، أم أن كل هذا كان جزءًا مــن الخطــة الإلهية؟ لم يكن يعرف الجواب.

الفصل الثالث عشر

لا ترضى بالرفض

عند عودة أندرو إلى سانت بانكراس شعر بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. على الرغم من أنه كان لديه الكثير كي يُشغله. كتب إلى سفارات العديد من الدول خلف الستار الحديدي، يطلب الحصول على تأشيرات للسفر إلى هناك، ولكنه لم يتلق أي إجابات على طلباته. بعدما رُفض طلبه مرات عديدة، بدأ يشك إن كان المفروض أن يذهب مرة أخرى إلى الناس خلف الستار الحديدي. كانت النقود قليلة أيضًا. وكان أندرو يشعر بالضيق لأنه لم يستطع أن يساهم في زيادة دخل العائلة. كان كل ما استطاع أن يفعله هو كتابة الخطابات إلى الناس والسفارات ويصلي.

بدأ موقف أندرو يتغير ببطء. كتب أندرو مقالاً عن محنة المسيحيين في الدول الشيوعية. نُشر المقال في مجلة، ونتيجة لنشره، أرسل العديد من القراء مالاً لمساعدة أندرو في مهمته. كانت المبالغ المرسلة قليلة، ولكن كذلك كانت احتياجات أندرو قليلة: كتاب مقدس تشيكي لأنطونين،

مترجمه في براج، و سترة جديدة.

سرعان ما حدث شيء آخر. تلقى أندرو خطابًا من رجل في أميرسفورت لم يسبق له أن قابله. قدم الرجل نفسه باسم "كارل دى جراف". قال الرجل أن الله وجَّه مجموعة الصلاة التابعة له كي يطلبوا من أندرو أن يأتي ويتحدث إليهم. كان الأمر يبدو غريبًا بالنسبة لأندرو، ولكنه قرر أن يذهب على كل حال. كانت أميرسفورت قريبة من أرميلو، وكان بإمكان أندرو أن يزور أخيه بِن وهو هناك.

لم يكن اجتماع الصلاة في أميرسفورت مشابهًا لأي اجتماع صلاة ذهب إليه أندرو. كان حوالي ١٢ رجلاً وامرأة مجتمعين في دار عائلة دي جراف. لم تكن هناك دراسة كتاب في البداية، ولم يكن هناك تركيز على شيء محدد في صلواتهم. ولكن كان الناس جالسين يصغون لله ليكلمهم عن موضوع ما، مما كان يعني أنه كانت هناك فترات صمت طويلة في تلك الأثناء. عندما يشعر أحدهم أن الله قد كلمه، كان يصلي بشأن ذلك بحرارة. دُهش أندرو بسبب بعض الأشياء التي كان يصلي الناس لأجلها، ولكن أكثر ما أدهشه في الحجرة حرارة الناس والمحبة والرابطة

القوية التي تربطهم بعضهم ببعض وبالله. بدا الوقت في اجتماع الصلاة بالنسبة لأندرو يجري بسرعة، وقد ذُهل حين علم عندما انتهى الاجتماع أخيرًا أنها كانت الساعة الرابعة والنصف صباحًا!

بعد أسبوع، بينما كان أندرو يكتب مقالاً آخر للمجلة، سمع طرقًا على الباب. لفرط دهشته كان هو كارل دي جراف. دخل كارل في صلب الموضوع مباشرة حيث قال: "يا أندرو، لقد جئتَ لأسألك سؤالاً. هل تعرف كيف تقود سيارة؟"

عاد عقل أندرو إلى الوراء حوالي تسع سنوات عندما فقد السيطرة على ناقلة الجنود ماركة برن. كان مجرد التفكير في الأمر يجعله يريد أن يضحك، ولكنه أدرك أن كارل كان جادًا فأجاب: "لا، يا سيدي".

قال كارل: "حسن، أنت بحاجة للتعلم. في الليلة الماضية عندما كنا نصلي، أوصانا الله أن نخبرك أنه من الأهمية بمكان لمستقبلك أن تتعلم القيادة وتحصل على رخصة قيادة".

أومأ أندرو رأسه بالموافقة. ولدهشة أندرو، استدار كارل وانصرف. قال كارل وهو ينصرف: "تعلم القيادة يا أندرو".

لم يشغل أندرو عقله كثيرًا بتلك المداخلة التي لم تستغرق سوى دقيقتين طوال يومه، ولكنه أخذ يتساءل كيف يمكنه أن يتعلم القيادة. لم يكن أحد في القرية لديه سيارة. في الواقـــع، كانت عائلة ويسترا هي العائلة الوحيدة التي كـــان يعرفهـــا وتمتلك مركبة آلية. وقد كانوا يعيشون الآن في أمـــستردام، وليس من المعقول أن يقطع كل تلك المسافة حتـــى يعطـــوه دروسًا في القيادة. كانت الفكرة بأكملها غير واقعية. ومـــع ذلك، فبعد أسبوع عاد كارل.

قال كارل لأندرو وهو يصافحه ويتكلم معه كما لو كـــان يتكلم مع صبي في المدرسة: "لا أعتقد أنك سوف تفعـــل أي شيء حيال هذا الموضوع. تعال.. سوف أعلمك بنفسي".

اتضح أن أندرو يتعلم بسرعة، ففي خلال شهر اســـتطاع الحصول على رخصة قيادة. بدا حصوله على رخصة قيادة سخيفًا بالنسبة له؛ فهو لم يكن قادرًا علـــى شـــراء دراجـــة لنفسه، دع عنك شراء سيارة. ولكنه اضطر للاعتراف بـــأن وجود الرخصة في جيبه كان شيئًا جميلاً.

في ربيع سنة ١٩٥٦ ثار سكان المجر ضـــد الحكومـــة الشيوعية العميلة التي أقامها الاتحاد السوفيتي فـــي نهايـــة

الحرب العالمية الثانية. وفي النهاية تم إرسال الدبابات السوفيتية إلى المجر لإحلال النظام ومساندة الحكومة، على الرغم أن ذلك لم يحدث قبل أن يفر آلاف المجريين من بلدهم ويعبروا الحدود إلى النمسا. كان هؤلاء الناس يعيشون في معسكرات لاجئين ضخمة بالقرب من الحدود وكانوا في حاجة ماسة للعون. عندما وصلت الأخبار إلى هولندا عن احتياجات هؤلاء اللاجئين، كان أندرو واحدًا من أوائل الذين وافقوا على الذهاب وتقديم المساعدة. في الواقع، كان أندرو في أول حافلة تترك هولندا متجهة إلى معسكرات اللاجئين في النمسا. لقد تزاحم هو والعديد من المتطوعين الآخرين في مقدمة الحافلة، لأن بقية الحافلة كانت مكدسة بإمدادات الطعام والكساء والدواء.

في النمسا وجد أندرو اللاجئين يعيشون في أحوال يرثى لها. كان ما يقرب من ١٢ عائلة يعيشون فوق بعضهم البعض في مبنى واحد. كان الناس قذرين وجائعين ويائسين. وسرعان ما علم أندرو أنه ليس المجريون فقط هم الذين يعيشون في معسكرات. كان آلاف اللاجئين من يوغوسلافيا الشيوعية هناك أيضًا، وفي ألمانيا الغربية كان المزيد من

معسكرات اللاجئين مكدسًا بالناس الذين هربوا من ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا.

بينما كان المتطوعون يوزعون الإمدادات ويعملون بين اللاجئين. دُهش أندرو لعدم معرفة اللاجئين عن المسيحية، وبنوع خاص، فيما يتعلق بالكتاب المقدس. بدأ يقدم دروسًا ليعلم الناس أهم التعاليم الأساسية عن الكتاب المقدس. وباستخدام المترجمين علَّم أولئك الذين كانوا يحضرون يوميًا ما قاله الكتاب المقدس عن الله وكيف يمكن للناس أن تكون لهم علاقة معه.

ذُهل أندرو للتغيير الذي أحدثته هذه المعرفة في حياة اللاجئين الذين حضروا دروسه. إذ بدأت آثار سنوات اليأس المحفورة على وجوههم تُمحى ببطء، لتحل محلها الابتسامات، وتحول يأس الناس إلى رجاء.

سرعان ما نفذت الإمدادات التي كان المتطوعون قد أخذوها معهم. عاد أندرو إلى وطنه في سانت بانكراس مدة كافية ليجمع المزيد من الطعام والكساء والدواء والكتب المقدسة قبل العودة إلى ألمانيا الغربية والنمسا كي ما تستمر جهود الإغاثة. كان العمل مرهقًا، ولكن أندرو كان سعيدًا

لأنه كان باستطاعته تقديم بعض العزاء لهؤلاء اللاجئين الذين فقدوا كل شيء.

بعد مضي ثلاثة أسابيع على العودة بالمزيد من الإمدادات، تلقى أندرو برقية من أخته، تخبره فيها أن والدهما قد انهار ومات في حديقته. كان أندرو في برلين الغربية في ذلك الوقت، ولحق بأول قطار عائدًا إلى هولندا. كانت جنازة السيد فان دير بيجل بسيطة ومؤثرة. كان منزل العائلة في سانت بانكراس يبدو خاليًا الآن بدون وجود الوالد فيه، لذا شعر أندرو بالسرور لعودته إلى عمله وسط اللاجئين.

علم أندرو أن معسكرات اللاجئين في برلين الغربية لم تكن جديدة، مثل المعسكرات التي كانت تأوي المجريين واليوغوسلافيين في النمسا. كانت معسكرات اللاجئين الألمان موجودة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. كانت مليئة بالناس الذين فقدوا كل شيء في الحرب، والآن بدوا كأن العالم قد نساهم. كان عدد كبير من الأطفال يعيشون في المعسكرات، لأنهم قد ولِدوا ونشأوا هناك. وفي هذا المعسكر كان الشخصان العازبان يحصلان على مكانين منفصلين..

الأمر الذي كان أفضل وأكثر اتساعًا من المكان الذي يُمنح لزوجين. لذا فإن عددًا كبيرًا من الأطفال كانوا نغولاً (غير شرعيين) وفي الكثير من الحالات كانوا بلا عائلة تهتم بهم.

عمل أندرو جاهدًا لترتيب ذهاب بعض هؤلاء الأطفال اللاجئين إلى هولندا، حيث كانت هناك عائلات على استعداد لتبنيهم. ومع ذلك، فقد ثبت أن الخطة كانت أكثر صعوبة عما تصورها أندرو. قبل السفر إلى هولندا، كان لابد للأطفال أن يجتازوا امتحانًا طبيًا. ولسوء الحظ، كان السل الرئوي قد أصبح وبائيًا في معسكرات اللاجئين. في الواقع لم يكن أحد يعيش هناك دون أن يصاب بالمرض. وكنتيجة لذلك، فقد رسب الأطفال في الامتحان الطبي ولم يكن السفر إلى هولندا متاحًا لهم.

بينما كان أندرو يعمل جاهدًا في أحد الأيام المكتظة بالعمل في معسكر اللاجئين، طرأت على ذهنه فكرة غريبة. كان هناك هاجس يقول له: "اليوم سوف تحصل على تأشيرتك لدخول يوغوسلافيا". لم يكن يعرف أندرو من أين جاءته الفكرة، ولكنه انتظر بشغف بريد الصباح ليرى إن كان ذلك صحيحًا أم لا. لقد كان هناك بلا ريب خطاب

رسمي من القنصلية اليوغوسلافية أرسلته أخته جلتج من هولندا. فتح أندرو الخطاب بشغف وقرأ: "إن طلبك للحصول على التأشيرة قد رُفض".

أخذ أندرو يحملق في الكلمات مدة طويلة. لقد كانت تتضمن نقيض ما كان يتوقع أن يقرأه تمامًا. هل كان حقًا ما سمعه في رأسه في وقت مبكر من اليوم هو صوت الله، أم كان هذا من خياله الخاص؟ ولكن عندما فكر في الأمر، استنتج أندرو أنها كانت مصادفة غريبة أنه بعد كل شهور الانتظار هذه، يصل رفض التأشيرة في نفس ذلك اليوم، ثم سمع الصوت في رأسه مرة ثانية. "لا ترضى بالرفض!"

بدأ أندرو يتحرك. "اليوم سوف أحصل على تلك التأشيرة!" قال هذا وهو يسرع إلى حجرته ليجمع بعض الصور الشخصية بالمقاس المطلوب لجواز السفر، ويغير ملابسه. انطلق نحو السفارة اليوغوسلافية في برلين الغربية.

كان وقت الغداء عندما وصل إلى السفارة، وهو وقت متأخر جدًا للحصول على أي نوع من الاهتمام في يوم عادي، ولكن أندرو صعد السلالم على كل حال. جلس وملأ الاستمارة الضرورية لطلب التأشيرة، غير أنه في هذه المرة

فقط لم يكتب كلمة "كارز" فـــي الـــسطر المجـــاور لكلمـــة "الوظيفة".

صلى في صمت: "ماذا يجب أن أكتب، يا الله؟"

طرأت على ذهنه كلمة "معلم"، وأخذ أندرو يفكر في آيات الكتاب المقدس التي تأمر المؤمنين بالذهاب إلى العالم وتعليم كل الأمم. نعم، إنها ليست أكذوبة أن يقول إنه معلم.

لفرط دهشة أندرو، أشار موظف إليه بالذهاب إلى مكتب وقال له: "اجلس ها هنـــا وســـوف أفحـــص طلبـــك أثنـــاء انتظارك".

سلَّم أندرو استمارته وجلس قلقًا في الوقت الذي كان فيـــه الرجل يراجع طلبه. وبعد دقائق قليلة، نهض الرجل ومشى بعيدًا. عاد بعد عشرين دقيقة. قال له: "تفضل، يا مستر فان دير بيجل. شكرًا لانتظارك، واستمتع بزيارتك ليوغوسلافيا".

بهذه السهولة، حصل أندرو على التأشـــيرة التـــي كـــان ينتظرها لعدة شهور، وقد حصل عليها في نفس اليوم الـــذي وصله فيه خطاب من القنصلية في هولندا يفيد رفض طلبه. كان أندرو يشعر بالذهول التام، حين عاد إلى الفندق الـــذي كان يقيم فيه بالقرب من معسكر اللاجئـــين، أراد أن يخبـــر

شخصًا ما عن الخبر السار. ولم يكن هناك تليفون في منزل فان دير بيجل في سانت بانكراس، ولذا قرر الاتصال بعائلة ويسترا في أمستردام.

قال صوت السيد ويسترا على الطرف الآخر من خط التليفون: "ألو".

قال أندرو: "ألو، يا سيد ويسترا، أنا أندرو. أنا محظوظ لأجدك في البيت بعد الظهر".

"أندرو.. جميل أن أسمع صوتك. اعتقدت أنك في برلين. لقد شعرنا بالحزن حين سمعنا خبر وفاة والدك".

"شكرًا، يا سيد ويسترا. نعم، أنا في برلين. لديَّ خبر سار، وأردت أن أخبر به شخصًا ما. في يدي الآن خطاب من القنصلية اليوغوسلافية في هولندا يرفض طلبي للحصول على تأشيرة. تسلمت الخطاب في البريد اليوم. وفي يدي الأخرى، لديَّ جواز سفري، مختوم مع تأشيرة لدخول يوغوسلافيا، صادرة من قِبَل السفارة اليوغوسلافية هنا في برلين اليوم. أنا في طريقي إلى ما وراء الستار الحديدي ثانية" قالها أندرو وهو في غاية الفرح.

"هذا خبر سار، يا أندرو. يستحسن أن تأتي للمنزل وتأخذ

مفاتيحك".

قال أندرو: "أنا آسف، يا سيد ويسترا. لابد أن الخط رديء. تخيلت أنك قلت مفاتيح".

قال السيد ويسترا: "لقد قلت مفاتيح بالفعل يا أندرو.. مفاتيح سيارتك الجديدة ماركة فولكس واجن. لقد قررت السيدة ويسترا وأنا منذ عدة أشهر أنه في حالة حصولك على التأشيرة، أنك سوف تحصل أيضًا على سيارتك. ولذا فأنت الآن بحاجة أن تأتي إلى بيتنا وتأخذ مفاتيح السيارة".

وضع أندرو سماعة التليفون وهو يشعر بشيء من الحيرة. كيف يمكنه أن يأخذ سيارة عائلة ويسترا؟ عندما رجع إلى أمستردام، حاول بذل كل ما في وسعه ليثنيهما عن عزمهما لتقديم السيارة. ولكن عائلة ويسترا رفضت الاستماع له.

قال السيد ويسترا لأندرو وهو يسلمه المفاتيح: "لقد صلينا بشأن ذلك، ونحن واثقون أن الله أخبرنا أن نفعل ذلك. إن السيارة مطلوبة لمهمة خاصة بالملك، ويشرفنا أن نتمكن من تقديم السيارة لك".

رضخ أندرو وأخذ المفاتيح، وذهب الرجلان إلى مكتب

المرور لتغيير اسم مالك السيارة.

في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم كان أندرو يقود السيارة على طول الطريق المرتفع تجاه سانت بانكراس، وكانت يداه تقبضان بشدة على عجلة القيادة للسيارة فولكس واجن الزرقاء شبه الجديدة. عندما تخطى المعالم المألوفة عرف ما أراده الله أن يفعل بعد ذلك.. سيذهب إلى يوغوسلافيا، وسوف يذهب إلى هناك قائدًا سيارته الخاصة.

حدد أندرو لنفسه موعدًا نهائيًا هو مارس سنة ١٩٥٧ ليكون عند الحدود اليوغوسلافية. وفي نفس الوقت كان عليه أن يكتب المزيد من المقالات للمجلة المسيحية. كان أندرو يأمل أيضًا أن يتصل شخصيًا بمسيحي واحد على الأقل في يوغوسلافيا قبل رحلته، ولكن ذلك قد ثبت أنه مستحيل. كان أفضل ما يمكن أن يعمله أن يكتب خطابًا لرجل على عنوان قديم منذ ١٢ سنة كانت جمعية الكتاب المقدس الهولندية قد أعطته له.

لم تكن لدى أندرو طريقة يعرف بها إن كان الرجل حيًا أو ميتًا، دع عنك إن كان لا يزال في هذا العنوان أم لا. ولكنه كتب خطابًا غامضًا يوضح فيه أنه يود أن يتصل بالرجل.

في يوم ربيعي جميل في أواخر مـــارس ســـنة ١٩٥٧، توقف أندرو على جانب الطريق في قرية نمساوية صغيرة، على بعد دقائق من الحدود اليوغوسلافية. كانت هذه لحظـــة تقدير للموقف. كان قد قاد السيارة لمسافة ٦٠٠ ميل بسيارة مليئة بالكتب المقدسة والنبذ باللغتين السلوفينية والكرواتيـــة، والآن كان عليه أن يعبر الحدود إلى يوغوســـلافيا. ولكـــن الوثائق اليوغوسلافية كانت واضحة جـــدًا ومحـــددة. كـــان الجنرال تيتو، قائد يوغوسلافيا، قد أصدر مرسومًا بـــأن أي شخص يعبر الحدود إلى بلده يمكن أن يحضر معـــه فقـــط المتعلقات الشخصية. ولا يمكن للناس الـــذين يـــأتون إلـــى يوغوسلافيا أن يحملوا أي شيء يمكن أن يبيعوه في السوق السوداء أو يوزعوه. وكان محظورًا قطعيًا أن يـــدخل أحـــد البلاد ومعه أي مطبوعات. كانت المطبوعات تُعـــد دعايـــة أجنبية، وكان يُقبض فورًا على الشخص الذي يحملها.

على الرغم من هذا التحذير كان أندرو واثقًا أن الله قـــد فتح أمامه الباب للقيام بتلك الرحلة. لم يكن أمامه مكان آخر يذهب إليه سوى المضي قدمًا نحو الأمام.. نحـــو الحـــدود. حرك أندرو ذراع التروس لنقل الحركة وأسرع بـــسيارته.

وبينما كان يقود السيارة، كان يصلي بصوت عال وهو يقول لنفسه: "يا رب، حقيبتي مليئة بالكتب المقدسة التي أريد توصيلها لأولادك.. إخوتي وأخواتي عبر الحدود. عندما مشيت على هذه الأرض، جعلت الأعين العمياء ترى. والآن فأنا أطلب منك أن تجعل الأعين المبصرة تعمى. لا تدع الحراس يرون شيئًا واحدًا لا يصح أن يروه. آمين".

عندما أكمل أندرو صلاته، ظهرت أمامه لافتة الحدود اليوغوسلافية.

الفصل الرابع عشر

مَن تشاركه حياته

أوقف أندرو سيارته الفولكس واجن الزرقاء أمام حاجز يسد الطريق. خرج اثنان من حرس الحدود من مَخفر بجانب الحاجز. بدا أن الحارسين كانا مسرورين ومندهشين لوصول أندرو. فظن أندرو أن هذه كانت أول سيارة تقف عند الحدود للعبور في ذلك اليوم. أنزل أندرو زجاج النافذة، وطلب أحد الحارسين أن يرى جواز سفره. سلمه أندرو جواز سفره، وبينما راح يفحصه، طلب منه الحارس الآخر أن ينزل من السيارة. فعل أندرو كما طلب منه، وبعدئذ بدأ الحارس يتحسس معدات التخييم. كان أندرو يخبئ صناديق النبذ في ثنايا معدات التخييم. لذا بدأ معدل ضربات قلبه يزداد عندما أخذ الحارس يضع يديه فوق كومة المعدات. صلى أندرو في سره: "يا رب، اجعل العيون المبصرة عمياء".

سأل الحارس الأول وهو يعيد لأندرو جواز سفره: "هل لديك أي شيء تريه لنا؟"

قال أندرو: "لديَّ بعض النقود، وساعة معصم، وآلة تصوير.."

قاطعه الحارس الثاني قائلاً: "من فضلك، أخرج حقيبة الملابس هذه". كان الحارس قد انتهى من معدات التخييم، ووضع يده على إحدى حقائب الملابس بمؤخرة السيارة.

قال أندرو: "نعم، بالتأكيد" بينما اقترب ليحمل حقيبة الملابس، ووضعها على الأرض بجانب السيارة وفتحها.

حرك الحارس عدة قمصان جانبًا، فظهرت بوضوح كومة من النبذ الإنجيلية. استطاع أندرو أن يشعر براحتي يديه تتعرقان. مرة أخرى راح يصلي في سره: "يا رب، اجعل العيون المبصرة عمياء".

قال أندرو للحارس الآخر للتخلص من التوتر الذي كان يشعر به: "يبدو الجو جافًا جدًا بالنسبة لهذا الوقت من السنة".

أجاب الحارس: "ليس بالنسبة لشهر مارس. إن موسم المطر عندنا يكون في منتصف الصيف".

أجاب أندرو: "هل هذا صحيح؟ في هولندا يعد شهري سبتمبر وأكتوبر هما أكثر شهور السنة مطرًا".

قال الحارس: "إن شهر يوليو أكثر شهور السنة مطرًا".

وهنا، قال الحارس الذي كان يفحص حقيبة الملابس: "يوليو؟ لا، ليس شهر يوليو. إن أكثر شهور السنة مطرًا هو شهر أغسطس". بدا عندئذ أن الطقس كان أكثر أهمية للحارس من محتويات حقيبة ملابس أندرو. أعاد الحارس القمصان مرة أخرى إلى مكانها وأغلق الحقيبة، ثم انخرط الرجال الثلاثة في حوار عن الطقس. بعد أن تحدثوا لعدة دقائق، سأل الحارس الذي كان يفتش حقيبة ملابس أندرو: "هل لديك شيء آخر لتعلن عنه؟"

أجاب أندرو: "أشياء صغيرة فقط".

أجاب الحارس: "نحن لا نهتم بالأشياء الصغيرة".

بعد ذلك رفع الحارس الآخر الحاجز.

أعاد أندرو حقيبة الملابس إلى السيارة وانطلق إلى داخل يوغوسلافيا، وهو يلوح إلى الحارسين عند مغادرته المكان. بينما كان أندرو يقود السيارة، راح يشكر الله لأنه أتاح له أن يجتاز نقطة التفتيش بكل الكتب المقدسة.

كانت أول محطة توقف لأندرو في يوغوسلافيا هي مدينة زغرب، حيث كان قد أرسل الخطاب. بحث عن العنوان الذي قدمته له جمعية الكتاب المقدس في هولندا، وأوقف

سيارته أمامه. عندما خرج من السيارة وصعد على الرصيف، اتجه نحوه رجل وسأله إن كان هولنديًا.

أجاب أندرو بالألمانية: "نعم".

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وبدأ يحرك يد أندرو وهو يردد: "هذه معجزة، إنها معجزة!" أردف الرجل قائلاً: "لقد أستلمت خطابك هذا الصباح، مع أني لم أمكث في هذا العنوان لسنين عديدة. لم أعرف ماذا أفعل، ولذا جئت إلى هنا، قبل مجيئك بأقل من دقيقتين، والآن أنا أكلمك. أنت مسيحي، أليس كذلك؟"

أومأ أندرو رأسه ودعا الرجل، الذي كان اسمه "جميل" ليركب معه في السيارة. بينما كانت الفولكس واجن تمضي في الطريق، شكر جميل أندرو عدة مرات لمجيئه.

قال جميل: "لقد عرفت للتو أن اهتمام المسيحيين في الخارج يعني الكثير. جميعنا يشعر بالعزلة، نحن نشعر أننا وحدنا هنا".

سأل أندرو جميل إن كان يعرف شخصًا يصلح كمترجم له أثناء زيارته. اقترح جميل اسم طالب هندسة تقي يدعى "نيكولا". اتجه الاثنان نحو شقة نيكولا، ووافق نيكولا على

الفور على مساعدة أندرو بكل طريقة ممكنة.

تعجب أندرو في تلك الليلة لذلك اليوم الرائع. لقد منع الله بطريقة ما الحارسين عن رؤية أي شيء من الأدب المحظور الذي كان يحمله إلى داخل البلاد، وأرشده للاتصال بشخص مسيحي، وزوده بمترجم خلال زيارته. لم يستطع أندرو الانتظار حتى ينهض في صباح اليوم التالي ويرى ما سيحدث بعد ذلك.

كانت تأشيرة أندرو تتيح له البقاء في يوغوسلافيا لمدة ٥٠ يومًا، وقد حصل أندرو على أقصى استفادة من تلك الأيام. عقد أندرو مائة اجتماع في طول البلاد وعرضها، حيث كان يعظ في بعض الأحيان ست مرات في أيام الآحاد في الكنائس في القرى الصغيرة والمدن الكبيرة على حد سواء. في كل مكان كان يذهب إليه، كان المسيحيون شغوفين بمعرفة ما كان يحدث خارج يوغوسلافيا، بالإضافة إلى ما يحدث للمسيحيين في أجزاء أخرى من البلاد. لاحظ أندرو أن المسيحيين في شمال يوغوسلافيا كان لديهم المزيد من الحرية عن المسيحيين في الجنوب وأن الشيوعيين كانوا يتركون كبار السن لحالهم، ولكنهم كانوا يبذلون كل ما في

استطاعتهم لإثناء الأطفال والشباب عن الإيمان بما دعوه "القصص الخيالية وأساطير الكتاب المقدس".

في بعض الأحيان كان البوليس يسجل أسماء الذين يحضرون الاجتماعات حيث كان أندرو يتكلم، وكان أندرو يسمع فيما بعد أن بعض هؤلاء الناس قد قُبض عليهم أو فقدوا وظائفهم. ولكن بدا لأندرو أنه على الرغم من الخطر الواضح، إلا أن المزيد من الناس كانوا يحضرون في كل اجتماع جديد.

في ١ مايو سنة ١٩٥٧، ذهب أندرو ونيكولا إلى بلجراد بالسيارة، وهي العاصمة وأكبر مدينة في يوغوسلافيا. كان الاحتفال بيوم أول مايو الشيوعي على قدم وساق حين وصلا إلى هناك، وكانت المدينة تعج بالبشر. كانت الفنادق والمطاعم مليئة حتى آخرها، وفكر أندرو أنه بإمكانه هو ونيكولا أن يقضيا ليلتهما في السيارة. ولكنهما اتصلا بأحد الرعاة المحليين، الذي دعاهما للإقامة في شقته. في الأمسية التالية، تكلم أندرو في كنيسة الراعي.

عندما وصل إلى الكنيسة، وجد أندرو المكان مكتظًا بأناس مهذبين يرتدون أفخر الثياب. بعد أن قدمه الراعي،

وقف أندرو على المنبر وبدأ يروي للجمهور قصصًا من الأناجيل. وبعد أن ينطق عدة عبارات، كان يتوقف ويطلب من نيكولا أن يترجم كلماته إلى اللغة الصربية ــ الكرواتية. وبينما كان أندرو يتكلم، لاحظ صوت طرق على أحد الأبواب. أخذ يتساءل لحظة عما إذا كان ذلك صوت البوليس السري وهم يندفعون نحو المبنى للقبض عليه وعلى الذين في الاجتماع. ولكن، بعد لحظات اكتشف أن القرع على الباب كان صادرًا من جانب المنبر حيث كان عدة رجال قد أزالوا بابًا حتى يتمكن الناس الذين يندفعون إلى داخل غرفة الجوقة الموسيقية المجاورة من رؤيته وسماعه وهو يتكلم.

بعد تقديم الإنجيل، طلب أندرو من الذين في الحجرة أن يرفعوا أيديهم إذا أرادوا تسليم حياتهم للمسيح أو تجديد عهودهم السابقة معه. لفرط دهشة أندرو رفع كل الأشخاص الموجودين أيديهم. اعتقد أندرو أن الناس قد أساءوا فهمه، وطلب من نيكولا أن يشرح الخطوة الخطيرة التي سوف يقدمون عليها. وبعد ذلك كرر الطلب، ولكن في هذه المرة طلب من جميع الذين في الحجرة الذين أرادوا تسليم حياتهم لاتباع يسوع المسيح أن يقفوا، فوقف كل من في الحجرة.

عندما ذهل أندرو لاستجابة الناس، بدأ يتكلم معهم عــن الحاجة للصلاة في كل يوم كمؤمنين جـدد. لاحـظ أنــدرو وجوهًا عديدة مشرقة في كل مكان بالحجرة لهذا الاقتــراح. ولكن عندما أخبرهم أنهم بحاجة أيضًا لقراءة كتبهم المقدسة ودراستها كل يوم، بدا أنه يفقد اهتمــام الــسامعين. تململ الناس في مقاعدهم ولم يعودوا ينظرون إليه. شــعر أنــدرو بالارتباك وطلب من الراعي تفسير المشكلة.

أجاب الراعي قائلاً: "الصلاة، نعم، فهذا شيء يمكــن أن نعمله كل يوم. في الواقع، أنا أحب ما قلتــه عــن الحاجــة للصلاة. ولكن قراءة الكتاب المقدس.. إن معظم الناس فــي هذه الحجرة ليس لديهم كتب مقدسة يا أخ أندرو".

حيث أن بلجراد مدينة كبرى، فقد توقع أندرو أن معظــم الناس الذين حضروا الاجتماع كان لديهم كتب مقدسة. سأل أندرو هذا السؤال: "كم واحد منكم لديه كتب مقدسة؟"

ارتفعت سبعة أيادي فقط.. سبعة فقط من جميــع الــذين حضروا كان لديهم كتب مقدسة. وكان أندرو قد سبق ووزع الكتب المقدسة التي هربها إلى داخل يوغوسلافيا. في وقــت لاحق ذلك المساء عمل أندرو والراعي خطــة يمكــن مــن

خلالها أن يقتسم أعضاء الاجتماع الكتب المقدسة السبعة للقراءة الفردية وللدراسة في مجموعات صغيرة.

في تلك الليلة بينما كان يرقد في الفراش في شقة الراعي ويفكر في الموقف بشأن الكتب المقدسة، شعر أندرو بأنه قد نُخس في قلبه. كان يمكن لأي شخص في الغرب أن يشتري ويمتلك كتابًا مقدسًا. بل إن عددًا كبيرًا من الناس كانوا يمتلكون كتابين أو ثلاثة كتب مقدسة بترجمات أو طبعات مختلفة. ولكن لم يكن الحال هكذا خلف الستار الحديدي. صلى أندرو ووعد الله أن يفعل كل ما في وسعه للمساعدة على التخفيف من حدة الموقف. وعد أندرو أنه حينما يحصل على كتب مقدسة بلغات الناس خلف الستار الحديدي، فإنه سوف يهرب الكتب المقدسة للناس.

شعر أندرو بالحزن عندما انتهت أيامه الخمسين وكان عليه أن يغادر يوغوسلافيا، ومع ذلك فقد غادر البلد ولديه إدراك واضح للدعوة. كان واضحًا بالنسبة له أن الله أراده أن يُهرِّب الكتب المقدسة إلى داخل الدول الشيوعية ويوزعها على المسيحيين المنهكين والتعابى. ولكن هذه المهمة كانت مختلفة تمامًا عن أي شيء آخر قد سمع أندرو عنه لدرجة

جعلته يشعر بالوحدة. بينما كان يقود سيارته فـــي طريـــق العودة إلى هولندا، بدأ يتمنى أن يكون لديـــه علـــى الأقـــل شخص واحد يشاركه هذه الدعوة الغريبة.. ربما زوجة؟ قال لنفسه: "نعم، إني في حاجة إلى زوجة. سوف أبلغ الثلاثـــين من العمر العام القادم، وأحب أن يكون لي زوجة لتقاســـمني الحياة".

بعد أن عاد إلى سانت بانكراس، واصل أندرو التفكير في مدى روعة أن تكون له زوجة تشاركه دعوته ورسالته. في أحد الأيام، في منتصف وقت صلاته الصباحية، بـــدأ الـــرد يتكشف فجأة. رأى أندرو أمامه وجه امرأة تدعى كوري فان دام. كانت كوري امرأة شابة جميلة وشقراء وكانت تعمـــل في مصنع الشيكولاتة معه منذ ٥ سنوات مضت.

كان أندرو متـــأثرًا دائمًـــا بإيمـــان كـــوري المـــسيحية وشخصيتها الودودة.. الأمرين اللذين كان مـــن شـــأنهما أن يجذبا لها زوجًا منذ مدة طويلة. ومع ذلك، فقد كان عليه أن يعرف على وجه التأكيد إن كانت متزوجة أم لا. ولذا فقـــد أخذ دراجة والده القديمة وركب الدراجة إلى الكمار. أثنـــاء السنوات التي عمل فيها أندرو في مصنع الشيكولاتة، كـــان

والدا كوري يرحبان بالعمال في بيتهما لتناول القهوة والكعك بعد اجتماع الشباب. ونتيجة لذلك، عرف أندرو الطريق إلى بيت فان دام.. أو على الأقل ما كان ذات مرة بيت فان دام. عندما وصل إلى هناك، عرف أن العائلة قد انتقلت إلى أمستردام. وعلى قدر معرفة السكان الجدد للبيت، فإن كوري كانت تكمل التدريب على مهنة التمريض، وكانوا يعتقدون أنها ليست متزوجة.

ارتفعت روح أندرو المعنوية عندما كان يقود السيارة الفولكس واجن إلى أمستردام. اكتشف الطريق إلى العنوان الجديد لفان دام وطرق على باب منزل العائلة. عند فتح الباب، شعرت السيدة فان دام بالسرور لرؤية أندرو. وسرعان ما علم أندرو أن السيد فان دام مريض جدًا وأن السيدة فان دام افترضت أنه قد جاء لزيارة زوجها قبل أن يموت.

وهكذا بدأت فترة تودد غير عادية، كان أندرو يزور فيها السيد فان دام مرتين في الأسبوع، وكان يقضي أطول وقت ممكن مع كوري. لقد اكتشف أنها جذابة كما كانت، وأنها ذات إيمان ناضج وسلام على الرغم من الخطر المحدق

بأبيها.

في أواخر أكتوبر سنة ١٩٥٧، حصل أندرو على تأشيرة لدخول المجر. كان قد طلب التأشيرة من مدة طويلة مضت لدرجة أنه قد نسى تقريبًا كل شي عنها. ولكنه قبل السفر إلى المجر، قرر أن يطلب من كوري أن تتزوجه، وأن يدعها تفكر وتصلي بشأن الرد أثناء غيابه. ولكن في اليوم الذي اختاره ليطلب من كوري أن تتزوجه، مات والدها. فوجد أندرو نفسه يساعد في عمل ترتيبات الجنازة.

مرت ثلاثة أسابيع قبل أن يشعر أندرو أن الوقت ملائم مرة ثانية ليطلب من كوري أن تتزوجه. لم يكن عرض الزواج مغريًا، وقد قضى أندرو معظم الوقت في توضيح الحياة الغريبة التي سوف يتعين على كوري أن تحياها إذا تزوجته. على الرغم من ذلك، فإن كوري وعدت بالتفكير في الأمر وأن تعطيه ردًا عندما يعود من المجر.

لم يسبق لأي رحلة من رحلاته وراء الستار الحديدي أن بدت بهذا الطول؛ إذ كان يتساءل عن رد كوري. كان عبور الحدود المجرية مثيرًا تمامًا مثل عبور الحدود اليوغوسلافية. مرة أخرى صلى أندرو أن يجعل الله "العيون

المبصرة عمياء".

في هذه المرة شعر أنه يجب ألا يتعجل وأن يأكل ما معه من طعام في الوقت الذي كان يتم فيه تفتيش الفولكس واجن. فتح سلة الطعام وتوقف ليصلي في الوقت الذي كان فيه جنديان يفتحان باب السيارة. عندما رآه الجنديان يحني رأسه ليصلي على طعامه، أغلقوا الباب بشدة وهربوا! أكل أندرو طعامه، وحزم سلة الطعام، وقاد السيارة بثبات عبر الحدود المجرية. وما أن دخل المجر حتى اتجه نحو بودابست، العاصمة.

بينما كان أندرو يقود السيارة حول بودابست، شاهد الآثار التي لا يمكن أن تخطئها عين للانتفاضة التي حدثت العام السابق. كانت المباني المضروبة بالقنابل والشوارع المسدودة في كل مكان. ومع ذلك، فقد استطاع أندرو أن يشق طريقه نحو بيت رجل كان لا يُعرف عنه سوى أن اسمه الأستاذ B. كان الأستاذ B مسيحيًا يشغل مركزًا مرموقًا في جامعة كبيرة في المدينة. رحب الأستاذ بأندرو بحفاوة ووافق على أن يكون مترجمًا له خلال الوقت الذي سيكون فيه في المجر.

سرعان ما عرف أندرو أنه عقب الانتفاضة، اتخذت الحكومة المجرية إجراءات صارمة ضد الكنائس المسيحية. تم طرد عدد كبير من الرعاة من مناصبهم وأُجبِروا على ترك كنائسهم. ولكن الرعاة الذين كانوا على استعداد للحلول الوسط ومجاراة وجهات النظر الحكومية تُركوا دون المساس بهم. علم أندرو فيما بعد أن هذه "المجاراة"، كانت لا تعني فقط قبول وجهة النظر السياسية للحكومة، بل أيضًا عدم التعليم بما كانت الحكومة تعتبره خرافات دينية: مثل قصص المعجزات، والخليقة، والخطية الأصلية، وسقوط الإنسان، وحتى أن يسوع المسيح هو ابن الله.

ولكن المسيحيين استطاعوا أن يلتفوا حول هذه القيود. فصارت حفلات الزفاف والجنازات هي المكان الذي يُبشَّر فيه بالإنجيل. وفي العديد من المناسبات، كان أندرو يجد نفسه في حفل زفاف أناس لم يلتق بهم من قبل. كان يقف ويهنئ العروس والعريس ثم يعظ بأدق رسائل الخلاص. استخدم أيضًا نفس أسلوب التحدث في الكنائس الذي اتبعه في تشيكوسلوفاكيا، حيث كان يأتي بالتحية من المسيحيين في الغرب ومن يسوع المسيح، منتهزًا الفرصة لتقديم عظة.

كان أندرو شديد الانهماك طوال وقته في المجر. وقد كان ذلك جيدًا لأنه أبعده عن التفكير في كوري إلى حد ما. ولكن في النهاية انتهى وقته في المجر، وعاد إلى هولندا بأسرع ما يمكنه، وكله شغف لمعرفة القرار الذي اتخذته كوري.

عند وصوله إلى هولندا، بدلاً من الذهاب إلى سانت بانكراس، اتجه أندرو نحو هارلم، حيث كانت كوري الآن تعمل في مستشفى. عندما تركت كوري العمل في الحادية عشرة مساء، كان أندرو ينتظرها في الخارج.

قال أندرو وهي تخرج من الباب الأمامي للمستشفى: "ها أنا قد عدت، يا كوري. إني أحبك، وسوف أحبك سواء كان الرد بالقبول أو الرفض".

أجابت كوري: "أندي، أنا أحبك أيضًا. لقد أدركت أني سوف أقلق عليك وأفتقدك وأصلي لأجلك في كل الظروف. ولذا أعتقد أنه من الأفضل أن أكون زوجتك القلقة على أن أكون صديقتك غريبة الأطوار".

لم يستطع أندرو أن يصدق ما سمعه للتو. كانت كوري تريد أن تكون زوجته!

في الأسبوع التالي ذهب كلاهما إلى محل مجوهرات في

هارلم واشتريا خاتمي الزواج. كانت العادة في هولندا ارتداء خاتم الزواج في اليد اليمنى أثناء فترة الخطوبة، ونقله إلى اليد اليسرى أثناء حفلة الزفاف. كان أندرو في منتهى السعادة وهو ينظر إلى الخاتم في إصبع يده اليمنى.

بعد العودة إلى هولندا بعدة أسابيع، تلقى أندرو خطابًا من الأستاذ B، يخبره فيه كم كانت رحلته مباركة للمسيحيين في المجر. ولكن كان هناك جانب محزن في الخطاب؛ إذ أخبر الأستاذ B أندرو أنه فقد وظيفته في الجامعة. قال أن ذلك ليس له علاقة بقيامه بالترجمة لأندرو، ولكن أندرو لم يكن متأكدًا من صحة ذلك. ختم الأستاذ B خطابه بهذه العبارة: "لا تحزن. كثيرون قد ضحوا بأكثر من ذلك لأجل مخلِّصهم".

تزوج أندرو وكوري في الكمار في يونيو سنة ١٩٥٨، وسط جمع يتكون من عائلتيهما، والممرضات من المستشفى في هارلم، والعمال من مصنع الشيكولاتة، والعم هوبي من انجلترا، والأصدقاء من هيئة الكرازة العالمية.

عقب انتهاء حفل الزفاف أخذ أندرو يد كوري، وهو ينظر في عينيها ويقول: "يا كوري، نحن لا نعرف إلى أين

يقتادنا الطريق، أليس كذلك؟"

أجابت كوري: "صحيح إننا لا نعرف إلى أيـن يقتادنـا الطريق، ولكن دعنا نذهب إلى هناك سويًا".

الفصل الخامس عشر

أعصاب من فولاذ

بعد حفل زفافهما انتقل أندرو وكوري إلى الحجرة الموجودة فوق سقيفة الحديقة، والتي كانت قد بُنيت في الأصل لوالد أندرو. كانت مساحة الحجرة صغيرة، ومعظمها تشغله الملابس.. طن من الملابس. كان أندرو قد كتب في المجلة عن تجاربه في معسكرات اللاجئين، وردًا على هذا أرسل له الكثير من الشعب الهولندي ملابس للاجئين في معسكرات برلين الغربية. وفيما بدأ أندرو الحياة الزوجية، بدأت مئات الطرود تصله. كانت بعض الملابس تأتيهم قذرة، فكانت كوري تعمل على غسلها وكيها. وكانت بعض الملابس تحتوي على براغيث، فصار على الزوجين التعود على هجوم الحشرات الصغيرة السوداء كلما دخلا حجرتهما.

على الرغم من ذلك، كان أندرو شاكرًا لوجود مكان يعيش فيه. مع أن ذلك قد رفع عدد الناس الذين يستعملون الحمام الوحيد في بيت فان دير بيجل إلى ثمانية أشخاص. كان يعيش في البيت أخو أندرو كرنيليوس وزوجته،

بالإضافة إلى أخته جلتج وزوجها آري، وطفليهما الصغيرين. أدى ذلك لوجود طابور لاستعمال الحمام.

في الخريف قرر أندرو وكوري أن الوقت قد حان لتوزيع بعض ملابس الشتاء على اللاجئين في برلين الغربية. قاما بتحميل الفولكس واجن الزرقاء بالملابس وانطلقا إلى ألمانيا. وعندما وصلا إلى معسكرات اللاجئين، كانت الأحوال هناك شديدة الشبه بما توقعه أندرو. وعلى الرغم من أن أندرو قد حاول أن يعد كوري نفسيًا لمواجهة القذارة واليأس اللذين كانت على وشك أن تلتقي بهما، إلا أنها أحست بهول الصدمة على أي حال.

بعد توزيع الملابس على اللاجئين الذين شعروا بالامتنان لذلك، شعر أندرو أن عليه أن يمضي لرؤية الأحوال في ألمانيا الشرقية الشيوعية. قررت كوري أن تظل في إحدى معسكرات اللاجئين حتى رجوعه، حيث كانت تقدم المساعدة لاتخاذ الإجراءات الصحية والعمل على تحسين تلك الأحوال. لم يود أندرو أن يتركها وراءه، ولكنه أدرك أن زوجته أرادت أن تكون حيث يمكن أن تكون ذات أقصى فائدة ممكنة.

لم يكن العثور على الكتب المقدسة والمطبوعات المسيحية الأخرى في ألمانيا يشكل مشكلة، لأنها كانت تُنتج وتُباع بحرية في برلين الغربية. ملأ أندرو سيارته بالمطبوعات واتجه نحو بوابة براندنبرج لعبور الحدود نحو برلين الشرقية الشيوعية. لم يبد أن الحراس عند منطقة العبور يبالون كثيرًا بما كان لدى أندرو في السيارة، وسرعان ما اكتشف أندرو السبب في ذلك. ففي حين أن حكومة ألمانيا الشرقية لم تحظر الكتب المقدسة، إلا أنها شنت حربًا أشد ضراوة ضد المسيحية.. حرب التقليد.

علم أندرو أنه لكل احتفال مسيحي، أوجدت حكومة ألمانيا الشرقية احتفالاً غير ديني موازٍ له: كان يتم "الترحيب" بأطفال ألمانيا الشرقية بدلاً من تعميدهم، وكانت تقام الخدمات "لتكريس الشباب للدولة" بدلاً من المعمودية التقليدية، وحتى مراسم الزواج والجنازات المسيحية كان يتم محاكاتها. وبالطبع كانت كل تلك الاحتفالات التي شجعت عليها الحكومة خالية من المعنى الروحي والقوة الموجودتين في الاحتفالات المسيحية المناظرة.

كان قادة الكنيسة في ألمانيا الشرقية "يتم حثهم بقوة" على

جعل أعضاء كنائسهم يشتركون في احتفالات الدولة، وتشجيع أطفالهم ليكونوا "مواطنين صالحين" لألمانيا الشرقية. ولهذا السبب، فإن عددًا كبيرًا من الشباب لم يرى نفعًا يُرجى من وراء ديانة "عتيقة".

قرر أندرو أن يحرك المؤمنين في ألمانيا الشرقية للقيام بعمل مرسلي، ولكن حتى بالنسبة لذلك كانوا محبطين. سألوه: "كيف يمكننا أن نذهب إلى أي مكان؟ نحن لا نستطيع الحصول على تأشيرة لنغادر البلاد، وهناك عقبات في الطريق عند كل منعطف. نحن معزولون عن بقية العالم".

كان العاملون في الحقل المرسلي محبطين حتى ذكَّرهم أندرو بأن أمامهم حقلاً مرسليًا يحيط بهم في كل مكان. كان الملايين من الألمان الشرقيين يسمعون "إنجيلاً دنيويًا" من الدولة، وكان هناك نصف مليون جندي روسي متمركزين في كل أنحاء البلاد. قال لهم أندرو أنه لو لم يكن ذلك حقلاً مرسليًا، فإنه لا يعرف ما هو الحقل المرسلي. وبدا أن رسالته قوَّت الكنيسة، وتم اكتشاف العديد من الفرص الجديدة للكرازة أمامهم.

عاد أندرو إلى برلين الغربية بروح معنوية مرتفعة، ولكن

جذوة إثارته وحيويته سرعان ما انطفأت عندما رأى كوري. كانت فترة الثلاثة أسابيع في معسكر اللاجئين قد تركتها متعبة ومريضة. تساءل أندرو إن كان قد فعل الصواب حين طلب من زوجته أن تقاسمه هذا النمط الغريب من الحياة. كان هناك شيء واحد يعرفه على وجه اليقين: كانت كوري بحاجة إلى فترة راحة من عملها في معسكر اللاجئين. لكنها اعترضت بالطبع إذ كان لا يزال هناك الكثير الذي عليها أن تقوم به في المعسكر قبل أن ترحل. ولكن أندرو ضغط عليها بشدة ورتب ليأخذها معه في رحلته التالية، وفي هذه المرة إلى يوغوسلافيا.

سرعان ما حصل أندرو وكوري على التأشيرتين اللتين كانا بحاجة إليهما، واتجه الزوجان الشابان إلى زغرب بيوغوسلافيا. لاحظ أندرو أن فريقًا يضم الزوج والزوجة يثير شبهات أقل من عبور رجل واحد للحدود.

هناك في زغرب، التقى أندرو مرة أخرى بنيكولا، وتوجه الاثنان للتبشير في كل أنحاء المدينة. كان أندرو ممتنًا لأن نيكولا كان على استعداد ليترجم له مرة أخرى؛ إذ تعرض نيكولا لدفع غرامة مالية لعمله ذلك خلال رحلة

أندرو السابقة، وقيل له إنه إذا تحدث في كنيسة مرة أخرى، سوف يتعين عليه أن يترك كلية الهندسة.

ولكن بعد مضي أسبوع، صار أندرو وكوري هما اللذان في ورطة مع السلطات. بينما كانا يجلسان على العشاء مع مسيحيين آخرين، كان هناك قرع على الباب. وفي خلال ثوان كان البوليس يطلب رؤية جوازي سفر وتأشيرتي أندرو وكوري. وسرعان ما أدرك أندرو أنهم كانوا يعرفون مَن هو وأين كان، بما في ذلك الرحلة الأخيرة إلى يوغوسلافيا. ومع أنه لم يكن هناك فائدة من محاولة التعتيم على أي شيء، إلا أن أندرو على الرغم من ذلك أعطى إجابات موجزة على أسئلتهم. ردًا على ذلك، فإن ضابط البوليس المختص أخرج خاتمًا كبيرًا أحمر اللون وختم بهاتين الكلمتين "لا عودة" على كل من التأشيرتين، ثم أردف قائلاً: "عليكما مغادرة البلاد فورًا".

تأثرت كوري بهذه التجربة، وفي صباح اليوم التالي حمّلت هي وأندرو سيارة الفولكس واجن واتجها نحو الحدود. قضى أندرو شطرًا كبيرًا من رحلة العودة إلى برلين الغربية محاولاً تهدئة كوري. ظلت كوري تردد قائلة:

"لا أعرف كيف تقوم يا أندرو بتلك الرحلات. لابد أن أعصابك من فولاذ!"

راح أندرو يبتسم بينه وبين نفسه وهو يفكر في ذلك. استطاع أن يدرك أن العديد من الظروف في ماضيه قد أعدته لما كان يفعله: ألعاب الجاسوسية في فترة الطفولة والتي كان يلعبها في القرية، وتجربته في المقاومة الهولندية خلال الحرب، وسرقة البنادق وتخريب السيارات، والوقت الذي قضاه في القوات المسلحة، حيث كان يضطر أن يبقى في حالة تركيز وهدوء تحت النيران في الوقت الذي كان فيه الناس يموتون من حوله. قال أندرو لنفسه: "نعم، كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله المدعوين حسب قصده".

عندما وصلا إلى برلين الغربية، توقف أندرو وكوري في معسكر للاجئين حيث قدمت كوري يد المساعدة لهم. وهناك وجدا مظروفًا ضخمًا في انتظار أندرو. كان في المظروف تأشيرات لدخول بلغاريا ورومانيا. شعر أندرو بالنشوة لهذا. إذ كان يعني أن باستطاعته أن يتعمق أكثر من ذي قبل فيما وراء الستار الحديدي. ولكن كان عليه أولاً أن يوصل كوري إلى موطنها ويكتشف سبب مرضها.

كان سبب مرض كوري هو أكبر مفاجأة للجميـــع. هــز الطبيب في سانت بانكراس رأسه بعد أن فحــص كــوري وأعلن: "إن السبب في حالتها هذه سوف يزول بعــد ســبعة شهور".

تلعثم أندرو وهو يقول: "أنت تعني، أنت تعني...؟"

ابتسم الطبيب ابتسامة عريضة وهو يقول: "نعم.. مبروك. سوف تصبح أبًا في يونيو القادم".

ذهل أندرو. لقد كان سعيدًا جدًا لأنه حصل على زوجــة أخيرًا لدرجة أنه لم يفكر كثيرًا في أن يصبح أبًا. قضى بقية الأسبوع يحاول التأقلم مع الفكرة.

مضى شهران بسرعة، وفي أوائل ســنة ١٩٥٩، كــان أندرو يشعر بالقلق مرة أخرى. كان قد قرر أن يبقى قريبًــا من البيت حتى يُولد الطفل، ولكن الآن بدا أن شهر يونيــو بعيد جدًا. كانت شحنة مــن الكتــب المقدســة الرومانيــة والبلغارية قد وصلت إليه مــن جمعيــة الكتــاب المقــدس البريطانية والجمعيات الأجنبية، وبدأ أندرو يتساءل إن كــان ذلك علامة على وجوب أن يوزعها... فورًا.

ناقش أندرو أفكاره مع كوري، التي تحسنت كثيرًا بعد أن

تخلصت من الشعور بالغثيان في الصباح. لم تتحمس كوري كثيرًا للفكرة في البداية. ولكن بعد أن أملت التفكير، أخبرت أندرو أنها بموافقتها على الزواج منه، قد وافقت ضمنيًا على أن تكون شريكة في خدمته. فإذا كان الله يأمره بالذهاب، فعليه أن يذهب. ساعدته في تحميل السيارة بالكتب المقدسة ومعدات التخييم. بعد أن قبّل زوجته قبلة الوداع، اتجه أندرو مرة أخرى عبر أوروبا.

كان أسرع طريق إلى بلغاريا من هولندا يمر بيوغوسلافيا. ولذا فقبل بدء الرحلة، حصل أندرو على جواز سفر هولندي جديد وقدم طلبًا للحصول على تأشيرة أخرى من القنصلية اليوغوسلافية في هولندا. كما كان يتوقع، كانت عجلات البيروقراطية في الدول الشيوعية تتحرك ببطء. وهكذا لم تكن القنصلية قد تلقت أي رسالة تفيد بأن أندرو شخص غير مرغوب فيه، ولا يجب إعطاؤه تأشيرة. ونتيجة لذلك، حصل أندرو على التأشيرة التي طلبها واتجه إلى يوغوسلافيا. لم يدرج اسمه أيضًا كشخص غير مرغوب فيه لعبور الحدود أيضًا، هكذا سُمح له بعبور الحدود إلى داخل البلاد. حسب أندرو أن الأمر يتطلب من السلطات

اليوغوسلافية حوالي أربعة أيام لإدراك أن أندرو قد عــاود دخول البلاد ومحاولة رده على أعقابه. لذا انتوى أندرو أن يكون في بلغاريا في غضون تلك المدة.

في طريقه عبر يوغوسلافيا، توقف أندرو ليزور جميــل ونيكولا، اللذين أمداه بعناوين بعض الكنائس فــي جنــوب البلاد ليتوقف ويتكلم فيها. فعل أندرو كما طلبا، ولكن هــذا تطلب وقتًا أطول مما توقع. وفي الليلة الخامسة كان لا يزال في يوغوسلافيا. نزل أندرو في فندق ليبيت الليلة في مدينــة على بعد ٥٠ ميلاً من الحدود البلغارية، وقد سلم جواز سفره في المكتب الأمامي، لأنه كان مضطرًا لعمل ذلــك. كــان ينوي أن يقود السيارة إلى الحدود عند طلوع النهار ويعبــر الحدود إلى بلغاريا. ولكن في الساعات الأولى من صــبيحة ذلك اليوم سمع طرقًا على باب حجرته. فتح الباب، ووجــد رجلين يرتديان البزة الرسمية.

أصدر أحد الرجلين أمرًا بالألمانية لأندرو قائلاً له: "ارتد ملابسك واتبعنا".

فعل أندرو كما أُمِر، واقتاده الرجلان نزولاً من الفنــدق إلى الشارع نحــو مبنى حجــري كبير. وفي حجرة بداخل

المبنى جلس رجل آخر خلف مكتب.

سأل الرجل بالألمانية وهو يقذف بجواز سفر أندرو بقوة على المكتب: "لماذا عدت؟ لقد أُمِرت ألا تفعل ذلك".

لم ينتظر الرجل إجابة أندرو. وبدلاً من ذلك فتح درجًا في المكتب وسحب خاتمًا ومحبرة. فتح الرجل جواز السفر، وبحركة سريعة من معصمه ختم هذه العبارة "لا عودة" ثلاث مرات بالحبر الأحمر فوق التأشيرة.

قال الرجل وهو يكمل الأختام: "سوف تغادر يوغوسلافيا في ظرف ٢٤ ساعة. لا تتصل بأحد في البلاد، وسوف نتصل بحرس الحدود في تريست ونخبرهم بأن ينتظروك".

قال أندرو "تريست؟ ولكن أنا في طريقي إلى بلغاريا. من فضلك، هل يمكن السماح لي بالعبور إلى الحدود البلغارية؟"

قال الرجل بسرعة: "يجب أن تعود من حيث أتيت وتغادر البلاد من عند تريست. هل تفهم ذلك بوضوح؟"

أومأ أندرو رأسه بالموافقة وهو حزين.

في صبيحة اليوم التالي انطلق أندرو شمالاً تجاه تريست. لم يكن هذا ما كان يتوقعه، وبدأت روحه المعنوية تخور وهو يقود سيارته في الطريق. الآن كان الطريق الوحيد

المفتوح أمامه للوصول إلى بلغاريا هو أن يعبر الحدود إلى إيطاليا، ويقود السيارة جنوبًا طوال الطريق إلى بنديزي، ويستقل مركبًا إلى اليونان، ثم يقود السيارة شمالاً إلى الحدود البلغارية. كان معنى ذلك إضافة حوالي ١٥٠٠ ميلاً إلى رحلته.

بينما كان يقود السيارة نحو الجنوب عبر إيطاليا، بدأ أندرو يزداد اكتئابًا وإحباطًا. كانت الطرق الإيطالية ممتلئة بالسيارات والناس، مما كان يعوق تقدمه. ومما زاد الطين بلة، أن ظهره بدأ يؤلمه كما لم يؤلمه من قبل قط. عند وصول أندرو إلى بنديزي، لم يكن بمقدوره أن يمشي. وإذ كان هذا الطريق الطويل قد ضيَّق الخناق على جدول أعماله، فلم يكن أمامه وقت للبحث عن الرعاية الطبية.

ما أن وصل اليونان، حتى اتجه أندرو مباشرة إلى الحدود البلغارية. ولدهشته وجد الطرق اليونانية مليئة بالحفر وفي حالة مزرية، ومرة أخرى كان تقدم أندرو بطيئًا. وبالإضافة لذلك، كانت لافتات الطرق كلها باللغة اليونانية، مما جعل أندرو يضل الطريق عدة مرات ويضطر للعودة من حيث أتى.

عندما اقترب من الحدود، توقف أندرو في مدينة سيراي، حيث تلقى ضربة أخرى. قيل له أن الدبلوماسيين فقط هم الذين يُسمح لهم بالعبور إلى بلغاريا من نقطة العبور التي كان متجهًا إليها. وحيث أنه لم تكن هناك نقاط عبور أخرى إلى بلغاريا من اليونان، فقد نصحوا أندرو أن يتجه شرقًا إلى تركيا ويعبر إلى بلغاريا من هناك. لم يستطع أندرو أن يصدق ذلك.. فقد كانت تركيا تبعد عن المكان الذي كان فيه بما يزيد على ٢٠٠ ميل. وإذا لم يكن ذلك كافيًا، فكلما أطال الجلوس وهو يقود سيارته الفولكس واجن، كان ذلك يؤلمه أكثر. ولكن حيث أنه لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئًا إزاءه، فقد أخذ يقود السيارة شرقًا تجاه تركيًا.

بينما كان يقود السيارة في الطريق، كان أندرو يزداد إحباطًا ويأسًا. لم يكن هذا ما خططه لرحلته. كان ظهره الآن موجوعًا لدرجة أنه كان يتساءل عما إذا كان سيتمكن من المشي عندما يصل إلى بلغاريا. تساءل إن كانت هذه حياة زوج سوف يصبح أبًا بعد قليل.

بينما كان أندرو يقود السيارة في الطريق، لاحظ لافتة باللغة اليونانية، وقد كتب تحت اليونانية الاسم "فيلبي". كان

ذلك موقع مدينة فيلبي القديمة في الكتاب المقدس. اضطر أندرو للتوقف ورؤية المكان. أوقف أندرو السيارة بجانب الطريق وخرج. أخذ يعرج تجاه السلسلة المحيطة بالمكان وراح يتأمل أطلال المدينة. كان ذلك هو المكان الذي تجددت فيه ليدية على يد بولس، والتي كانت تعد أول أوروبية اعتنقت المسيحية. وكان هو أيضًا المكان الذي سُجن فيه بولس وسيلا لأجل إيمانهما، ولكن الله أطلق سراحهما بطريقة معجزية.

بينما كان أندرو يتأمل فيلبي ويفكر في تلك الأحداث، شعر أن اكتئابه قد زال عنه وبدأ الإيمان يزداد في قلبه. إذا كان بولس وثق في الله وقدم الشكر له من زنزانة سجنه، فمن كان أندرو حتى يشكو من موقفه؟ كل ما استطاع أن يفعله أن يثق بأن الله هو المتحكم في ظروفه.

عندما استدار أندرو ليعود للسيارة، لاحظ شيئًا آخر. إن إيمانه لم يزداد وحسب، ولكن ظهره أيضًا لم يعد يؤلمه. كان يمشي منتصبًا بسهولة، وبدون ألم.

قاد أندرو السيارة إلى تركيا، وعبر الحدود إلى بلغاريا بلا مشاكل. ثم اتجه إلى صوفيا عاصمة البلاد، حيث اتصل

برجل يدعى بتروف، الذي حصل على اسمه من شخص ما في يوغوسلافيا.

شرح بتروف لأندرو أن الكنائس التي رأى أبوابها مفتوحة كانت كنائس صورية تسيطر عليها الحكومة وهي تنكر قوة الإنجيل المغيرة للحياة. كانت الكنيسة المسيحية الحقيقية تعمل في الخفاء. طيلة الأسبوعين التاليين، زار أندرو وبتروف العديد من تلك الكنائس السرية، والتي كان يجتمع أعضاؤها سرًا في بيوت الناس وشققهم.

كان هناك نقص في الكتب المقدسة في بلغاريا. لذا فإن أندرو في كل اجتماع كنسي حضره، كان يأخذ أحد الكتب المقدسة البلغارية ويهديه للجماعة. كان أعضاء الكنيسة يشهقون عندما يرونه، وبينما كانوا يمررونه من واحد إلى آخر لتأمله، كانت الدموع تنهمر على وجناتهم.

أخيرًا حان الوقت لكي ينتقل أندرو إلى رومانيا. ولكن بينما كان أندرو على وشك أن يقود السيارة شمالاً إلى نهر الدانوب، الذي يشكل الحد الفاصل مع رومانيا، جاءت مجموعة من الناس إلى أندرو وتوسلوا إليه ألا يغادر بل أن يأتي ويتكلم في كنيستهم. تمنى أندرو أن يفعل ذلك، ولكن

كان عليه أن يعبر إلى رومانيا وفقًا للتاريخ المكتوب على تأشيرته، وذلك التاريخ لم يتبق عليه سوى يوم واحد فقط.

عند الحدود الرومانية شاهد أندرو وهو يشعر بالصدمة ثلاث سيارات في الصف أمامه قد تم انتزاع كل أجزائها بينما كان الحراس يفتشونها. علم أندرو أنه لو خضعت سيارته لنفس المستوى من التفتيش، فإن الحراس سوف يجدون بسهولة الكتب المقدسة الرومانية التي كان يحملها. عندما كان يصلي لأجل ما يمكن عمله، شعر أندرو أنه يجب أن يكون صريحًا بشأن ما كان يحمله إلى ذلك البلد. مد أندرو يده إلى المقعد الخلفي للفولكس واجن وانتزع العديد من الكتب المقدسة التي كان قد خبأها هناك. وضع أندرو الكتب بجواره على المقعد الأمامي، حيث كان من المؤكد أن يراها حرس الحدود.

أخيرًا جاء الدور عليه. قاد أندرو السيارة إلى الأمام وتوقف أمام الحاجز. أنزل زجاج النافذة وسلم جواز سفره إلى الحارس. كان قلبه يدق بشدة عندما نظر الحارس إلى جواز السفر ثم كتب شيئًا على قطعة من الورق. أخيرًا نظر الحارس إلى داخل السيارة، إلى حيث كانت الكتب المقدسة

مكومة على المقعد الأمامي. ولفرط دهشة أندرو وارتياحه، أعاد الحارس له جواز السفر ولوّح له كي يدخل إلى رومانيا.

كان أندرو يتوقع أن رومانيا كثيرة الشبه ببلغاريا. ولكن بينما كان يقود السيارة في الطريق، أدرك انه كان مخطئًا. إذ كان البوليس الروماني هو الأكثر صرامة في كل الدول التي زارها. كانت متاريس البوليس مقامة في كل أنحاء البلاد لفحص أوراق الناس. شعر أندرو الآن أن البلغاريين يتميزون بالود والحميمية مقارنة بالرومانيين الذين كانوا يشعرون بالخوف والارتياب من بعضهم البعض وبنوع خاص من الأجانب مثله.

بسبب خوف الناس وارتيابهم، استغرق أندرو بعض الوقت قبل أن يجد مسيحيًا على استعداد للتحدث معه والترجمة له. عندما تحدث مع هذا الشخص، علم أن الطريقة التي كانت بها الحكومة الرومانية تتحكم في الكنيسة كانت من خلال أسلوب تجميع الكنائس معًا. كانت الحكومة تقوم بتجميع الكنائس الموجودة في عدة قرى وتضمها معًا في كنيسة واحدة، وكانت المباني الكنسية الخالية من الناس

تُصادر. كان تأثير هذا الضم للكنائس معًا أن أصاب الكنيسة بالعجز. فبدلاً من أن يذهب الناس إلى كنيستهم المحلية، كانوا يضطرون للسفر إلى القرية المجاورة أو القرية التي تليها لحضور الخدمات الكنسية. تسببت هذه العقبة في توقف عدد كبير من الناس عن حضور اجتماعات الكنيسة بعد تجميع الكنائس هذا.

ترك أندرو الكتب المقدسة الرومانية التي حملها إلى البلاد مع ذلك الشخص، والذي كان يدرك كيف وأين توزع الكتب المقدسة حتى تكون ذات أقصى فائدة لأكبر عدد ممكن من المسيحيين.

أخيرًا حان الوقت لأندرو أن يعود أدراجه إلى هولندا من نفس الطريق. كان من شأن التأخر في الوصول إلى بلغاريا، أن جعل رحيله إلى بلده يتأخر عما خطط له. كان أندرو يسرع في الطريق على قدر ما كانت أحوال الطريق والفولكس واجن تسمح بذلك. كان الوقت آنذاك أواخر شهر مايو، وكان من المفترض أن تضع كوري مولوها في أي يوم.

سرى الارتياح في كل كيان أندرو عندما قاد السيارة

أخيرًا عبر الحدود إلى هولندا. كان شيئًا رائعًا أن يعود إلى بيته ثانية. وكان يأمل ألا يكون قد فاته مولد الطفل.

الفصل السادس عشر

إلى داخل الاتحاد السوفيتي

شعر أندرو بقدر كبير من الارتياح حين اكتشف أن كوري لم تكن قد وضعت طفلهما بعد. بعد أسبوع، في ٤ يونيو سنة ١٩٥٩، ولدت كوري صبيًا، وأسمياه جوبي. بعد ثلاثة أسابيع من مولد الطفل، احتفل أندرو وكوري بأول ذكرى سنوي لزواجهما.

في نفس الوقت، كانت أخت أندرو جلتج تتوقع طفلها الثالث، وكانت زوجة أخيه كرنيليوس تتوقع طفلها الأول. بإضافة الأطفال الجدد، فإن ستة أفراد بالغين وخمسة أطفال سوف يعيشون في منزل فان دير بيجل القديم. استطاع أندرو أن يرى أن هذا العدد من الأفراد أكبر من أن يتحمله المنزل، وعرف أنه حان الوقت بالنسبة له ولكوري أن يبحثا عن مكان آخر ليعيشا فيه. ولكن إلى أين يمكنهما الذهاب؟ في ذلك الوقت، كانت المساكن نادرة في هولندا، وحتى إذا عثرا على مكان، لم يكن معهما مال كاف لدفع أجرته. كانت تأتيه مبالغ ضئيلة من المال من الناس نتيجة لمقالات المجلة

التي استمر أندرو يكتبها وينشرها عن محن المسيحيين فيما وراء الستار الحديدي. كان أندرو يتلقى أيضًا تقدمات من الكنائس العديدة التي كان يتكلم فيها. ولكن لم يكن لديه هو وكوري أي مدخرات لمنزل جديد. وحتى الملابس التي كانا يرتديانها هما وجوبي كانت تأتي من صناديق التبرعات.

لم يستطع أندرو أن يرى طريقة للتعامل مع موقفهما سوى الصلاة. في خلال أسابيع كان هناك منزل في القرية معروض للبيع، وقد عرض المالك أن يبيعه لأندرو بنصف ثمنه. كان ذلك عرضًا سخيًا، ولكن فكرة امتلاك المال الكافي التي تغطي نصف أو حتى ربع قيمته كان لا يزال حلمًا بعيد المنال.

قرر أندرو دعوة السيد ويسترا ومناقشة الموقف معه. عرض السيد ويسترا أن يشتري المنزل ويسمح لأندرو بأن يرد له المبلغ حين يتمكن من ذلك. كان هذا عرضًا مذهلاً، ومخجلاً في نفس الوقت. ناقش أندرو وكوري هذا العرض معًا واتفقا أخيرًا على قبول عرض السيد ويسترا. انتقلا إلى بيتهما الجديد عندما بلغ جوبي ثلاثة شهور. بعد انتقالهما بستة شهور، علما أن كوري كانت تنتظر طفلاً ثانيًا!

وِلد الطفل مارك في سنة ١٩٦٠، في نفس ذلك العام قام أندرو برحلته الأولى إلى الاتحاد السوفيتي. وكما فعل عام ١٩٥٥ عندما ذهب إلى وارسو، سافر مع مجموعة من الشباب من هولندا وألمانيا والدانمرك لحضور مهرجان للشباب في موسكو. لم يكن قد مضى على وجوده هناك سوى أسبوعين، ولكن في تلك المدة عرف الكثير عن محنة المسيحيين في الاتحاد السوفيتي. وكما كان الحال مع السلطات في رومانيا، كانت الحكومة السوفيتية تحاول السيطرة على الكنيسة من خلال أسلوب ضم الكنائس إلى بعضها البعض، لدرجة أن كنيسة بروتستانتية واحدة قد أصبحت مفتوحة في المدينة. وكانت الكنيسة البروتستانتية الثانية المفتوحة على بعد مائة ميل في مدينة بعيدة عن موسكو.

عندما كان أندرو في موسكو، كان يحضر الكنيسة البروتستانتية المفتوحة، وقد دهش بسبب ما رآه. كانت الكنيسة القديمة مبنية لتسع ألف شخص، ولكن في صباح الأحد الذي حضره، كان هناك ألفي شخص مكدسين في المكان. كان الناس يجلسون بواقع كل اثنين في مقعد واحد،

بينما وقف آخرون في الممر الأوسط وعلى طول جانبي الكنيسة. كان المكان مكدسًا، لدرجة أنه عند جمع التقدمة، كان الناس يضطرون لتمرير عملاتهم الورقية من فوق رؤوسهم إلى الأمام. وكانوا يكتبون طلباتهم في الصلاة على سهام ورقية يصوبونها تجاه مقدمة الكنيسة.

في نهاية رحلته إلى الاتحاد السوفيتي، عزم أندرو أن يقوم بزيارة أخرى إلى هناك في المستقبل القريب، لكن هذه المرة بالسيارة حتى يستطيع أن يحمل الكتب المقدسة الروسية إلى داخل البلاد.

في العام التالي، في سنة ١٩٦١، ولدت كوري طفلاً ثالثًا، أسمياه بول. أصبح لأندرو الآن زوجة، وثلاثة أطفال، وخدمة فريدة يقوم بها. في كل مكان كان يذهب إليه، كان أندرو يرى المزيد من الاحتياجات لدرجة أن سؤالاً بدأ يتشكل في عقله: هل يجب عليه أن يعمل لوحده، أم أن الوقت قد حان لدعوة "مهربين" آخرين للانضمام إليه في خدمته؟ لم يكن هذا سؤالاً تسهل الإجابة عليه. كانت كوري تؤيد فكرة توزيع حِمْل الخدمة، ولكن أندرو كان يساوره القلق لئلا تصبح العملية أكثر هشاشة إذا جند أناسًا جددًا

للانضمام إليه. ولكن عندما صلى بشأن هذا الموقف، قفز اسم واحد إلى عقله.. "هانز جروبر".

كان هانز رجلاً هولنديًا طوله حوالي مترين، وكان أندرو قد التقى به في أحد معسكرات اللاجئين في النمسا. كان ضخم البنية، ولم يكن هناك أي احتمال بأن يتمكن من الاختفاء وسط الجماهير. كان أيضًا واحدًا من أكثر الرجال الذين يتسمون بعدم البراعة الذين التقى بهم أندرو. ولكن كل تلك الأشياء لم تهم أندرو كثيرًا بعد أن سمع هانز يعظ في معسكر اللاجئين. فعندما كان هانز يتكلم، كان الجميع يصغون. حتى الأولاد المراهقون الشديدو العناد كانوا يقفون في الخارج تحت المطر المتساقط للاستماع إليه.

قرر أندرو أن يكتب إلى هانز ويطلب منه الاشتراك معه في رحلة إلى الاتحاد السوفيتي. وجاء الرد الذي تلقاه أندرو من هانز ليجعل القشعريرة تسري في جسده. إذ أفضى هانز إلى أندرو أنه كان يشعر دائمًا بأنه سوف يعمل في الاتحاد السوفيتي في يوم ما. كما ذكر أنه عندما كان في الصف السادس، بينما كان ينظر إلى خريطة روسيا، كان يسمع صوتًا يطن في أذنه قائلاً: "يومًا ما سوف تعمل لأجلي في

هذه الأرض".

شعر أندرو أيضًا بالمزيد من التشجيع حين علم أن هانز قد فعل كل ما في استطاعته للاستعداد لهذه الدعوة. كان هانز قد تعلم الروسية، وكان على استعداد أن يترك كل شيء في الحال ويسافر مع أندرو.

بعد تبادل المزيد من الخطابات، ثم ترتيب كل شيء، بما في ذلك شراء سيارة جديدة للقيام بتلك المغامرة. كانت الفولكس واجن الزرقاء قد قطعت ما يزيد على ٢٠٠ ألف كيلومتر حتى الآن، ولم تعد قابلة بعد للقيام برحلة طويلة أخرى.. على افتراض أن هانز يمكنه أن يحشر بنيانه الذي يتعدى المترين طولاً في تلك المركبة الصغيرة. وصلت النقود في اللحظة المناسبة تمامًا، واستطاع أندرو أن يشتري سيارة أوبل ستيشن واجن جديدة لتحل محل الفولكس واجن. كانت السيارة الجديدة كبيرة بما فيه الكفاية تمكنه من النوم في مؤخرتها، وكان يمكن استخدامها لنقل مئات الكتب المقدسة فيها. كانت المشكلة الوحيدة هي أن هانز لم يكن يستطيع القيادة، ولكن أندرو كان واثقًا انه سوف يتعلم في الطريق.

انطلق أندرو وهانز إلى الاتحاد السوفيتي، بعد عبور هولندا، وألمانيا، وبولندا للوصول إلى هناك. وبعد ألفي ميل أخرى كانا في موسكو يقودان السيارة بالميدان الأحمر، أمام الضريح الذي دُفن فيه لينين، في طريقهما إلى المخيم الكشفي الذي سجلا فيه اسميهما للإقامة فيه. وصلا إلى المخيم الكشفي بعد ظهر يوم خميس. بعد أن استقرا فيه، انطلقا على الأقدام للبحث عن الكنيسة البروتستانتية التي ذهب إليها أندرو منذ عامين. كان هناك اجتماع ليلة الخميس. كان أندرو وهانز قد وصلا إلى الكنيسة قبل بدء الخدمة مباشرة.

لم يكن أندرو يعرف أي واحد في الجمهور. بدأ يصلي لكي يريه الله الشخص المناسب للاتصال به بشأن توزيع الكتب المقدسة الروسية التي أحضرها إلى البلاد. بمجرد انتهاء الاجتماع، لفت نظره رجل أصلع كبير السن يقف لوحده. أحس أندرو عندها بالصوت المألوف بداخله يخبره بأن هذا الرجل هو الشخص المناسب للاتصال به. لم يندهش عندما اتجه إليه هانز وقال بالهولندية بهدوء: "لقد لمحت رجلنا. إنه الرجل الأصلع الذي يقف هناك".

ابتسم أندرو بينه وبين نفسه. كم كان من الجميل أن يكون له شريك.

مشى الاثنان تجاه الرجل، وقدم هانز نفسه بالروسية.

قطب الرجل جبينه وسأله: "هل تتحدث الألمانية؟"

أومأ هانز رأسه بالموافقة وهو يقول: "الألمانية والهولندية.. نحن هولنديان".

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة وهو يقول: "أنا ألماني! وقد انتقل أجدادي إلى سيبريا من ألمانيا، ونحن لا نزال نتحدث الألمانية في بيتنا".

تدخل أندرو وقال: "هل تعيش في سيبيريا؟"

أجاب الرجل وهو ينظر حوله: "نعم. أنا أحد أعضاء كنيسة صغيرة هناك. يوجد ١٥٠ عضوًا في الكنيسة، ولا يوجد كتاب مقدس واحد لدينا. يوما ما أعطاني الله حلمًا، وفي الحلم ذهبت إلى موسكو وأعطاني شخص ما كتابًا مقدسًا لكنيستنا. إن موسكو تبعد ألفي ميل عن بلدتنا. في البداية لم أكن أفكر في أمر الذهاب إلى هناك، ولكن الحلم كان نابضًا بالحياة بالنسبة لي، وفي النهاية لم أستطع المقاومة، ولذا فقد أتيت. ولهذا السبب أنا هنا. ولكن أين

أستطيع أن أجد كتابًا مقدسًا في هذه المدينة؟" أخذ صوته يتضاءل شيئًا فشيئًا.

كان قلب أندرو يدق بشدة فيما تبادل النظرات مع هانز. إن ذلك أمر مذهل لدرجة أنه لا يمكن أن يكون نتاج الصدفة! مد هانز يده تحت معطفه، وسحب كتابًا مقدسًا روسيًا كبيرًا، وسلمه للرجل. أخذه الرجل وأمسكه، وراح يحملق فيه. وعندئذ اندفع الرجل كالطوفان مثرثرًا بكلمات الشكر والامتنان وهو يحتضن هانز وأندرو.

حاول أندرو أن يهدئ من روع الرجل قبل أن يلفت الأنظار إليهم جميعًا. همس قائلاً: "سوف نلتقي بك هنا في صباح الغد الساعة العاشرة. لدينا أربعة كتب مقدسة أخرى لك".

سأل الرجل: "كم ثمنها؟"

أجاب أندرو: "إنها هدية من الكنيسة في الغرب لتقويتك وتشجيعك".

دس الرجل الكتاب المقدس تحت معطفه، ومسح عينيه، ثم أومأ برأسه. وقال: "غدًا الساعة العاشرة سوف أكون هنا".

في صباح اليوم التالي الساعة العاشرة، دخل أندرو وهانز إلى قاعة الكنيسة الخالية وجلسا على مقعد في مؤخرة الكنيسة. راحت الدقائق تمضي. كان الساعة العاشرة والنصف، ولم يصل الرجل الذي من سيبيريا بعد. في الساعة ١٠,٤٥ سمع أندرو وقع أقدام تدخل إلى الكنيسة. التفت، وهو يتوقع أن يرى رجل سيبيريا، ولكنه بدلاً من ذلك رأى راعي الكنيسة الذي كان أندرو قد التقى به وتحدث معه في أول زيارة له إلى الكنيسة منذ سنتين.

سأل الراعي: "مرحبًا. هل تنتظران شخصًا ما؟"

أجاب أندرو: "نعم، ننتظر شخصًا ما التقينا به البارحة".

قال الراعي: "أخشى أن صديقكما السيبيري لن يأتي".

نظر أندرو وهانز وعلى وجهيهما علامات التعجب إلى الراعي.

قال الراعي: "في كل خدمة يكون هناك أفراد من البوليس السري بين الحاضرين. لقد شاهداكما تتحدثان مع الرجل، والآن فإن البوليس السري يتحدثان معه، ولهذا لن يأتي للقائكما. ولكن هل لديكما شيء تقدمانه له؟"

نظر أندرو إلى هانز وعرف أن كليهما يفكران نفس

الشيء: هل بإمكانهما أن يثقا في الراعي؟ أخيرًا، قررا أنه بإمكانهما أن يثقا فيه، وتبادلا إيماءات خفية كل منهما تجاه الآخر. ثم فتح هانز الحقيبة التي كانت معهما وسحب منها الكتب المقدسة الروسية الأربعة.

عندما مد الراعي يده ليأخذ الكتب المقدسة قال أندرو: "هذه ليست الكتب المقدسة الوحيدة التي لدينا".

رفع الراعي حاجبيه وسأل: "كم عدد الكتب المقدسة الموجودة معكما؟"

أجاب أندرو: "ما يزيد على مائة. إنها مخبأة في سيارتنا".

قال الراعي وهو غير مصدق لما يسمعه: "ما يزيد على مائة! لا أستطيع التعامل مع كل تلك الكمية من الكتب المقدسة. إنها ليست جريمة أن تمتلك كتابًا مقدسًا في روسيا، ولكنها جريمة أن تقوم بتوزيع الكتب المقدسة. لقد سبق لي أن سُجنت وتلقيت معاملة قاسية لأجل عقيدتي ذات مرة، ولا يمكنني تحمل ذلك مرة أخرى"، قال ذلك وهو يحدق في آثار الندوب بأصابعه ويديه.

قال أندرو: "أنا أتفهم موقفك. هل هناك شخص آخر يمكن أن يكون على استعداد لمساعدتنا؟"

أجاب الراعي: "ماركوف. كونا أمام مجمع محلات 'جام' في سيارتكما الساعة الواحدة بعد ظهر هذا اليوم، وســـوف أرتب لقائكما مع ماركوف هناك. ولكن كونا حذرين".

في الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم، كان أندرو وهانز يجلسان في السيارة الأوبل ستيشن واجن خارج المحل. بعد مرور بضع دقائق بعد الواحدة، خرج رجل من سيارة كانت تقف على بعد تسعين متر تقريبًا. مشى الرجل جوار السيارة الأوبل، وهو يحدق من خلال زجاج السيارة الأمـــامي إلـــى أندرو وهانز، ثم استدار ورجع ماشيًا. في هذه المرة توقف بجوار الستيشن واجن وقال: "الأخ أندرو؟"

سأله أندرو: "هل أنت ماركوف؟"

أومأ الرجل رأسه بالموافقة.

قال أندرو: "إذًا التحية لك في اسم الرب".

قال ماركوف: "سوف نفعل شيئًا جريئًا. سوف نقوم بنقل الكتب المقدسة من سيارتكما إلى سيارتي المركونة على بعد دقيقتين من الميدان الأحمر".

نظر أندرو وهانز إليه مندهشين.

قال ماركوف، محاولاً تهدئة مخاوفهما: "لا تقلقا. لن يشك

أحد فيما نفعله في مثل هذا الموقع".

تبع أندرو وهانز ماركوف إلى ما وراء الميدان الأحمر، ثم انعطفا إلى شارع له سور على أحد جانبيه وشقق سكنية على الجانب الأخر. أوقف أندرو سيارته خلف سيارة ماركوف وخرج، بينما ظل هانز بالداخل يصلي. قام أندرو وماركوف بنقل علب الكرتون التي تحمل الكتب المقدسة بسرعة من السيارة إلى الأخرى.

عندما انتهيا من المهمة، صافح ماركوف أندرو، وقال قبل أن يركب سيارته وينطلق بعيدًا: "قبل الأسبوع القادم سوف تكون هذه الكتب المقدسة في أيدي رعاة الكنائس في كل أنحاء روسيا".

بعد اكتمال مهمتهما بتوصيل الكتب المقدسة الروسية، شق أندرو وهانز طريقهما إلى أرض الوطن عبر أوكرانيا، لأنه كان معهما صندوق يحمل كتب مقدسة أوكرانية وأرادا توزيعها. توقفا في أوكرانيا في عدة اجتماعات مسيحية مختلفة على طول الطريق، وهما يشجعان المؤمنين على قدر ما يمكنهما. في إحدى القرى، أعجب أندرو بشدة بكتاب مقدس أوكراني صغير يمكن أن يوضع في الجيب. كانت كل

الكتب المقدسة الروسية والأوكرانية التي رآها أندرو من قبل كبيرة وضخمة، ولذا فقد دُهش حين رأى هذا الكتاب الصغير. بينما كان يمسك به في يده، تفتحت الاحتمالات أمام أندرو. لماذا لا يطبع نسخًا صغيرة من الكتاب المقدس بلغات أوروبا الشرقية المختلفة؟ بتلك الطريقة كان يمكنه تحميل ضعف أو ثلاثة أو أربعة أضعاف الكتب المقدسة في السيارة الستيشن واجن لتوزيعها فيما وراء الستار الحديدي. منح صاحب كتاب الجيب المقدس كتابه إلى أندرو حتى يرجع به إلى هولندا، كي ما يرى أصحاب المطابع كيف يمكن طباعة كتاب مقدس صغير باستخدام مثل هذا الورق القوي والرقيق.

قبل العبور إلى المجر، توقف أندرو وهانز في كنيسة معمدانية أوكرانية، حيث شاهد أندرو شيئًا لم يشاهده من قبل.. راعي كنيسة يعظ بدون كتاب مقدس. بعد الخدمة قدم الرجلان نفسيهما إلى الراعي وبدآ الحديث عن الموضوعات اللاهوتية. وعندما استشهد الراعي بأحد الشواهد الكتابية، كان أندرو يتتبع ما يقوله الراعي في كتابه المقدس الهولندي حتى يستطيع أن يفهم بالضبط ما كان يُقال. ولكن بينما كانا

يتحدثان، لاحظ أندرو أن الراعي أبدى اهتمامًا بالكتاب المقدس الهولندي بأكثر مما أبدى اهتمامًا بالحوار. وأخيرًا قال الراعي بلا تفكير: "يا أخ أندرو، ليس لدي كتاب مقدس".

انفطر قلب أندرو حزنًا. لم يكن قد تبقى معهما كتاب مقدس أوكراني واحد ليعطياه له. أم هل كان يوجد هناك واحد؟ تذكر أندرو بفرح غامر كتاب الجيب المقدس الذي كان يحتفظ به كعينة. كيف يمكنه أن يبرر الاحتفاظ به بينما كان هناك أحد الرعاة يعظ الآلاف بدون كتاب مقدس؟ هب أندرو وجرى إلى الخارج، وأخذ الكتاب المقدس الصغير الحجم من تحت مقعد السيارة. عاد أندرو بعد ذلك وسلمه إلى الراعي قائلاً له: "هذا لك لتحتفظ به".

لم يستطع الراعي في البداية أن يستوعب فكرة امتلاكه لكتاب مقدس خاص به. ثم قام بوضع الكتاب المقدس على صدره، وانهمرت الدموع على خديه. علم أندرو أنه قد فعل الصواب حين وهبه الكتاب المقدس الصغير.

خلال رحلة العودة إلى أرض الوطن، راح أندرو يعيد المشهد مرارًا وتكرارًا في عقله. استحوذت على أندرو فكرة

طباعة كتب مقدسة صغيرة باللغات السلافية. الشيء الوحيد الذي كان يعوقه هو تكلفة هذا المشروع الجريء. لقد كـــان هو وكوري يعانيان بالفعل من ضغط مالي نتيجـــة لتنـــشئة ثلاثة أولاد صغار، بالإضافة إلى تدعيم الخدمة.

الفصل السابع عشر

الستار الخيزراني

في هولندا كان أندرو مستغرقًا تمامًا في الحاجة لطبع كتب مقدسة صغيرة الحجم بلغات أوروبا الشرقية. حصل أندرو على عروض من مطبعتين مختلفتين لإنتاج الكتب المقدسة. وكان أفضل سعر استطاع العثور عليه هو ٣ دولارات للكتاب الواحد، بشرط أن يطبع ٥٠٠٠ نسخة في المرة الواحدة. كان ذلك يعني أن أندرو بحاجة للحصول على ١٥ ألف دولار. صلى أندرو لأجل هذا الاحتياج وطلب من الله أن يمده بالمال، ولكن لم تُقدم مبالغ كبيرة للمشروع.

نظرًا لعدم رغبة أندرو وكوري في التخلي عن الفكرة، وافقا على عرض بيتهما للبيع واستخدام المال الذي يحصلان عليه من بيع المنزل لدفع نفقات طباعة الكتب المقدسة. كانت كوري تتوقع طفلاً رابعًا، ولكن عندما وازنت هي وأندرو بين الحاجة للكتب المقدسة فيما وراء الستار الحديدي وبين احتياجات عائلتهما، قررا عدم الاحتفاظ بالبيت.

مما يدعو للعجب، أنه على الرغم من وجود نقص في

المباني السكنية في هولندا، لم يتم بيع المنزل فورًا. وبينما كان أندرو وكوري ينتظران بيع المنزل، وافقت جمعية الكتاب المقدس الهولندية على تمويل المشروع، على أن يرد أندرو نصف التكاليف حين يتمكن من ذلك. شعر أندرو وكوري بالارتياح لعدم اضطرارهما لبيع المنزل على كل حال، بعد ذلك بوقت قصير، ولِدت طفلتهما الأولى، والتي أسمياها "ستيفاني".

في يوم ما في سنة ١٩٦٥، بينما كان أندرو يتحدث في كنيسة هولندية، جاء رجل إليه، يتحدث الانجليزية بلكنة أمريكية. قال له الرجل: "يا أخ أندرو، لديك الكثير لتشركه معنا في الولايات المتحدة. هل سبق لك أن تحدثت هناك؟"

هز أندرو رأسه بالنفي. كان قد دُعي للحديث في الولايات المتحدة في مناسبات عديدة، ولكنه رفض تلك الدعوات، لعدم رغبته في ترك الانطباع بأنه يقوم برحلة لإلقاء الأحاديث لمجرد جمع الأموال من أمة غنية.

قال الرجل: "يجب أن تأتي. الناس في أمريكا بحاجة أن يعرفوا ما يحدث في أوروبا الشرقية. إنهم لا يفهمون التهديد الحقيقي للشيوعية علينا جميعًا."

لأول مرة شعر أندرو بأن الله أراده أن يعبر المحيط الأطلنطي إلى أمريكا. سمح أندرو للرجل الذي قال إنه طالب لاهوت أن يضع له خط سير الرحلة. سرعان ما تم تخطيط كل شيء، وكان أندرو في طريقه إلى الولايات المتحدة.

عندما وصل أندرو إلى أمريكا، كانت تنتظره صدمة مروعة. كان الرجل الذي قام برعاية برنامج الرحلة ينتمي إلى جماعة متطرفة معادية للشيوعية، كانت تعتقد أن قتل الشيوعيين كان أفضل طريقة لتحرير العالم. كان أعضاء الجماعة يحملون البنادق معهم في كل مكان، حتى إلى فصول الدراسة! أرادت الجماعة من أندرو أن يعظ برسالة الكراهية والانتقام، ولكن أندرو أراد أن يعظ عن المحبة والعمل الإيجابي. لم يكن من المستغرب أن يسحب راعي البرنامج دعمه، ووجد أندرو نفسه مفلسًا ومعزولاً في بلد غريب.

أرسل أندرو برقية إلى كوري لترسل له بعض المال حتى يستطيع أن يعود إلى أرض الوطن. بينما كان أندرو ينتظر وصول المال، طُلب منه أن يعظ في كنيسة كبيرة في لوس

أنجلوس. شعر أندرو بالإحباط لأن هذا الالتزام بإلقاء عظة واحدة سوف لا يحقق مستوى الوعي الذي كان يأمل فيه، ولكنه اعتبر أن موعدًا واحدًا لإلقاء عظة في الولايات المتحدة أفضل من لا شيء.

عقب الخدمة، قدم رجل طويل ورشيق نفسه. كان اسمه "جون شيريل"، وكان محررًا للمجلة المسيحية المشهورة معالم الطريق "Guideposts".

سأل جون: "هل تمانع في أن تتناول الإفطار معي غدًا؟ إني أعتقد حقًا أن لديك قصة يحتاج أهل أمريكا الشمالية لسماعها".

في اللقاء الذي تم صباح اليوم التالي، قضى أندرو ساعتين يروي فيها لجون قصته. عندما أكمل أندرو قصته، أصبح جون أكثر اقتناعًا بأنه يتعين عليه أن يكتب مقالاً عن الأخ أندرو وعمله. وفي اليومين التاليين، قدم أندرو لجون المعلومات التي كان بحاجة إليها، ثم طار إلى هونج كونج.

بينما كان في هونج كونج، قرر أندرو أنه يجب أن يحاول استخلاص شيء حسن من الرحلة. قدم طلبًا للحصول على تأشيرة لدخول الصين الشيوعية ليرى ما تبقى من الكنيسة

هناك.

كانت الصين مختلفة عن دول أوروبا الشرقية من جانبين هامين. كانت تحت السيطرة الشيوعية لمدة ١٦ سنة فقط، منذ سنة ١٩٤٩، وكان المرسلون الغربيون يعملون في الصين لما يزيد قليلاً عن مائة عام عندما طردهم الشيوعيون. وكنتيجة لذلك، كانت نسبة مئوية قليلة من السكان فقط من المسيحيين.

عرف أندرو من واقع الاتصالات الشخصية في هونج كونج أنه من المستحيل أن يحصل على تأشيرة لدخول الصين، خاصة وأن هناك تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة في جواز سفره. ولكن لفرط دهشة الجميع مُنح أندرو التأشيرة التي طلبها. جمع أندرو بسرعة عددًا من نسخ الكتاب المقدس بالصينية ليأخذها إلى ما وراء الستار الخيرزاني، المقابل الآسيوي للستار الحديدي.

عند الحدود فتح حارس صيني حقيبة أندرو ونظر إلى الكتب المقدسة باللغة الصينية المتداولة بداخلها. انتظر أندرو ليرى ما سيحدث. هل سيُقبض عليه؟ أم هل ستتم مصادرة الكتب المقدسة؟ لفرط دهشة أندرو لم يفعل الحارس شيئًا.

وبدلاً من ذلك سأل: "هل لديك آلة تصوير؟"

أجاب أندرو: "كلا".

مع سماعه هذا الرد، سمح الحارس لأندرو بالدخول إلى الصين.

على الرغم من أنه كان من السهل إدخال الكتب المقدسة عبر الحدود إلى الصين، إلا أن أندرو سرعان ما اكتشف أن توزيعها كان شيئًا مختلفًا تمامًا. خلال السنوات التي استولي فيها الشيوعيون على الصين، لم يقوموا فقط بطرد كل الكارزين الأجانب ولكنهم نجحوا أيضًا في التدمير الكامل تقريبًا للكنيسة المسيحية. لقد استبدلوا بالكنيسة المسيحية كنيسة تصادق عليها الدولة تدعى الحركة الوطنية الثلاثية. كان يتحتم على كل راعٍ وعضو في هذه الكنيسة أن يسجل اسمه في سجلات الدولة. وكان يحظر على الرعاة أن يكرزوا أو يعلِّموا الديانة للأطفال، أو يعلِّموا عن العشور، وحفظ يوم الأحد كيوم الراحة، والشفاء الإلهي، ومجيء المسيح الثاني. وكنتيجة لذلك، أصبحت الكنيسة صغيرة ولا حول لها ولا قوة.

عندما عاد أندرو إلى هولندا، أخذ يفكر في تجربته في

الصين. كان هناك عمل يكفي مائة عامل – أو حتى ألف عامل – للعمل الجاد خلف الستار الخيرزاني. وفوق كل هذا، كان أندرو يحلم بزيارة كل بلد شيوعي في أوروبا الشرقية مرة في العام. كانت الجسامة الواضحة لتلك المهمة كاسحة، وقد علم أندرو أن عليه أن يجند المزيد من العمال.

عندما كان أندرو يتكلم في الخارج، كان الناس يسألون كثيرًا إن كان بإمكانهم الانضمام إلى خدمته. كان يعطيهم دائمًا نفس الجواب: "قم برحلة أو اثنتين فيما وراء الستار الحديدي لوحدك، واعرف إن كنت تصلح لهذا العمل أم لا، ثم تعال وتكلم معي". كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للتجنيد التي اعتقد أندرو أن فيها امتحان عادل لمدى التزام الفرد.

كانت المشكلة الوحيدة أنه لم يقم شخص واحد فعلاً بما اقترحه ... على الأقل حتى عاد إلى أرض الوطن ووجد في انتظاره شابًا هولنديًا يُدعى ماركوس.

شعر أندرو بالغبطة. ففي الوقت الذي شعر فيه أن العمل بحاجة للنمو، أرسل له الله عاملاً مصممًا على أداء الخدمة كما ينبغي. أرسل أندرو ماركوس ليعمل بعيدًا، فيقوم بتهريب الكتب المقدسة إلى يوغوسلافيا وبلغاريا.

في نفس الوقت خطط أندرو لقيامه هو وهانز جروبر برحلة إلى دولة شيوعية أخرى هي كوبا. انطلقا نحو كوبا في أواخر سنة ١٩٦٥، بعد أن استطاعا الحصول على تأشيرتين لدخول هذا البلد لأنهما كانا مواطنين هولنديين وليسا أمريكيين.

لم يجد أندرو في كوبا عجزًا في الكتب المقدسة كما وجد في الدول الشيوعية الأُخرى، وكان قادرًا على التحدث بحرية إلى درجة معقولة في الكنائس. وعلى الرغم من ذلك، كانت الكنيسة معرضة للهجوم من قبل الدكتاتور الشيوعي فيدل كاسترو. كان الرعاة يُصنفون على اعتبارهم "غير منتجين". ونتيجة لذلك، لم يكن يُعطى لهم كوبونات تتيح لهم شراء الطعام أو الملابس. ولأنهم كانوا مصنفين كأشخاص غير منتجين، كان يتم حشد العديد من الرعاة وإجبارهم على العمل، غالبًا في حقول قصب السكر. اعتقدت الحكومة الكوبية أن بهذه الطريقة فإن الكنيسة المسيحية في البلاد سوف تذبل وتموت مع مرور الزمن. على الرغم من هذه الضغوط من قبل الحكومة، التقى أندرو بقدر كبير من الجوع الروحي بين الناس في كوبا.

في طريق عودته إلى هولندا، توقف أندرو في الولايات المتحدة، حيث زار جون شيريل. كان لدى جون خبر لأندرو. كانت المقالة التي كتبها لمجلة معالم الطريق قد أحدثت ردود أفعال هائلة، وأراد الناس أن يعرفوا المزيد عن تجارب أندرو في الدول الشيوعية. وبسبب ذلك، أراد جون وزوجته، إليزابيث، أن يكتبا كتابًا كاملاً على حياة أندرو واختباراته.

لم يعرف أندرو ما يفعله بالضبط. فنشر كتاب كان يعني إلقاء المزيد من الضوء على خدمته، مما قد يؤدي لمزيد من الصلاة والدعم المالي وربما المزيد من العاملين. ولكن من ناحية أخرى، يمكن للحكومات الشيوعية من خلال الكتاب أن تعرف ما يقوم به أندرو من عمل وتحظر عليه الدخول إلى دولها مرة أخرى.

لقد كان قرارًا صعبًا، ولكن عندما صلى بشأنه، شعر أندرو أن الزوجين شيريل يجب أن يمضيا قدمًا ويكتبا الكتاب. لقد طلب منهما أن يفعلا كل ما في وسعهما لإخفاء هويته، بالإشارة إليه فقط كالأخ أندرو وتغيير بعض الأسماء، بما في ذلك تغيير اسم سانت بانكراس إلى "ويتي"،

في الكتاب. وعلى الرغم من ذلك، علم أندرو أن أي شخص يريد حقًا أن يكتشف من هو لن يجد قدرًا كبيرًا من الصعوبة في التوصل إلى ذلك.

بعد مضي عام، وفي سنة ١٩٦٦، أصبحت الصين تتصدر عناوين الأخبار يومًا وراء الآخر. كان ماوتسي تونج، القائد الشيوعي للصين، قد اقتاد حرسه الأحمر إلى ما عُرف باسم الثورة الثقافية. كان أي شخص حصل على قدر من التعليم أو يستمتع بالقراءة أو المعرفة عن العالم الخارجي يعد مستهدفًا، وقد قتل عدد كبير من الناس أو قبض عليهم. استطاع أندرو أن يعرف من المعلومات التي استطاع أن يستجمعها، أن الثورة الثقافية كانت تبيد الكنائس المسيحية القليلة التي كانت لا تزال نشطة في الصين. كان قلب أندرو يتألم لأجل المسيحيين في الصين، وكان يصلي بحرارة لطلب الاعتمادات المالية لتحسين الموقف هناك.

جاءت الإجابة على صلواته في صورة حقوق الملكية الفكرية والإبداعية من كتاب شيريل، "مهرِّب الله"، الذي نشر في العام التالي. كان ذلك الكتاب عن حياة أندرو وخدمته من أفضل الكتب مبيعًا في تلك السنة. لأول مرة حصل أندرو

على مال كافٍ للتزود بأسطول من السيارات، واستئجار ميكانيكي لجعلها جميعًا تعمل دون أعطال، وطباعة الكتب المقدسة صغيرة الحجم التي كان يحتاج إليها ليأخذها إلى الدول الشيوعية.

وعندما ازدادت منظمته في هولندا نموًا، لم ينس أندرو كل ما يتعلق بالصين. قرر أندرو أن يعمل شيئًا ما هناك.. شيئًا ضخمًا! سرعان ما علم أندرو أن أحد جنود المارينز السابقين كان يعيش في الفلبين. كان الرجل يعمل في محطة إذاعة مسيحية تبث إذاعتها للصين وباللغة الصينية. كان الرجل يشتهر باسم الأخ دافيد، وكان ملتهبًا حماسة بشأن البحث عن طريقة لتوصيل الكتب المقدسة إلى الصين. بل إنه كتب قائمة بأسماء المسيحيين الصينيين الذين كانوا على استعداد لاستلام وتوزيع تلك الكتب.

كان أندرو متأكدًا أنه سرعان ما سينضم إلى الأخ دافيد. في نفس الوقت ظل أندرو منهمكًا في البحث عن المسيحيين المضطَهَدين أو المتعرضين للقمع. كان يقضي الوقت في فيتنام لزيادة توعية الناس بمحنة أيتام الحرب، وسافر إلى إفريقيا ليرى بنفسه كيف كان الشيوعيون يتسللون إلى

حكومات الدول هناك.

ظلت هيئة الخدمة تنمو. وكما كان لأندرو مكتب في هولندا، افتتح عدة مكاتب في الولايات المتحدة وإنجلترا وآسيا. ومع وصول عدد المكاتب إلى أربعة، بدا أن الوقت مناسب لإعطاء الخدمة اسمًا رسميًا. اختار أندرو اسم "الأبواب المفتوحة مع الأخ أندرو". كانت الأبواب المفتوحة تشير إلى عدد في سفر الرؤيا ٣: ٨ يقول: "هَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ".

في سبتمبر سنة ١٩٧٥، قرر أندرو أن يعقد مؤتمرًا في مانيلا بالفلبين. أُطلق على هذا الحدث اسم مؤتمر "أحببت الصين"، وكان الغرض منه التعبير عن محبة المسيحيين لشعب الصين. حضر المؤتمر مئات المندوبين من ٥٥ هيئة كرازية مختلفة و٢٣ دولة. قام عدد من المتحدثين بتعليم الحاضرين عن الموقف السياسي والاجتماعي في الصين. قام أندرو بتحفيز الذين حضروا المؤتمر للتركيز على محنة المسيحيين المتألمين في الصين بالذهاب إلى هناك أيضًا وتشجيعهم وتوصيل الكتب المقدسة لهم، بالإضافة إلى الكرازة للشعب الصيني. إلا أن أندرو شعر بالإحباط حين

أخبره الحاضرون أن اقتراحه ليس عمليًا، وأن الباب إلـــى الصين كان "مغلقًا".

كان الأخ دافيد حاضرًا في المؤتمر، وقــد قــضى هــو وأندرو الكثير من الوقت يتحدثان معًا ويخططان ويصليان. كان كلاهما عازمين على التكـــاتف معًـــا وعمـــل المزيـــد لمساعدة الكنيسة الصينية المتألمة.

الفصل الثامن عشر

القتال يتواصل

عندما قام أندرو بأول رحلة له إلى الصين، كان محبطًا بسبب حالة الكنائس الخاضعة لإشراف الدولة والتي رآها هناك، وبسبب حقيقة أن نتائج عمل المرسلين الأجانب المطرودين كان يبدو أنها قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الاضطهاد. ولكن من خلال صداقته مع الأخ دافيد، علم أندرو أن تقييمه للموقف في الصين كان خاطئًا. لقد قام الأخ دافيد بالعديد من الرحلات إلى الصين، وذكر أن هناك نوعين من الكنائس التي تعمل في الصين: الكنائس المصادق عليها من قبل الدولة، وكنائس البيوت شأنها شأن الكنائس السرية التي عثر عليها أندرو في بعض الدول الشيوعية في أوروبا الشرقية. كانت هذه الكنائس الأخيرة تجتمع سرًا في بيوت الناس وشققهم. وطبقًا لما قاله الأخ دافيد، فإن عمل المرسلين في الصين لم يتلاش، ولكنه تأصل في تلك الكنائس. وقدّر أن ملايين المسيحيين الصينيين كانوا يحضرون اجتماعات البيوت هذه في كل أنحاء البلاد.

علم أندرو أن الحاجة الملحة لكنائس البيوت هذه كانت تكمن في الكتب المقدسة. كانت الكتب المقدسة في معظم الأحيان قليلة جدًا لدرجة أن الكتب الموجودة كانت تقسم إلى أجزاء، ويتم توزيع تلك الأجزاء حتى يستطيع الناس حفظها. سرعان ما بدأ العاملون في هيئة "الأبواب المفتوحة" في تهريب الكتب المقدسة إلى داخل الصين وتوزيعها على كنائس البيوت، ولكن دائمًا ما كان الطلب يفوق العرض. وفي يوم ما توصل أندرو والأخ دافيد إلى خطة جزئية لدعم جانب العرض من المعادلة.. مشروع اللؤلؤة.

مشروع اللؤلؤة، الذي سمي على اسم اللؤلؤة الكثيرة الثمن التي تحدث عنها يسوع في متى ١٣، كان عبارة عن خطة لتهريب مليون كتاب مقدس إلى الصين في شحنة واحدة. كانت المهمة جسيمة على المستويين المادي واللوجستي. كانت الخطة تتمثل في نقل الكتب المقدسة بالبحر إلى شاطئ مهجور بالقرب من سواتو، على بعد حوالي مائة ميل إلى الشمال من هونج كونج. ومن ذلك الشاطئ يقوم أشخاص صينيون موثوق بهم بعمليتي تخزين وتوزيع الكتب المقدسة على كنائس البيوت في كل أنحاء

البلاد. كان أندرو منهمكًا في جمع المـــال الـــلازم لتغطيـــة المشروع، الذي كانت تكلفته تزيد علـــى ٧ مليـــون دولار. بينما خطط الأخ دافيد والعاملون في هيئة الأبواب المفتوحة لعملية نقل الشحنة وتسليمها.

تم شراء قارب سحب ومركب لنقل البـــضائع خصيـــصًا للمشروع. دُعي قارب السحب "مايكـــل" ودُعـــي المركـــب "جابريلا"، على اسمي رئيسي الملائكة ميخائيل وجبرائيل.

تم تعبئة الكتب المقدسة، التي بلغ وزنها ٢٣٢ طنًا، فـــي صناديق عازلة للماء. وكان كل صندوق مربوطًا بإحكام إلى الصندوق الملاصق له. كانـــت الخطـــة تتـــضمن تعـــويم الصناديق إلى الشاطئ من المركب، باستخدام حبل لجـــذبها إلى الشاطئ باتجاه المنطقة الساحلية.

في ليلة ١٨ يونيو سنة ١٩٨١، تم تنفيذ عملية اللؤلـــؤة. شعر أندرو بالإثارة، عندما وصلته الأخبار بأن العملية قـــد سارت على خير ما يرام دون الكثير من المعوقات. تحـــت جنح الظلام، ومع ارتفاع المد عند سواتو، تم إلقاء الـــ ٢٣٢ صندوق في الماء. قام قاربان صغيران بسحب الـــصناديق المربوطة بالحبال إلى الشاطئ، حيـــث كـــان ألفـــان مـــن

المسيحيين الصينيين ينتظرون لسحب الكتب المقدسة وحملها بعيدًا. عندما تم سحب جميع الكتب المقدسة تقريبًا إلى الشاطئ، جاءت مجموعة من جنود إحدى الدوريات. أمسك الجنود بالكتب المقدسة الباقية وألقوا بها مرة أخرى في المحيط. كانت هذه الكمية في مجملها تقدر بحوالي ١٠ آلاف كتاب مقدس، أي ١% من الحمولة الكلية. ولكن أندرو شعر بالسرور حين سمع أنه في اليوم التالي، وفي كل أنحاء سواتو، كانت هناك آلاف النسخ من الكتب المقدسة ذات الأغلفة السوداء تجف في الشمس على سطوح المنازل. بل أن أندرو كان أكثر سرورًا بالعملية عندما سمع بعد عدة أسابيع أن جميع الكتب المقدسة قد سُلِّمت بنجاح إلى كنائس المنازل، والتي كان بعضها على بُعد آلاف الأميال من الشاطئ الذي ألقيت عليه الكتب المقدسة.

في ذلك الوقت، بدأ عدد كبير من الدول الشيوعية في شرق أوروبا في السماح بالمزيد من الحريات للمسيحيين. وصارت يوغوسلافيا تسمح بدخول الكتب المقدسة إلى البلاد بصفة قانونية. وفي ألمانيا الشرقية سُمح لأندرو بأن يعظ لجماهير وصل تعدادها أربعة آلاف شخص.

بحلول عام سنة ١٩٨٥ أصبحت الدول الشيوعية في أوروبا الشرقية أكثر انفتاحًا على الحرية الدينية. كان يرجع قدر كبير من ذلك بسبب مجهودات ميخائيل جورباتشوف، القائد الجديد للاتحاد السوفيتي. ادخل جورباتشوف سلسلة من الإصلاحات تعرف باسم "جلازنوست" (الانفتاح)، و"بريسترويكا" (إعادة البناء)، والتي كانت تسعى لإنهاء ٧٠ سنة من الركود الاقتصادي والقمع السياسي. وعلى الرغم من هذا الانفتاح المتنامي، إلا أن أندرو ظل يشعر بالدهشة حين سمح جورباتشوف في سنة ١٩٨٨ لهيئة الأبواب المفتوحة بإهداء مليون كتاب مقدس روسي احتفالاً بذكرى مرور ألف سنة على إنشاء الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

بدأ هذا الانفتاح الجديد في التزايد. وفي نوفمبر سنة ١٩٨٩، تم هدم سور برلين الذي كان يفصل برلين الشرقية عن برلين الغربية منذ سنة ١٩٦١. فصار بإمكان الألمان على جانبي السور أن تكون لهم شركة معًا ويعبروا عن إيمانهم بحرية. كانت الأحداث قد أدهشت الجميع فيما عدا الأخ أندرو، الذي كان قد صلى وآمن لعدة سنوات أن ألمانيا سوف تتحد يومًا ما.

في سنة ١٩٩١، سافر أندرو إلى ألبانيا، الدولة التي اكتشف قبلاً أنها من أكثر دول أوروبا الشرقية الشيوعية قمعًا. عندما كان هناك مُنح حرية كاملة، فكان يعظ لجماهير يبلغ عددها ثمانية ألف شخص، وقد وزع علانية عشرات الآلاف من النسخ من إنجيل يوحنا وسبع آلاف نسخة من العهد الجديد.

في ذلك العام التقى أيضًا باثني عشر راعي إيراني وزوجاتهم لاكتشاف أفضل الطرق لخدمة المسيحيين الإيرانيين الذين يعيشون كأقلية مقهورة. بعد ذلك الاجتماع بوقت قليل سُجن اثنان من الرعاة. وفيما بعد تم إطلاق سراحهما من السجن، ثم قُتلا بطريقة غامضة. شعر أندرو بالحزن لسماعه هذا النبأ، ولكنه ظل يشجع المسيحيين في كل مكان على مواصلة تقديم رسالة الإنجيل للجميع حسب وصية المسيح "اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا". كان أندرو يذكّر الناس حيثما ذهب بهذا القول: "نحن لا نحارب الديانات الأخرى أو الشيوعيين.. بل نحن نحارب الشيطان".

تواصل قتال أندرو. في سنة ١٩٩٥ تخلى الأخ أندرو

البالغ من العمر ٧٦ سنة عن دوره في رئاسة هيئة الأبواب المفتوحة. حل مكانه كرئيس للهيئة صديقه وزميله ومواطنه الهولندي، "جوهان كومبانجن"، الذي أكد الأهداف الثلاثة التي أرساها أندرو للهيئة:

(١) توصيل الكتب المقدسة بكل وسيلة ممكنة إلى الدول التي يحظر فيها تداول تلك الكتب.

(٢) تدريب قادة الكنيسة الذين يعيشون في دول مقاومة للإنجيل.

(٣) دعم وتشجيع المؤمنين الذين يعانون بسبب إيمانهم.

كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كان الأخ أندرو يسافر مع كوري لزيارة ونصيحة المجموعة المترابطة المكونة من ٣٥٠ عاملاً الذين يشكلون عصب المكاتب الرئيسية لهيئة الأبواب المفتوحة في ١٧ دولة حول العالم. يقوم هؤلاء العاملون، بالإضافة إلى جيش من المتطوعين، بتهريب مليون كتاب مقدس في السنة إلى الصين ومئات الآلاف من نسخ الكتاب المقدس إلى الدول الأخرى المغلقة.

في سنة ٢٠٠٥ احتفلت هيئة الأبواب المفتوحة بمرور ٥٠ سنة على تأسيسها. كان من الصعب على أندرو أن يصدق

أن ٥٠ عامًا قد مضت منذ أن جلس في الشارع في وارسو ببولندا، وشعر أن الله يتكلم إليه من العدد الوارد في سفر الرؤيا، الإصحاح الثالث، والذي يقول: "كُنْ سَاهِرًا وَشَدِّدْ مَا بَقِيَ، الَّذِي هُوَ عَتِيدٌ أَنْ يَمُوتَ".

هذا ما حاول أندرو جاهدًا أن يفعله كل يوم في حياته طوال خمسين عامًا منذ ذلك الحين. في العام السابق، سنة ٢٠٠٤، وزعت هيئة الأبواب المفتوحة ٥ مليون كتاب مقدس ومطبوعات مسيحية أخرى للمسيحيين المضطهدين. قامت الهيئة أيضًا بتدريب ما يزيد على ١٣٨ ألف راع وقادة آخرين للكنائس.

واليوم، فان كتاب "مُهرِّب الله" ما زال من أكثر الكتب مبيعًا. ما يزيد على ١٢ مليون نسخة من الكتاب تحت الطبع الآن بأكثر من ٤٠ لغة. وكثيرًا ما يلتقي أندرو بمسيحيين في البلاد المغلقة قرأوا نسخة محظورة من الكتاب بلغتهم الخاصة.

يركز أندرو في "سنوات اعتزاله العمل" على جهوده الشخصية في الدول التي تحظر تداول الكتب المقدسة. إن خطته لا تتغير أبدًا، وهي زيارة المسيحيين الذين يتعرضون

للاضطهاد، ونقل التحية لهم من المسيحيين الآخرين، واكتشاف أكثر ما يحتاجون إليه لتقوية إيمانهم. يقول أندرو في إشارة إلى ما جاء في متى ٢٥: "يجب عليك أن تتواجد هناك. فليس بإمكانك أن تعطي شخصًا ما شيئًا ليأكله ما لم تتواجد هناك، ولا تستطيع تقديم الشراب أو الملابس أو زيارة المرضى والمحبوسين ما لم تتواجد هناك".

و"التواجد هناك" هي الرسالة التي عاش لأجلها أندرو فان دير بيجل ما يزيد على ٥٠ سنة.

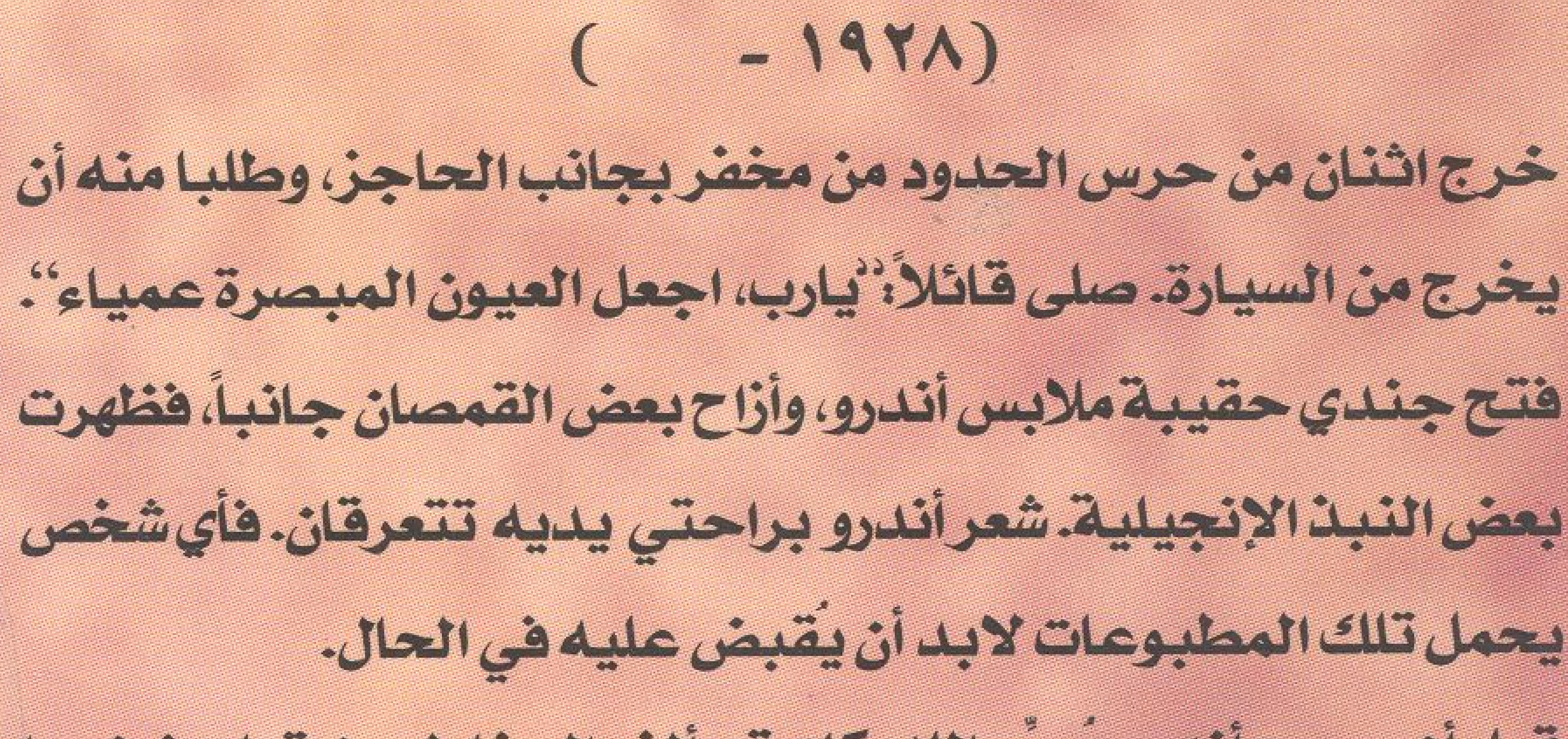
أحدث إصدارات مكتبة المنار

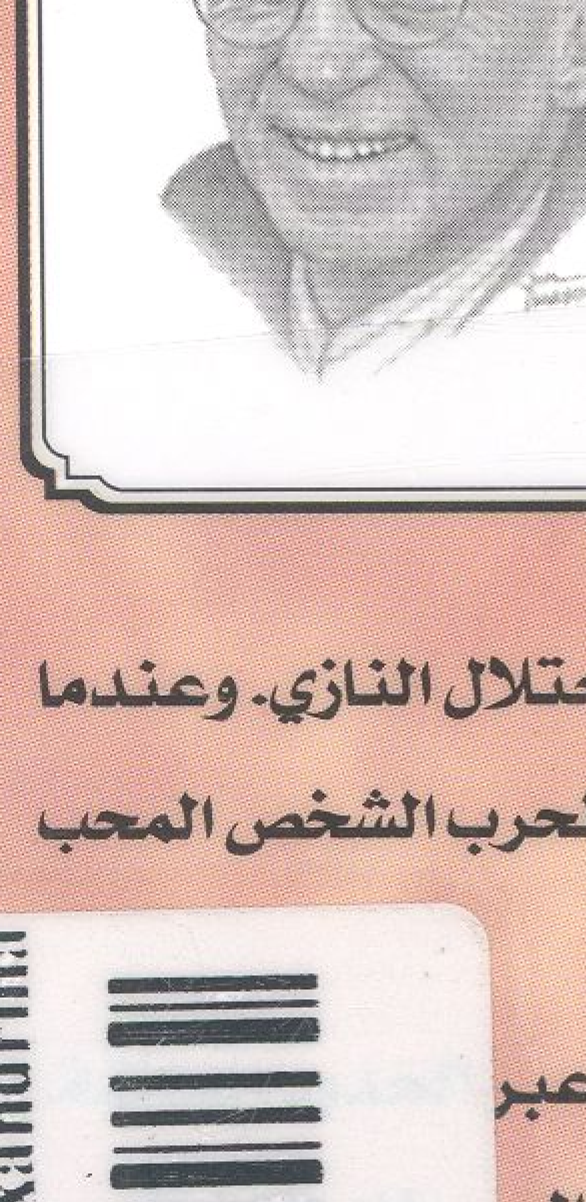
م	اسم الكتاب
١	لورن كننجهام ــ إلى العالم أجمع
٢	العارفون اسمك
٣	التحدث بكلمة الله
٤	أول ٥ دقائق بعد الموت
٥	عندما تكون المعجزة هي الحل الوحيد
٦	الطريق الجميل
٧	رحلة في عقل إنسان
٨	الصلاة الموجَّهة نحو الهدف
٩	اتبع المصلوب
١٠	الكتاب القادر على تحويل الأمم
١١	الأحلام المنهارة والوعود المُحقَّقة
١٢	١٢٠ يوم صلاة مركزة لأجل النهضة
١٣	أيقِظوا الحراس
١٤	العلاقات ــ مفتاح علاقات المحبة
١٥	١٠١ مبدأ للقيادة

قصص ملهمة لرجال ونساء إستجابوا لدعوة الله

فتاه أيرلندية ثرية تنقذ الأطفال في الهند؟ شابة إنجليزية تكرز بالإنجيل في الصين؟
طيار أمريكي يخدم المرسلين في الإكوادور؟

سلسلة أبطال الإيمان : في الماضي والحاضر، تسرد القصص الواقعية المثيرة، الملهمة والمؤثرة لرجال ونساء عاديين حققت ثقتهم في الله إنجازات باهرة لملكوته ومجده.





الأخ أندرو

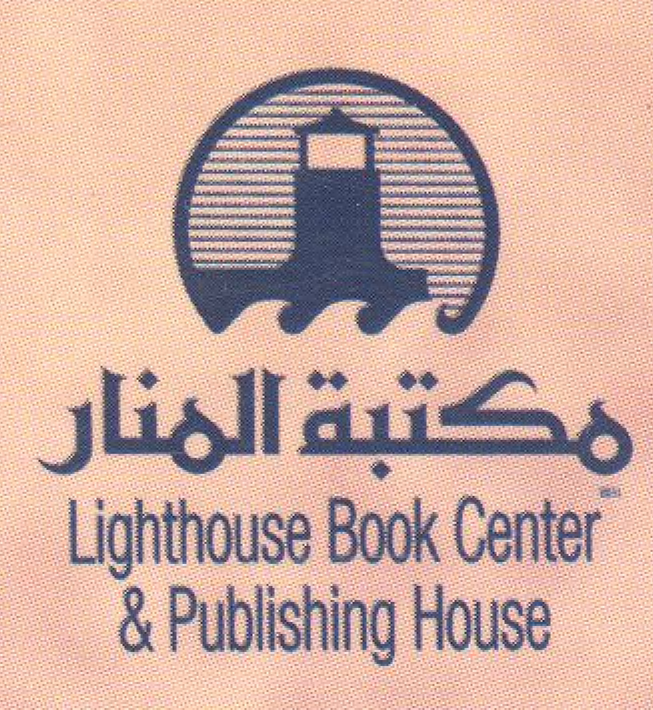
(١٩٢٨ -   )

خرج اثنان من حرس الحدود من مخفر بجانب الحاجز، وطلبا منه أن يخرج من السيارة. صلى قائلاً: "يارب، اجعل العيون المبصرة عمياء". فتح جندي حقيبة ملابس أندرو، وأزاح بعض القمصان جانباً، فظهرت بعض النبذ الإنجيلية. شعر أندرو براحتي يديه تتعرقان. فأي شخص يحمل تلك المطبوعات لابد أن يُقبض عليه في الحال.

قبل أن يصبح أندرو مُهرِّب الله، كان قد ألف المخاطر من قبل. فعندما كان صبياً، انضم أندرو فان دير بيجل الشجاع إلى المقاومة الهولندية ضد الاحتلال النازي. وعندما كان شاباً، قاتل بحماس في جزر الهند الشرقية الهولندية، حتى حولت أهوال الحرب الشخص المحب للمغامرات إلى حياة إدمان الخمر واليأس.

وإذ اقتاده الله، صار الهولندي رسولاً جسوراً للرجاء، ومهرّباً للكتاب المقدس عبر […] مقدماً المساعدة للمسيحيين المضطهدين فيما وراء الستار الحديدي. أما اليوم […] وخدمة (الأبواب المفتوحة) يواصلان إنارة أظلم بقاع العالم بنور المسيح.





مكتبة المنار
Lighthouse Book Center
& Publishing House
www.lighthouseegypt.com